إذا صحَّ النصُّ

أَبْحاثٌ نَصِّيَّةٌ نحْويَّةٌ

الدكتور محمد جمال صقر

كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

إذا صح النص

أبحاث نصية نحوية

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع : ١٨٧١٢ / ٢٠٠٧

الناشر
مؤسسة العلياء للنشر والتوزيع

٤٦ ش البستان - عابدين - القاهرة
ص.ب ٢٠٣٣ الرمز البريدي : ١١٥١١
ت وفاكس ٣٩٦٢٣٤٦
E-mail:elalyaapublisher@yahoo.com

إذا صَحَّ النَّصُّ

أَبْحاثٌ نَصِّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

الدكتور محمد جمال صقر
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

مؤسسة العلياء

لسان العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللّـهِ

ـ سُبْحانَه، وَتَعالى! ـ وَبِحَمْدِه،

وَصَلاةً عَلى رَسولِه وَسَلامًا،

وَرِضْوانًا عَلى صَحابَتِه وَتابِعيهِمْ،

حَتّى نَلْقاهُمْ!

مُقَدِّمَةٌ

نَشَأْتُ مولَعًا بنصوص الكلام العربي: الشعرية، والنثرية، والقرآنية، أتذوقها، وأحفظها، وأؤديها. ثم لما تَخَصَّصْتُ لِتَعَلُّمِ نَحْوِ الْكَلامِ العربي، وعِلْمِه، وتَعْليمِه، لم يكن في وسعي إلا أن أجري مجرى أساتذتي المولعين مثلي بذلك؛ فأشتغل من أي نص بمكونات الجملة الواحدة التي أفاضت في بيانها كتب علم النحو، أو بروابط الجملتين الاثنتين التي أفاضت في بيانها كتب علم المعاني، وأظن أن في ذلك كفاية التعبير عن طبيعة وجود النص النحوي!

واهتديت في خلال ذلك إلى كتب شرح الكلام العربي، ثم اشتغلت منها بصفات العلاقات النحوية المختلفة، ثم احتفزت بها إلى تأمل ما وراء الجملة والجملتين من النص، حتى إذا ما كَرَبَتِ الباحثين مَقالاتُ علم نحو النص، أَلِفَ بيني وبينها أنها «بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا»!

هي رحلة مستمرة إلى النص المستمر، أُحِسُّ بعد كل مرحلة من مراحلها، بمثل ما كان قَرَطْنا على حديث رسول الله ـ صلى الله عليه، وسلم! ـ يحس به بعد كل مرحلة من مراحل رحلته إليه؛ فيقول ـ رضي الله عنه! ـ عبارته الخالدة الضابطة: «إِذا صَحَّ الْحَديثُ فَهُوَ مَذْهبي»!

كأني به يطلب الحديث مرة بعد مرة، كلما تغيرت الحياة مرة بعد مرة؛ فسرقتُ منه «إذا صَحَّ الْحَديثُ»، ووضعت «النَّصّ» موضع «الْحَديث»!

هي رحلة ذات مراحل؛ كل مرحلة مقام، ومقاماتها ذوات أبحاث؛ كل بحث مزاجان: عِلْميٌّ يَتَقَدَّمُ به، وفَنّيٌّ يُحامي عنه؛ فلا يُغْني بَحْثٌ عن بَحْثٍ!

وكتب بروضة مصر العتيقة، محمد جمال صقر

في ٨/ ١٢/ ١٤٢٦هـ=٨/ ١/ ٢٠٠٦م

mogasaqr@yahoo.com

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

رِعايَةُ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ

لِعُروبَةِ أَطْوارِ اللُّغَةِ وَالتَّفْكيرِ

مقدمة

خفاء أحوال اللغة على صاحبها:

[١] تبدو اللغة للمتأمل، على مثل ما يبدو له صاحبها: تتطور وتجمد، وتستقيم وتعوج، وتقوى وتضعف، وتَفِضح وتغمض، وتحسن وتقبح، وهكذا طورا على طور؛ فلا ينشط لِتَخْطيءِ مقالة الناقد الغربي التي صارت مثلًا عالميًّا «الأسلوب هو الرجل نفسه».

وأعجب من أحوالها تلك كلها، أن صاحبها يكاد لا يراها حتى ينبهه غيره إليها، كما يكاد لا يرى نفسه وإن نظر في مرآته، حتى ينظر في مرآة غيره!

فضل عمل ستتكيفيتش:

[٢] ولقد تأمل اللغة العربية من كثب وعرف دون غيره كثيرًا، جاروسلاف ستتكيفيتش الأستاذ الجامعي اليوغوسلافي الأمريكي المعاصر، الذي طوّف في بلادنا من شرقيها إلى غربيها أستاذًا زائرًا؛ فدرس تطور اللغة العربية ألفاظًا وتعابير، وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء، لتحديث العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة؛ فبحث لذلك مسائل القياس والنحت وتعريب الألفاظ والتعابير وتطور الدلالة وتيسير النحو، ثم انتهى إلى أن «العربية الحديثة تبتعد الآن عن اللغتين كلتيهما الفصحى والعامية؛ فبينما تحتفظ بالبناء الصرفي للعربية الفصحى، تقترب من حيث التركيب النحوي والأسلوبي في الشكل والروح من عائلة اللغات التي تعبر عن الثقافة الغربية، وهذا مشروط بأن تمضي العربية المعاصرة في هذا الطريق إلى مداه، وربما لا يمضي جيلان أو ثلاثة حتى تصبح عضوًا متكاملًا في عائلة الثقافة الغربية، وحيث تسهم بدور كامل في هذه الجماعة اللغوية الحديثة المشتركة. وسوف يخضع النحو ـ عندئذٍ ـ لتغيرات بعيدة الأثر فرضتها عليه ديناميكية الفكر الغربي. إن أنماط الجملة الفعلية والاسمية لن تكون الخواص النحوية الأساسية، وبدلًا من ذلك سوف يكون مفهوم النبر الدلالي حاكمًا لترتيب عناصر الجملة. وسوف يتطلب هذا تغيرًا طبيعيًّا في الاتجاه من الجانب الشكلي القواعدي إلى الجانب الأسلوبي الديناميكي. إن الجملة العربية سوف تصبح أغنى بالجمل التابعة وسوف يصبح نظامها وترتيب عناصرها مرنا كالعادات الفكرية الحديثة. ومن الملاحظ أن هناك اتجاهًا واضحًا للابتعاد عن البساطة التركيبية. إن النماذج الأسلوبية التي قدمها طه حسين وجيله هي من الوضوح والبساطة بحيث كثر استخدامها حتى بين كتاب وشعراء هذه الأيام، ومع

ذلك فإن الاتجاه إلى تعقيد جديد لن يعود بنا إلى النماذج القديمة، إن النماذج الجديدة المستمدة من المصادر الخارجية والناتجة عن الاتصال الثقافي واللغوي سوف تأخذ مكانها... والواقع أن التطورات الثانوية ـ التي ستكون نتائج لاقتراض المصطلحات ـ سوف تظهر ـ وبطريقة طبيعية وبسهولة ويسر ـ المخزون الأساسي للتعبيرات الحديثة أو قوالب التعبير الحديثة. إن محاكاة الأساليب المعربة سوف يتبعه سلسلة من المشتقات الأسلوبية الفعّالة، والتي سوف تبدو أصيلة في إطار الروح الجديدة للغة. إن مستقبل اللغة العربية لن يكون في حلول مصطنعة بين المصدرين الأساسيين للغة: الفصحى والعامية والتي تعمل كل واحدة منها ضد الأخرى، ولكن سيكون هذا المستقبل في خط مستقيم للتطور غير بعيد عن الصرف السامي القديم متوجها إلى نحو غير سامي تفرضه عادات التفكير أكثر مما تفرضه عادات الحديث اليومي الحي. وعندئذٍ فحسب، سيكون العرب ـ بامتلاكهم لغة يفكرون بها ـ قادرين على التغلب على مشكلة الصراع بين الفصحى والعامية. إن الفصحى التقليدية كانت ـ وسوف تكون ـ عاجزة عن مواجهة العاميات لأنها لا تعكس العادات الفكرية للذين يستخدمونها. إن العربية الحديثة التي نحاول تحديدها وتعريفها هنا سوف تصبح لغة للفكر المتطور تمامًا، وسوف تكون مثلًا للحيوية والقوة، وسوف تحل محل اللهجات المنطوقة دون أن تطمسها طمسًا مصطنعًا)).(١)

أفكار ستتكيفتش الثمانية الخطيرة:

[٣] لقد أفضى به تأمله إلى إثبات اقتراب اللغة العربية من عائلة لغات الثقافة الغربية؛ فتطوع ببيان ما ينبغي للغة العربية ـ والمراد العرب ـ أن تصطنعه بنحوها، لتصبح عضوًا عاملًا مؤثرا في تلك العائلة؛ فزادنا إيمانًا بمكانة النحو من لغتنا، وتمسكا بخصائص العروبة فيه.

وربما اعتذرت عن طول النص الآنف إيراده، أفكاره الكثيرة الخطيرة، التي خشيت أن أجور عليها أيَّ جور، وأرجو أن أستخلصها فيما يأتي بضمير الشأن الخطير:

الفكرة الأولى: أنه ليست للعرب الآن لغة يفكرون بها. أما العامّية فلغة عادات الحديث اليومي الحي، وأما الفصحى التقليدية فلا هي بهذه المنزلة ولا هي لغة عادات تفكير من يستخدمونها.

الفكرة الثانية: أنه توشك أن تولد بعيدا عن الفصحى التقليدية والعامية المتضادتين، عربية فصحى حديثة تنتمي بتطورها النحوي إلى عائلة اللغات الغربية الثقافة.

الفكرة الثالثة: أنه تعتمد صيرورة العربية الفصحى الحديثة الوليدة، عضـوا عـاملًا مؤثرًا في الثقافة اللغوية الغربية، على بلوغ تطورها النحوي مداه.

الفكرة الرابعة: أنه تقتضي (ديناميكية) الفكر الغربي، نحو العربية الفصحى الحديثة الوليدة، أن يتخذ النبر الدلالي معيارًا لترتيب عناصر جمله، فيتجـه مـن الجانـب الشـكلي (القواعدي) في العربية الفصحى التقليدية، إلى الجانب الأسلوبي (الديناميكي) في عائلـة اللغات الغربية الثقافة.

الفكرة الخامسة: أنه يفضي ذلك متى تَمّ، إلى غنى الجملة العربيـة بالجمـل التابعـة، وصيرورة نظامها وترتيب عناصرها، على مثل مرونة العادات الفكرية الحديثة الغربية.

الفكرة السادسة: أنه تفضي محاكاة الأساليب (التعابير) الغربية المعربـة، إلى سلسـلة من المشتقات الأسلوبية (التعبيرية) الفعّالة، تبدو أصيلة في إطار الروح اللغوي الحـديث الوليد.

الفكرة السابعة: أنه ينجح الأسلوب الغربي السهل المعرب الحديث الوليـد متمـثلًا في أسلوب طه حسين وجيله، بين من تلاه من الكتّاب والشعراء.

الفكرة الثامنة الأخيرة: أنه على رغم اتجاه بعض الأساليب إلى التعقيـد، لـن تعـود العربية الفصحى الحديثة الوليدة، إلى العربية الفصحى القديمة التقليدية.

بعض هذه الأفكار كما لا يخفى، من المأثورات الغربية [٣]، ولكـن جـدّةَ أكثرِهـا ودقـةً علميةً فيها، حافزان كافيان إلى تقليبها على وجوهها، وإدامة النظر فيهـا، ومراعاتهـا فـيما يأتي، بمسائل البحث، دونما تقليل منها أو من صاحبها؛ وإلا لم نكن جديرين بالحياة التي تعلقنا بها، ولا بالحضارة التي تعلقت بنا!

المَسْألةُ الأولى: اللُّغةُ والتَّفْكيرُ

((اللغة أداة)):

[٤] تروج فتجوز لدينا أفكار ضعيفة؛ إذ نحن أسرع إلى قبول الحكم، منا إلى مكابـدة تحصيل الحقيقة. من ذلك أن اللغة أداة، عـلى اخـتلاف مـا هـي أداتـه، مـن التفـاهم إلى التواصل، ومن التفكير إلى التعبير؛ فإن الأداة في لسان العرب آلة المحترف التي تقـيم لـه حرفته [٣]. إنه إذا كانت الكتابة أداة الكاتب التـي تقيـد لـه في بيـاض الصـفحات سـواد الكلمات الكائنة لديه آنفًا، فإن عَجَزَ استبدل بها أخرى قادرةً، كتسجيل الصـوت مـثلًا - كان التفاهم والتواصل والتفكير والتعبير، أولًا، فإن عجزت اللغة التي تؤديهـا اسـتبدل بها مستعملها أخرى قادرة!

قال الدكتور طه حسين: ((نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام، حظًا يجعلها ملكا لنا))[٤]. وإنني على رغم قول أستاذنا محمود محمد شاكر - رحمه الله! - : ((اللغة أداة التفكير، وأداة البيان، لا يكاد أحد يرتاب في أن هذا حق، وأنه واضح شديد الوضوح))[٥] - أرتاب في أن هذا واضح شديد الوضوح، وأتمنى أن مجلسه المورود جَديدٌ، ليوضحه لي؛ فلابد أن للأداة عنده معنى غير ذلك[٦]، ربما وضحه قليلًا الدكتور مصطفى ناصف، برؤيته اللغة أداة النمو الإنساني المتميز كله، وتخطيئه لرؤية بعض الدارسين أو المدرسين، لها نظامَ إشارات تنبيهية إلى تكوين الصور المتخيلة[٧]. وربما زاد ذلك، الدكتور محمد عابد الجابري، برؤيته ((أن اللغة ليست مجرد أداة الفكر، بل هي أيضًا القالب الذي يتشكل فيه الفكر[٨]، وإن لم يفر من (الأداة) وهي عامة، إلا إلى (القالب) وهو أداة خاصة. ثم هو قد ترك كلمة (تفكير) إلى كلمة (فِكْر)، وبينهما فرق لطيف لم يدركه بعض الباحثين))[٩].

الفَكْرُ والتَّفْكيرُ والفِكْرُ:

[٥] إن (الفِكْر) في لسان العرب، نتيجة (الفَكْر) الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، وهو الحدث الذي مع الزمن في (فَكَر يَفْكِرُ)، وإن (التفكير) كثرة (الفَكْر)[١٠]، وربما غلب استعمال صيغة التفعيل لكثرة هذا الحدث وتعلّق حياة الإنسان به، قال دي بونو: ((التفكير هو التقصي المدروس للخبرة من أجل غرض ما. وقد يكون ذلك الغرض هو الفهم، أو اتخاذ القرار، أو التخطيط، أو حل المشكلات، أو الحكم على الأشياء، أو القيام بعمل ما، وهلم جرا))[١١].

وإنما فهمت معنى النتيجة من كون (الفِكْر) اسم المصدر (فَكْر). وقد حرّرتُ من لسان العرب، أن هذا النوع من اسم المصدر عبارة عن نتيجة إحداث المصدر، مثل: (حِمْل) المنتوج عن (حَمْل) الذي (تَحْميلٌ) مبالغته، ومثل: (مِلء) المنتوج عن (مَلء) الذي (تَمْلِئةٌ) مبالغته، صياغة واردة وإن لم تطرد.

(الفِكْر) إذن ثمرة (التفكير)؛ ولذا ينظر فيه الفلاسفة، فأما (التفكير) فينظر فيه النفسيون واللغويون والتِّقْنيون. إنّ العالم - مهما يكن علمه - إذا تأمّل أصول علمه واهتدى إلى حكمتها، كان فيلسوفًا اهتدى إلى فلسفة، ولو بلغ كل عالم في علمه هذا المبلغ، لاستغنى عن الفيلسوف، ولو اشتمل كل علم في نفسه على ذلك، لاستغنى عن الفلسفة.

الفَلاسِفةُ وعَلاقةُ اللُّغَة بالفِكْر:

[٦] لقد تأمّل عثار نَهْضة العرب الحديثة، فيلسوفان عربيان معروفان:

أما الدكتور زكي نجيب محمود فكتب مقالاته التي جمعها بعدئذٍ في كتابه ((تجديد الفكر العربي))، منبهًا إلى حاجة الحياة الجديدة إلى فكر جديد، جاعلًا اللغة العربية أكبر همّه، حافرًا فيها عن أصول الفكر العربي(١٢). وهو الذي رد في كتاب آخر، زعم بعض الناس أن في نفسه معنى لا يستطيع التعبير عنه، بأنْ ليس فيها من شيء إلا الوهم! وربط اضطراب العبارة باضطراب الفكرة، وضرورة ضبط العبارة بضرورة ضبط الفكرة(١٣).

وأما الدكتور محمد عابد الجابري فكتب مقالاته التي جمعها في كتبه الثلاثة ذات الإطار الواحد ((نقد العقل العربي))، أي ((الفِكْر))، وتأمّلَ أولًا تكوين العقل (الفِكْر) العربي، داعيًا إلى التحرر من الميت أو المتخشب في كياننا العقلي (الفِكْري)، فسحًا للحياة أن تستأنف فينا دورتها وتعيد زرعها، جاعلًا اللغة العربية أوّل همّه قائلًا: ((سنجد أنفسنا دومًا إزاء محدد أساسي، ولربما حاسم، للعقل العربي من خلال اللغة التي ينتسب إليها وتنتسب إليه)) (١٤).

علاقة اللغة بالفكر الذي هو ثمرة التفكير إذن هَـمٌّ الفلاسفة اللازم، وهي لديهم علاقة وثيقة، وليس أدل على ذلك من تسميتهم قانون الفكر الذي بحثه لديهم هو لُبُّ الفلسفة، علمَ المنطق الذي هو في لسان العرب الكلام(١٥).

النَّفسيّون اللُّغَويّونَ وعَلاقةُ اللُّغَة بالتَّفْكير:

[٧] ولقد تميز من علم نفس الكلام (سيكولوجية اللغة)، علم جعل همه تفكيك الكلام وتركيبه وحال المتكلم والمخاطب من هذا وذاك، هو علم النفس اللغوي (علم اللغة النفسي)(١٦) الذي اتسع في ستينيات القرن العشرين بمبادئ نظرية النحو التوليدي، ليدرس ظاهرة الكلام (السلوك اللغوي): كيف تنشأ وكيف تدرك؟(١٧) فكان من مسائل هذا العلم الجديد علاقة اللغة بالتفكير(١٨).

بنظر النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين) في هذه المسألة، وضحت ثلاثة اتجاهات: واحد رأى اللغة والتفكير شيئًا واحدًا، وثانٍ رآهما شيئين منفصلين، وثالث رآهما شيئين متصلين اتصالًا وثيقًا من حيث ألفاظُ اللغةِ أفكارٌ صوريةٌ أو مجردةٌ، وتراكيبُ اللغةِ اتجاهاتٌ عامةٌ وأساليبُ تفكيريةٌ. ومن أصحاب هذا الاتجاه الثالث الأخير من رأى التفكير أقوى تأثيرًا في اللغة منها فيه، ومنهم من رأى اللغة أقوى تأثيرًا في التفكير منه

فيها، ومنهم من رأى كلًّا منهما مثل الآخر تأثيرًا وتأثرًا وافتقارًا. وهذا الفرع الأخير من الاتجاه الأخير، أحظى بقبول المعاصرين وأشيع فيهم من سواه[19].

ولقد استطرد نظرهم إلى بحث اضطراب التفكير. وعلى رغم دلالة الاختبارات الأدائية (التي تعتمد على الأداء اليدوي أو معاملة الصور أو غير ذلك) على مبلغ اضطراب التفكير، رأوها أقل أهمية من دلالة اضطراب اللغة، وانتهوا إلى أنهما مضطربين مثلهما متزنين، متصلان اتصالًا وثيقًا، حتى لقد عجزوا عن تمييز البادئ منهما من المبدوء، طامحين إلى زيادة بحث المسألة[20].

علاقة اللغة بالتفكير الذي ينتج الفكر إذن من هموم النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين)، التي اتضح منها ارتباط علم اللغة بعلم النفس، وهي لديهم علاقة وثيقة[21].

التِّقْنِيّون وعَلاقَةُ اللُّغَة بالتَّفْكير:

[٨] أما التِّقنيون علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، فأحلامهم التي حققوا بعضها، قائمة على الإيمان بأفكار بعض فلاسفة اللغة أمثال فيتجينشتين الذي ردّ القول بأدوية اللغة، ورآها هي العالم، وحفزهم بمثل مقولته: ((كل ما يمكن أن يقال يمكن أن يقال بوضوح))، إلى تفتيت كل كيان معرفي إلى عدد محدود من العناصر الذريّة، يمكن أن تبنى منه كل الأشكال المعقدة للبنى المعرفية وآلياتها[22].

قُدَماؤُنا وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالتَّفْكير:

[٩] وعلى رغم تهاويل ما تقدم، تبرز قضية علاقة اللفظ بالمعنى التي شغلت من قديم إلى حديث، علماء لغتنا حتى قالوا بالتعليل، ونقاد أدبنا حتى قالوا بالنَّظْم ـ علامةً على أصالة وعي علاقة اللغة بالتفكير، في ثقافتنا العربية[23]، التي من استوعبها نظرًا وعملًا، رأى اللغة مِلاكَ التفكير والتفكير ملاك اللغة، وقول القائل: قلتُ، وقوله: فكّرْتُ، سواءً، ولم يصرفه عن ذلك، حال الصم البكم، الذين يفكرون ولا يتكلمون؛ إذ هم يتعلمون اللغة من أهلهم كما يتعلمها غيرهم، ولا شيء إلا أنهم يركّبونها من كلمات الأصابع؛ فإن أهلهم يعلمونهم بالإشارة المعنى (الكلمة) والفُكَيْرة (الجملة) والفِكْرة (الفِقْرة) والقضية (النَّصّ)، على النحو الذي يعيشون ويعايشونهم به. ولم نعرف بَعْدُ البلد الذي أهله كلهم صم بكم!

دلالات فكرة ستكيفتش الأولى:

[١٠] لا تخرج دلالة الفكرة الأولى السابق استنباطها من نص ستكيفيتش في الفقرة الثالثة، عن أن تكون إحدى ثلاث:

أنْ ليست اللغة غير أداة، ويمكن للتفكير الاستغناء بغيرها عنها، وهو ما عليه العرب الآن.

أنْ لا تفكير دون لغة، وبعدم اللغة ينعدم التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

أن لا تفكير متزنا بلغة مضطربة، وباضطراب اللغة يضطرب التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

نقد الدلالة الأولى:

[١١] فضلًا عن شياع وعي علاقة اللغة بالتفكير، السابق بيانه، يزيّف قصدَ الدلالة الأولى عدمُ اشتغال ستكيفيتش ببيان الأداة المستغني بها التفكيرُ عن اللغة، بل قد اشتغل بعكس ذلك مما يأتي طرف منه في أثناء هذا البحث.

نقد الدلالة الثانية:

[١٢] ولما كان وجود الإنسان مشروطًا في الثقافة الغربية الحديثة، بكونه مفكرا، أي «قادرًا من خلال ملكة اللغة على ممارسة التحليل المنطقي والرياضي واكتساب المعرفة وتوظيفها لتوليد معارف جديدة»[١٩] ـ تفضي الدلالة الثانية مما سبق، إلى دلالة أخرى محتومة: أن لا عرب الآن، أو هُمْ كما قيل وهمٌ، والوهم كما سبق في الفقرة السادسة، لا لغة له!

إنه على رغم جنون هذه الدعوى، من التغافل عن مقتضى شواهد كثيرة مختلفة أن في العالم الآن ـ مهما تكن الأحوال والأهواء ـ عربا، وأن في العالم الآن ـ من ثم ـ لغة وتفكيرًا عربيين، واستحسان أهلنا لنا أن نتغافل عنها قائلين: «إذا كان المتكلم مجنونًا فالمستمع عاقل» ـ يحملنا على تصديق قصد دلالة الدلالة الثانية، ما صح لدينا على الزمان، عن الحضارة الغربية ـ وهو آفتها ـ من أنها لا ترى إلا نفسها؛ فلا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتماد طرائقها، وكأن ما كان قبلها من حضارات وما يكون، حديث خرافة[٢٠].

نقد الدلالة الثالثة:

[١٣] ينبغي لمن يدافع الظلم، أن يتحرى العَدْل؛ فأتجاوز إلى الدلالة الثالثة الأخيرة المحتملة، بل أورد قول الجابري وكأنه يفصّلها: المثقف الذي يتكلم بالضرورة لغة عامية هي «أغنى» بكثير من العربية الفصحى في مجال الأشياء الحضارية لكونها تقتبس أسماءها من لغات أخرى مع بعض «التكسير» ـ لا يستطيع التعامل بها فكريًا. إن العامية رغم غناها «التكنولوجي» الحضاري لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير، فهي ليست لغة ثقافة وفكر. ومن هنا فقرها المدقع رغم غناها الظاهري. والنتيجة هي أن المثقف العربي سواء كان طالبًا أو أستاذًا يعيش عالمين كلاهما قاصر: عالم لغته العامية وعالم اللغة الفصحى. أما الأمي العربي ـ وهو الذي يشكّل الأغلبية ـ فهو مسجون في عاميته يتعامل مع أشياء لا يسميها، وإذا فعل سمّاها بأسماء أجنبية مع بعض «التكسير» الضروري الذي لاشك في أنه يترك أثره العميق في عقله، في بنيته الفكرية. أما ذلك العربي الذي يعرف لغة أجنبية واحدة أو أكثر فهو يعيش ثلاثة عوالم مختلفة: إنه «يملك» ثلاثة تصورات «للعالم»: يفكر بلغة أجنبية، ويكتب بلغة عربية فصحى، ويتحدث في البيت والشارع، بل وفي الجامعة؛ باللغة العامية(٣٦).

كيف يستقيم للعرب الآن تفكير، وهم يعيشون بلهجتهم الحياة الحديثة، ويفكرون بلغتهم التفكير القديم؟ إنها مشكلة اضطراب لغوي تفكيري تؤيّده فكرة ستكيفيتش الثانية السابقة في الفقرة الثالثة نفسها، لا مشكلة لغة وتفكير مضطربين. هذا أحسن ما تُحمل عليه دلالة فكرته الأولى، لولا العجب من المفكر بلغةٍ غير العربية الذي ذكره الجابري: كيف يكون عربيًّا!

أما انقسام اللغة إلى نمطين: مُبتذل مستهلك في شؤون الحياة اليومية العادية، وممتنع مصون لشؤون الحياة العقلية الغير العاديّة ـ تختلف المسافة بينهما ما اختلفت الثقافات وما اختلف الليل والنهار، فأمر صحيح، فيه التكامل الطبيعي، وليس فيه الاضطراب الذي تشير إليه فكرة ستكيفيتش الأولى، ولا التضاد الذي تنبه عليه فكرته الثانية.

لقد فصّل الدكتور وافي مشكلة اختلاف لغة الكتابة ولغة الحديث (اللهجة)، بعد أن بيّن أنه «يقصد بلغة الكتابة أو بلغة الآداب، اللغة التي تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات وشئون القضاء والتشريع والإدارة، ويدون بها الإنتاج الفكري على العموم، ويؤلف بها الشعر والنثر الفني، وتستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات، وفي تفاهم الخاصة بعضهم مع بعض وفي تفاهمهم مع العامة إذا كانوا بصدد موضوع يمت إلى الآداب والعلوم. ويقصد بلغة الحديث اللغة العامية التي نستخدمها في شئوننا العادية، ويجري بها حديثنا اليومي»(٣٧) ـ وحجج فريقين نظرًا في حلها، قال أحدهما: برفع

لهجة الحديث إلى لغة الكتابة، وقال الآخر: بخفض لغة الكتابة إلى لهجة الحديث، ثم رأى هو الحل الأمثل «أن تدع الأمور تجري في مجاريها الطبيعية؛ فللغة قوانينها وللظواهر الاجتماعية نواميسها التي تسير عليها، ومن ضياع الوقت في غير جدوى أن نحاول تغيير مجرى هذه القوانين أو صدها عن عملها؛ إذ لا نستطيع إلى تغييرها سبيلًا، ولن نجد لسنتها تبديلًا. على أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوي على شيء من الشذوذ حتى نتلمس علاجًا له. بل إنها السنة الطبيعية في اللغات»[٢٨].

ولقد ثبت أن إهمال تعليم اللغة القديمة الضخمة الغنى، المنبوزة بالجامدة، سياسة تعليمية سيئة[٢٩]، فثبتت جدوى استمرار نظام التفكير القديم الخصب، المنبوز بالجامد على ما في دعوى جمود اللغة والتفكير العربيين من نظر يأتي.

المَسْألةُ الثّانِيَةُ: الجُمودُ والتَّطَوُّرُ

بيان التطور العام:

[١٤] بنى الدكتور وافي كتابه «علم اللغة»، على بابين: نشأة اللغة وحياة اللغة. في هذا الباب الثاني عالج ست قضايا: الأولى: تفرع اللغة إلى لهجات، والثانية: فصائل اللغات، والثالثة: صراع اللغات، والرابعة: التطور اللغوي العام، والخامسة: أصوات اللغة حياتها وتطورها، والسادسة: الدلالة وتطورها.

في علاجه القضية الرابعة رَجّعَ تطور اللغة إلى عوامل كثيرة، أهمها أربع طوائف: الأولى: انتقال اللغة من السلف إلى الخلف، والثانية: تأثر اللغة بلغة أو لغات أخرى، والثالثة: عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها وبيئتها الجغرافية، وما إلى ذلك مما رآه يشترك في أنه من مقومات الحياة الاجتماعية، والطائفة الرابعة الأخيرة: عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في حمايتها والارتقاء بها[٣٠].

بيان تطور اللغة العربية القديم:

[١٥] وبنى الدكتور وافي كتابه «فقه اللغة» الذي عده بمنزلة الجزء الثاني لكتابه السابق، على ستة أبواب: اللغة الأكادية، واللغات الكنعانية، واللغات الآرامية، واللغات اليمنية القديمة، واللغات الحبشية السامية، واللغة العربية.

في هذا الباب الأخير عالج أربع قضايا: الأولى: حياة اللغة العربية، والثانية: عناصر اللغة العربية، والثالثة: كفاية اللغة العربية، والرابعة: صيانة اللغة العربية.

في علاجه القضية الأولى عرض خمس عشرة مسألة: الأولى: شعبيتها ومنزلتها من اللغات السامية، والثانية: نشأتها وأقسامها، والثالثة: العربية البائدة أو عربية النقوش، والرابعة: العربية الباقية كلمة عامة عنها، والخامسة: صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش، والسادسة: القرآن والأدب الجاهلي ومجيئهما بلغة قريش، والسابعة: نهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة، والثامنة: أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية، والتاسعة: اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش، والعاشرة: احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وصراعها معها وآثار ذلك، والحادية عشرة: اللهجات العامية الحديثة عوامل تطورها وصفاتها المشتركة، والثانية عشرة: طوائف اللهجات العامية ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى، والثالثة عشرة: لغة الكتابة العربية وتطورها وما استقرت عليه في العصر الحاضر، والرابعة عشرة: بين العامية والفصحى مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث، والخامسة عشرة الأخيرة: اللهجة المالطية(٣).

بيان تطور اللغة العربية الحديث:

[١٦] ولقد نبّه الدكتور وافي على أن لغة الكتابة التي تمثل في جملتها اللغة القرشية التي نزل بها القرآن، قد تطورت على السُّنّة اللغوية العامة، تطورًا كبيرًا، وأنه انتابها في العصر الحاضر تطورات جديدة ترجع إلى عوامل كثيرة، أهمها خمسة:

١ اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة، أو مصطلحات علمية، أو نظريات، أو مبادئ اجتماعية، أو أحزاب سياسية... وهلم جرا.

٢ ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معانٍ خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب... وما إلى ذلك، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معانٍ عامة، فتجردت هذه المفردات من معانيها القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الاصطلاحية.

٣ التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها في المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفي الصحف والمجلات.

٤ اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك.

٥ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة. فكثيرًا ما لجأ الكتّاب في البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معانٍ لا يجدون في المفردات المستعملة ما

يعبّر عنها تعبيرًا دقيقًا، أو لمجرد الرغبة في الإغراب أو في الترفع عن المفردات التي لاكتها الألسنة كثيرًا. وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقا جديدا، وزال ما كان فيها من غرابة، واندمجت في المتداول المألوف[٣٢].

منزلة اللغة العربية حديثًا من منزلتها قديمًا:

[١٧] كل ذلك فقه دقيق وثيق لمنزلة اللغة العربية حديثًا من اللغة العربية قديمًا، واللغة العربية قديمًا من اللغة العربية حديثًا، وأن هذه وتلك لغة واحدة، وما ثَمّ إلا أحوال الحياة في اللغة التي هي كصاحبها؛ لو جمدت ماتت، فلما لم تمت لم تجمد، وهو ما أباه ستتكيفيتش فيما استنبطته عنه في الفقرة الثالثة.

إنه إذا كان انحلال اللغة إلى لهجات، أهم موضوعات تاريخ سائر اللغات، وأجدرها بالدراسة - فإن بقاء لغتنا عربيةً على رغم لهجاتها وعلى رغم أطوارها، أجدر موضوعات تاريخها بالدراسة، وهو ما وعاه الدكتور وافي أتم وعي، على رغم ما دعا إليه غيره[٣٣].

أثر الإسلام والقرآن اللغوي التفكيري:

[١٨] لقد زلزل الإسلام العرب لغة وتفكيرًا، واستحثهم إليه بمثل ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[٣٤]، الأصل الباقي المشروح بمثل «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها»[٣٥].

إنه لما سب أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - غلامه بأمه قائلًا: «يا ابن السوداء»، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خَوَلُكُمْ (خدمكم)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٣٦]، فانتبه إلى بقية فيه من اللغة والتفكير، جاهلية تعوق إيمانه الجديد، فالتقطها واطّرحها[٣٧].

كان الإسلام فيما يرى مالك بن نبي، انفجارًا لغويًّا تفكيريًّا مباغتًا، على نحو فريد في تاريخ اللغات، انبعثت به اللغة العربية كما انبعث به الرسول العربي - صلى الله عليه وسلم - مثالًا للثقافة الجديدة والحضارة الوليدة، وأداة أدبها الجملة المنظمة، بعد أن كانت البيت الموزون[٣٨].

ولولا القرآن الذي وقفت عليه الأعمار والأعمال، ونشأت له واستنبطت منه وصدرت عنه العلوم والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات - ما كانت عربية، ولذهبت كما ذهبت اللاتينية أو السنسكريتية(٢).

أثر علوم الأوائل اللغوي التفكيري:

[١٩] ثم زلزلتهم في عصر بني العباس علوم الأوائل؛ فوسعتها لغتهم وتفكيرهم ناصعَيْن دقيقَيْن بلا عوج ولا تعقيد، وتطورا من الأسلوب القديم التركيبي، إلى الأسلوب المولد التحليلي الذي أنشأه طائفة من الكتاب رأسُهم ابن المقفع(١٠)، لتميل به العربية إلى بسط المعنى وانسياب الصياغة واسترسالها وسهولة اللفظ:

إذا قال القديم: ((جَدُّكَ (حَظُّكَ)، لا كَدُّك (عَناؤُكَ)))؛ فترك لسامعه أن يحل ما ركب - قال المولَّد: ((إذ لم يُساعدْك الجدُّ، فالحركة (العَناءُ) خِذْلانٌ (خَيْبَةٌ)))(١١)؛ فأخذ بيد سامعه إلى المراد.

أثر الفكر الغربي الحديث اللغوي التفكيري:

[٢٠] ثم زلزلهم الفكر الغربي الحديث لغة وتفكيرًا، فانقسموا إزاءه على خمسة أقسام: منهم من قبله كله وتمسك بالفكر العربي كله، ومنهم من قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من قبل بعضه وتمسك بالفكر العربي كله، ومنهم من قبل بعضه وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من كاد يرفض الفكرين جميعًا(١٢).

مراحل الاستفادة من صحيح الفكر الحديث:

[٢١] إنني لموقن من أنها الأقسام المنطقية التاريخية الثائرة كلما زلزل القديم حديث أو المقيم وافد، حتى إذا ما وُعيت حقائق الحكايات، وانماز صحيحه من سقيمه، ووجب قبول صحيحه وتغيير القديم به ورد سقيمه وحماية القديم منه، اتحدت تلك الأقسام على قلب قسم واحد لا يقوم له غيره.

هو عمل زمان طويل، تكون فيه ضروب من التجريب متعاقبة ربما تزامنت، هي: الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصير، ثم الامتلاك، ثم الابتداع(١٣).

وإنّ تأمُّلنا لسيرة ألفاظ وتعابير خاصة، على مثل ما سبق في الفقرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، لكفيل بأن يطلعنا على طرف من سيرتنا لغة وتفكيرًا. وإن افتقادنا لمثل

ذلك على ما ينبغي له من الاستقصاء والوفاء، لدليل ضآلة علمنا بأنفسنا، وضعف وعينا لحياتنا الكائنة والمنتظرة[١٩]».

اطراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث:

[٢٢] إن استيعاب الفكر الحديث بما فيه من آثار اللغة والتفكير الحديثين، يزيد من إنسانية الإنسان، ويخصب من حياته، وينير من بصيرته، ولكن اطّراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان، ويجدب من حياته، ويطفئ من بصيرته[٢٠]. ولأمر ما قال رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صحابته الذين منهم أبو ذر نفسه ـ رضي الله عنه ـ : «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٢١]. من ثم ينبغي ألا نعجب لهنري لوسل أن دعا في مقال نشرته لوموند الفرنسية، عنوانه «اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية تزودان الدارس لها بنظرة جديدة إلى العالم» ـ إلى تدريس اللغة العربية وكتابها الأكبر «القرآن» في المدارس الفرنسية[٢٢]؛ فلم يرد لأمته إلا الإصلاح. أما العجب العاجب فلستكيفيتش يدعونا نحن إلى اطراح لغتنا، بأنها قديمة!

المَسْأَلةُ الثَّالِثَةُ: نِظامُ الأَطْوارِ

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة أهم منها:

[٢٣] عمر، علي، خالد، الشمس، القمر، الأرض، كلم منفردات متواليات، وهي كذلك معانٍ منفردات متواليات، كل كلمة منفردة منها معنى منفرد، متى خطرت خطر، ومتى خطر خطرت، وما خطور كل كلمة منها أو كل معنى إلا بمنزلة ضرب واحد في واحد أو قسمته عليه، لا زيادة ثم معتبرة.

أما إذا كانت تلك الكلم (المعاني) أنفسها، هكذا: عَلِيٌّ وَخالِدٌ حَوْلَ عُمَرَ وَالْقَمَرُ وَالْأَرْضُ حَوْلَ الشَّمْسِ ـ فهي كلام مركّب مترابط، وفكرتان متشابهتان مجتمعتان. تدل الأولى على علاقة جماعة من الناس، وتدل الأخرى على علاقة جماعة من الجماد. إنه إذا كانت العلاقة في الأولى علامة سعي الناس إلى الائتلاف وحرصهم عليه، كانت العلاقة في الأخرى علامة ائتلاف الجماد على سنة عليا، ثم كان التقاء العلامتين كلتيهما آية الخضوع العظمى لتقدير خالق واحد بديع عظيم، لم يملك لها ليفي شتراوس إلا أن يقول: «حين ننظر إلى جميع المنجزات الفكرية للإنسان بقدر ما دونت عبر العالم كله، نجد أن القاسم المشترك بينها هو دائما إدخال نظام من نمط ما. وإذا كان هذا يمثل حاجة أساسية للنظام في العقل الإنساني، وما دام العقل الإنساني، بعد كل حساب، ليس سوى

جزء من الكون، فإن الحاجة ربما كانت موجودة لأن ثمة نظاما ما في الكون ولأن الكـون ليس في حالة من الفوضى))(٦٨).

ونحن إذا تأملنا على التاريخ أعمال كبار المفكـرين علـماء وفنـانين، لم نجـد قيمتهـا في ذخائرهم المحتشدة فيها من الكلم (المعاني) المنفردة، بل فيما يختارونه لها ويختارونها له من علاقات تُظهرها وكأن لم تسمع من قبل(٦٩).

ولأمر ما قال أبو نواس لمسلم بن الوليد الفاخر في قوله:

((رَأيِ المُهَلَّبِ أَوْ بَأْس الأَيازِيدِ))

بأنه لم يسبقه إلى جمع (يزيد) أحد ـ: ((مِنْ ها هنا وَهِمْتَ))(٧٠).

وللأمر نفسه قال بابي أنكلان الكاتب الأسباني: ((يا لشقاء الشاعر الذي لم يجرؤ يوما على أن يجمع بين كلمتين لم تلتقيا من قبل على الإطلاق))(٧١).

علاقة الكَلِمِ (المعاني) المجتمعة، أهمُّ من الكلم (المعاني) المنفـردات أنفسـها؛ ففضـلًا عن أنها التي تقدم الفكرة ((دلالة علاقة الكلم (المعـاني) المجتمعـة))، لا المعنـى المنفـرد، فتظهر الكلمة أحيانا وكأن لم تسمع من قبـل ـ تَسْـتَقِلُّ وحْـدَها بتوليـد مـا لا يحصى مـن الأفكار(٧٢).

وبالقياس تكون علاقةُ جُمَلِ الفِقْرَةِ المجتمعة، أهمَّ من الجمل المنفردات، وعلاقةُ فِقَـرِ النَّصِّ المجتمعة، أهمَّ من الفِقَرِ المنفردات، وعلاقةُ نُصوصِ الكِتابِ المجتمعة، أهـمَّ مـن النصوص المنفردات؛ فإن المتأمل يطيل النظر حتى تنكشف له رسالة الكتـاب المسـتولية على نصوصه؛ فتنكشف بانكشافها قضايا النصـوص، ثـم أفكـار الفقـر، ثـم فُكَيْـرات الجمل؛ فتكون لمعاني الكلم عندئذ قيمة.

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة عمل النحو:

[٢٤] ما علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، بعضها ببعض إلا عمل النَّحْو، ومـا تعليـق مستعملها لها بعضها ببعض إلا إعمال هذا النحو(٧٣)، وما الانطلاق منها إلى علاقة الجمـل في الفقرة والفقر في النص والنصوص في الكتاب، إلا انطلاق مـن نحـو الجملـة القـديم الدارج لدينا الآن ـ وعليه مآخذ تنفي عنه صفة الوفاء ـ إلى نحو النص الحـديث المتَمَنّـى لنا(٧٤).

((وجْهُ النَّحْوِ الْفَلْسَفيّ المُجْدي)):

[٢٥] لما كان نظام اللغة مقتصرًا عند دو سوسير عالم اللغة الغربي، على الأصوات والكلمات فقط أو مع عدد ضئيل من العبارات الثابتة والنماذج العامة، لم يكن لتكوين الجملة لديه علاقة بنظام اللغة، بل بالكلام المنطوق؛ ومن ثم كان خارج إطار علم اللغة الحقيقي لأنه عندئذ نمط من الإبداع اللغوي الحر الذي لا تعوقه قواعد اللغة إلا ما اختص بصياغة الكلمات ونماذج الأصوات؛ ثُمَّ من ثَمَّ لم تكن للنحو أهمية كبيرة(٣٤).

ولما لم يكف في فهم طبيعة الفكر البشري أن تفسر ظواهره على منهج الديكارتيين، بردها إلى مبدأ حيوي يدعى العقل لم تكشف خصائصه بعد على نحو متماسك وشامل - انطلق تشومسكي عالم اللغة الأمريكي، من حصر ديكارت نفسه إنسانية الإنسان بمقدرته من خلال اللغة على التحليل والتوليد(٣٥)، إلى التفتيش في تلك المقدرة عن نماذج تتيح له وضع نظام من القواعد يسمح بتوليد الجمل الممكنة في اللغة كُلِّها، يشتمل على عناصر ثلاثة هي: المكوِّن التركيبي والمكوِّن الصوتي والمكوِّن الدلالي (نظريته النحو التوليدي) لا ينحصر في حدود لغة ما وإن اعتمد عليها، بل يشمل اللغات الطبيعية كلها فيضطلع بدراسة الشروط الواجبة فيها؛ فصار همه ((تأصيل النحو في أعمق أعماق التربة العقلية المشتركة للغة البشرية، على أساس أن العقل عنده فطري، وأن اللغة بنحوها المنطقي متأصلة في الحياة الذهنية التي يوجهها العقل))(٣٦).

لقد استحسن منهج وصف ظواهر اللغة والنشاط العقلي بأعلى درجات الدقة الممكنة ومحاولة تجريد بناء نظري يفسر تلك الظواهر ويكشف مبادئ انتظامها وعملها ولا يربط التراكيب والأعمال العقلية المفترضة بأية آليات فسيولوجية، ولا يفسر الوظيفة العقلية من خلال أسباب فيزياوية، فراجَعَ نظريةَ النحو الفلسفي أو الكلي التي نشأت في القرن السابع عشر، منطلقا من الاعتذار بجواز الذهاب إلى أبعد مما يمكن تخيله في سبيل تفسير الملاحظ، ومن التشبه بنيوتن في محاولته فهم طبيعة حركة الكواكب، إلى المنافحة عن النظرية المهجورة بأنها ليست نمطا من النحو المعياري الذي تجاوزته الدراسة اللغوية، بل من التفسير العقلي أي تفسير حقائق الاستعمال على أساس فروض متعلقة بطبيعة اللغة وطبيعة الفكر البشري(٣٧).

إنه لحلم بعيد بُعْدَ أولية الإنسان في هذه الحياة، ما يطمح إليه تشومسكي من ((النحو الكلي)) الذي يبعث للعالم أصول لغة واحدة وتفكير واحد، كان حافز الدكتور مازن الوعر إلى إقناع أساتذته ومنهم تشومسكي نفسه، بجعل رسالته للدكتوراه في دراسة التراكيب الأساسية في اللغة العربية، مستخدما المنهج الذي وضعه العرب القدماء، مقترنا بالمنهج الدلالي التصنيفي الذي وضعه عالم الدلاليات الأمريكي ولتركوك

وبالمنهج التوليدي التحويلي الذي وضعه تشومسكي وقد تلمذ لهما، من أجل وصف التراكيب العربية وشرحها نحويًا ودلاليًا، حتى ((يمكن للنظرية اللسانية الحديثة أن تستفيد من المواد اللسانية المقدمة في هذه الدراسة))[٦٩] ـ فحظي بإعجاب تشومسكي وتصريحه المكتوب في غرة العمل، بما فيه من إضافة إلى النظرية الغربية!

لقد اشتد انشعاب الناس إلى أمم مختلفة اللغات والتفاكير، تسهر أنحاؤها (أنظمتها) على رعاية اختلافها، بحيث لا يستبعد المتأمل أن لا يكون ذلك الحلم الأخّاذ، إلا كابوس ((العولمة)) قد استغشت به ثياب ((النحو العالمي))، تدعو الناس إلى أن يعتقدوا الحضارة الغربية وينتموا إليها دون حضارتهم؛ إذ لا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتماد طرائقها، كما سبق في الفقرة الثانية عشرة، وهم لا يريدون إلا أن يستوعبوا الحضارة الغربية كما استوعبهم الغرب، لا أن يكونوه، كما لم يكنهم. ولن يكونوه، لو أرادوا، بل سيكونون له، كما كان كثير من العالم الذي اغتصبه وأجبره على حضارته، فصار حظائر لمخلفاته[٧٠].

ولن يفوت المتأمل أن يستظهر من تصريح تشومسكي نفسه المكتوب في غرة عمل الدكتور مازن الوعر الآنف ذكره، أن الأصول المحلوم باكتشافها، هي للغة وتفكير غربيّين، كما أراد ستتكيفيتش فيما استنبطته عنه من أفكار في الفقرة الثالثة!

ولكن ينبغي ألا يفوته أنه تتجلى في خلال ذلك علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، بعضها ببعض، التي هي أهم منها هي نفسها، والتي هي عمل النحو ـ عملًا لغويًا تفكيريًا؛ فيتجلى النحو نظامًا لأطوار اللغة والتفكير جميعًا معًا أي السلك الذي ينتظمها لتكون على التاريخ عقدا متآخذ الحبّات لولاه لانفرطت لغاتٍ وتفاكير شتى، ليكون هو ذلك الموضوع الأجدر بالدراسة من موضوعات تاريخ اللغة العربية، الذي نبهتْ عليه الفقرة السابعة عشرة، بَلْهَ أن يكون وجه النحو الفلسفي المجدي.

نقد الدكتور تمام حسان لعمل الدكتور عثمان أمين:

[٢٦] في خلال حديثه عن كون الإسناد في اللغة العربية قرينة معنوية مقالية من قرائن التعليق، تؤازر غيرها من القرائن المقالية (المعنوية واللفظية)، ومن القرائن الحالية (المقامية) ـ وهذه كلها قرائن التعليق ـ ومن القرائن العقلية (العهدية الذهنية والمنطقية)، ومن القرائن المادية (مخلفات المجرم في مكان الجريمة وما أشبه)، وأنه بهذا التآزر والتضافر نفهم معنى النص الدلالي ـ ذكر الدكتور تمام حسان أن الإسناد في اللغات الغربية مفتقر إلى وساطة نوع من القرائن اللفظية يسمى الأفعال المساعدة، فليس هو فيها قرنية كما في العربية. ثم أشار إلى محاولة الفيلسوف الدكتور عثمان أمين في كتيب له،

تفضيل اللغة العربية بهذا على لغات أخرى غيرها، ثم أعرض عن هذا الضرب من البحث، لأنه مما وراء منهج اللغة الذي يعتني به الفلاسفة ـ إن جاز أن يعتني به أحد ـ لا اللغويون. وصرح بأنه يعتني من هذه المسألة مثلًا، بكون الإسناد قرينة معنوية لتمييز المسند إليه من المسند في الجملة، في ظل ظاهرة كبرى تحكم استخدام القرائن جميعا، هي ظاهرة «تضافر القرائن»[11]، وهي نظريته المهمة التي قدمها بهذا الكتاب، وانطلقت منها واعتمدت عليها دراسات كثيرة.

دلالة عمل الدكتور عثمان أمين:

[٢٧] إننا إذا نظرنا في كتيب الدكتور عثمان أمين، المقصود بعينه على صغره (فلسفة اللغة العربية)، وجدناه منذورا في ستينيات القرن العشرين، للنزعة القومية العربية وتنبيه المخدوعين بدعوى قصور اللغة العربية ـ مبنيًّا على عشرة فصول: الأول: تمهيد في اللغة والأمة، والثاني: خصائص اللغة العربية، والثالث: حضور جواني، والرابع: الصدارة للمعنى، والخامس: الإعراب مطلب العقل، والسادس: ظلال وألوان، والسابع: الحركة والقوة، والثامن، اعتراض ورد، والتاسع: مصير اللغة العربية، والعاشر: اللغة العربية والمثالية الفلسفية ـ مختومًا بقوله: إن عزة الإسلام في المحافظة على عزة العروبة، وعزة العروبة في المحافظة على الميزات الفريدة التي تميزت بها اللغة العربية: إنها لغة مثالية، ذات فلسفة واضحة، فلسفة «جوّانية» موحدة، تربط القول بالفكر، وتوحد بين النظر والعمل[12].

إنه يبين اعتماد الفكر العربي على امتزاج اللغة والتفكير العربيين، وصدوره عنه، بحيث إذا فسد هذا الامتزاج واستعجم، فسد ذلك الفكر واستعجم، ولما كانت حياتنا بحياة هذا الفكر، كانت بحياة ذلك الامتزاج كذلك. وهي قضية أُهملت كما اتضح من عمل الدكتور تمام حسان، في سبعينيات القرن العشرين، لخفوت النزعة القومية، ولسيطرة المنهج الوصفي، فلما تلعّبت بنا الآن أصابع العولمة، وسيطرت نظرية النحو التوليدي الساعي إلى النحو الفلسفي، عادت جَذَعة جديرةً بالتأمّل.

النحو العربي نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين:

[٢٨] لقد كان ستتكيفيتش كما يتضح مما استنبطت عنه من أفكار في الفقرة الثالثة، واعيًا كيف يميّز النحو اللغة والتفكير، حتى ليُعدّ نحوهما جميعًا[13]. ونحن إذا استعملنا دلالة عكس الكلام تبيّنا أنه يشير إلى بقاء اللغة والتفكير عربيين ما بقي لأطوارهما النحو العربي نظامًا، وأن ليس لعجمة الكلمات (المعاني) المفردة، أو عروبتها في هذا الشأن، من

أثر. وهو قد قال في موضع آخر من كتابه نفسه: ((إن اللغة العربية ليست مختلفة عن الإنجليزية مثلًا لأن كلمة (يكتب) تتضمن السابقة (ياء المضارعة) وأن الكلمة الإنجليزية Writes لا تتضمنها. إن المنطق الدلالي والصرفي واحد في الكلمتين، لقد عبّر المتكلم عن أبسط فكرة عملية للحدث في الحالين... إن الاعتبارات المعجمية والصرفية ليست بعائق يحول دون التماثل المنطقي للغات، أما النحو فإنه ـ كما يبدو في المقابلة بين الجملتين البسيطتين السابقتين What does he do? وماذا يفعل؟ يضع هذا التماثل في خطر. إن النحو ـ الذي هو بناء لمنطق لغوي متكامل ومركب يختلف اختلافًا شديدًا من لغة إلى لغة أخرى. لكن النحو ـ في التحليل النهائي ـ يعد انعكاسًا لأنماط فكرية تطورت من اكتشافات فكرية إلى عادات فكرية، ومن ثم إلى قوانين فكرية، ونحن عادةً نتعامل مع قواعد الفكر. إن اكتشافاتنا الفردية لأفكار جديدة نادرًا ما يسمح بتطورها إلى عادات فكرية شائعة ولهذا تتلاشى، لأنها عوارض زائلة دون أن تشكل قواعد جديدة))[24].

لكأنّه نظر في مثل هذه الجملة (الراديو والتلفزيون والسينما كرنفال إنترناشيونال)، وكل كلمة منها أعجمية صيغة ومعنى، فرأى كيف تضافرت بينها سائر قرائن التعليق (النحو) العربيّ فاستعربتْ، فلمْ يلق بالًا لصيغ الكلمات ومعانيها المنفردات، قائلًا: هذه طيور عالمية مهاجرة، فحيثما أقامَتْ وعَشَّشَتِ انْتَسَبَتْ!

ظاهرة تَعْريب التَّعْبير:

[٢٩] نحوُ اللغةِ والتفكيرِ العربيُّ باقٍ من قديم إذن نظامًا لأطوارهما، يحفظ عليها عروبتها، على رغم ما استعجم أو يستعجم من صيغ الكلم ومعانيها المنفردات[25]. ولكن بين هذه المنزلة ومنزلة الكلمات (المعاني) المجتمعة بعلاقة تامة، منزلة التعبير ((الوحدة المعنوية الدنيا التي يحتضنها تركيب ما في الكلام ولا تحدّها بنية خاصة، ونهتدي إليها بتقطيع الكلام بمراعاة تمام المعنى))[26]، المكوّن الجُمْلي عند اللغويين النفسيين، الذي تنحلّ إليه الجملة خلال الفهم ثم تنعقد به[27].

لقد كثر في هذه المنزلة حديثًا ما أخذته العربية من غيرها، حتى لقد ذكره الدكتور وافي ضمن أهم عوامل تطويرها في العصر الحاضر، قائلًا في المرتبة الخامسة: ((اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك))[28]. فتناوله بعض الباحثين على أنه من ((التداخل الأسلوبي))، ناقدًا نفور من سمّاهم ((الصفويين)) ـ نسبة عجيبة إلى الصفاء اللغوي! ـ منه، وممثلًا بما دخل العربية منه على رغم أنفهم، من الفرنسية، مثل قول الفرنسيين: ((ذر الرماد في العيون))، ومنبّها على طبيعيّته بين اللغات المتلاقحة، وعلى جدواه على لغتنا المفتقرة إليه شغلًا لفراغها، وداعيا ضرورةً إلى دراسته

دراسة معجمية اجتماعية تفسر الحضارات بالمصطلحات (الكلمات) وبالتراكيب (التعابير) التي تنشئها أو تستعيرها»[٢٩].

إن تسمية هذه الظاهرة (تداخلًا)، غير سديدة؛ إذ تداخل الأساليب أن تتسرب من كلّ منها إلى الآخر ملامح، وهو التلاقح الأنف الذكر، والمراد هنا دخول ملامح من طرف إلى آخر دون عكس، وهو لا يخرج عن التعريب، وقد عرض الباحث نفسه لدعوة المجمع إلى «تعريب الأساليب» أي التعابير[٣٠]. ولا ريب في أنفة بعض أدبائنا على الزمان من تعريب التعبير تمسكًا «بنقاء الديباجة»، واجتهادهم - إن اضطروا - أن يحلّلوه ويعقدوا عقدًا عربيًا بحتًا. هذا شأنهم المبني على اعتقادهم أن وقوع الكلمة أو التعبير المعربين في لغتهم، كوقوع قطرة الليمون في زِقّ العسل المصفى، شرٌّ مستطير. والحق ألا أثر لذلك ما بقي كالخرق المرفوء، كِسرةً تهضمها معدة النحو العربي، فأما أن تتتابع التعابير المعربة آخذا بعضها بحجز بعض كرقع الثوب السبعين الحافظية التي لا باقية معها لحقيقة الثوب - فلا تلاقح ولا استعارة، بل فناء وعدم. وفيما استنبطته عن ستتكيفيتش في الفكرة السادسة من الفقرة الثالثة، ما يؤكد هذا الرأي.

أما مقدرة مثل هذه الكلمات والتعابير المسلوكة في نظام أطوار اللغة والتفكير الذي أنشأها أو الذي استعارها، متى انتزعناها منه فدرسناها دراسة معجمية اجتماعية - على أن تفسر الحضارات - ولا ريب في أن المراد تفسير ضعف الحضارة العربية وقوة الحضارة الغربية! - فبعيدة التخيل؛ إذ القرينة المتحققة مقدرة نظام أطوار اللغة والتفكير نفسه على ذلك. ولكن تلك الأولى مفيدة في الاطلاع على طرف من سيرة تلاقح الحضارات وأثر بعضها في بعض.

تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربيين:

[٣٠] تطور الثقافة حياة، وجمودها موت، والفنانون ولاسيما الأدباء، أكثر الناس وعيًا لذلك؛ ومن ثم يدعون كل حين إلى اطراح نظام أطوار اللغة والتفكير، حتى إذا ما تحركت الثقافة وتطورت على ما يرغبون، دعوا إلى التمسك بالنظام نفسه، وعيًا منهم لوظيفته الآنفة البيان.

هذا أدونيس الصاخب الثورة على نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين في «زمن الشعر»[٣١]. يعود في «النص القرآني»، إلى ما صخب به، ليعدّله ذاكرًا أنه قاله في سياق آخر، داعيًا إلى التمسك بما ثار عليه؛ ففيه لا في القدامة ولا في الحداثة، يكمن الإبداع، شارحًا كيف يأبى هذا النظام «زراعة أعضاء غريبة»[٣٢]، قاصدًا فيما فهمت، شَوْبه بغيره، على جهة الكذب اللغوي الذي قال فيه الدكتور شكري عياد: «إنما تفسد اللغة وتنحط

المقدرة اللغوية عندما يتعود الناس الكذب في استعمال اللغة. فكما أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم إذا كان الكذب هو قاعدة التعامل، فكذلك الحياة اللغوية ـ وهي أداتها الأولى ـ تضطرب وتفسد حين يتعمد الناس تحريف الكلم عن مواضعه))[٧٣].

أما غير الفنانين من دعاة التطوير، فمطمئنون إلى بقاء عروبة الثقافة، ببقاء نظام أطوار اللغة والتفكير العربي، فضلًا عما يختص به العرب من ظروف أخرى[٧٤].

المَسْألةُ الرّابِعَةُ: مِثالُ الاتِّصالِ

دعوى حداثة طه حسين وقدامة الرافعي:

[٣١] ذكر الدكتور زكي نجيب محمود أن نهضتنا اللغوية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، التي تخللت نهضتنا الحضارية، أخذت في طريقين: ((أما أحدهما فطريق سلكه فريق من الناهضين أرادوا باللغة أن تنافس العامية في وسيلة أدائها، وأما الطريق الآخر فهو الذي سلكه فريق ظن أن النهوض باللغة إنمايكون بإحياء القديم، وكان الله يحب المحسنين))[٧٥]!

ولا ريب عندي في أنه وضع هذا التقسيم وفي ذهنه طه حسين من الفريق الأول الناهض، ومصطفى صادق الرافعي من الفريق الآخر القاعد؛ فهما قد ثارت بينهما في الفترة المذكورة، مشكلة القديم والحديث، التي مثل فيها الرافعي القديم راغمًا، ومثل فيها طه حسين الحديث راضيًا، بآية ما جمعه طه حسين في كتابه الذي ذكر فيه أنه ((يريد أن تكون اللغة حية نامية، ومن ذكر الحياة والنمو، فقد ذكر التطور، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد))[٧٦]. وأنه لا يكره أن يستعير ((من اللغات الحديثة الأوروبية معاني وأساليب وألفاظًا))[٧٧]. وأن أسلوب الرافعي على فقهه لدقائق العربية ((لا يلائم العصر الذي نعيش فيه))[٧٨]؛ إذ يتمسك باللغة الموروثة دون زيادة أو نقصان، وهو ضرب من النفاق أن نعيش الحياة الحديثة ونكتب اللغة القديمة[٧٩]. وتمنى أن ((لو كتب الكاتبون في هذا الموضوع، وأعلن كل منهم رأيه فيه؛ فقد تنتهي المناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نتفق عليها منذ الآن، فنتقي هذا الاضطراب الذي نشهده في النثر والشعر وأساليبهما، ونتقي شيئًا آخر ثقيلًا منكرًا هو سخط الأدباء والكتاب إذا نقدهم ناقد وأخذهم كاتب بما لا يحبون))[٨٠].

حكم ستتكيفتش لمذهب طه حسين على مذهب الرافعي:

[٣٢] لكأنما أراد ستتكيفيتش بعمله الذي أفضى إلى ما استنبطته عنه في الفقرة الثالثة، ولاسيما الفكرتان الأخيرتان ـ أن يجيب دعوة طه حسين ويحقق أمنيته، محفوزًا بما عرف عنه من أنه من القسم الثاني من أقسام العرب المتزلزلين بالفكر الغربي الحديث، الذي قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي(٨١) ـ وبما لم يُخْفِه الرافعي من رفض الفكر الغربي الحديث(٨٢)؛ فحكم معتسفًا دون موازنة، لمذهب طه حسين اللغوي التفكيري الغربي، بالنجاح والبقاء، وعلى مذهب الرافعي اللغوي التفكيري العربي، بالفشل والفناء.

مادة الموازنة:

[٣٣] لقد ذهبت في أعمال طه حسين والرافعي، ألتمس من نصوصهما ما يؤهله التَّوارد للموازنة، فحصلتُ على نصين متشابهين رسالة ومقدارًا، أوردُهُما فيما يلي مشفوعين بجداول العناصر الدّالة، تمهيدًا للنظر المراد.

ولما كنت أرى حواشي كل بحث جزءًا منه تأخر لحكمة، أخرت شرح العمل بالجداول وما أشبهها مما يأتي معها أو بعدها ـ وهو جزء من البحث مهم جدًّا ـ إلى بيان الحواشي المرقمة، درءا لشبهة التزيد والتعويق، وتيسيرًا لتأمل القارئ للنصين ولنتائج تأملي لهما.

وربما كان من تمام المقصد أن أؤخر الجداول وما أشبهها كذلك، ولكنني رأيت إيرادها هنا مهما لتصور مسيرة البحث، وربما لم يحتج قارئ إلى مراجعة بيان الحواشي لظهور المراد.

نَصُّ طه حُسَيْنْ(٨٣)

«أُنظُرْ (ـ يا سَيِّدي ـ)١ إلى يَمينٍ؛ /٢ فَخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ الحُزْنِ، /٣ وَانظُرْ إلى شِمالٍ؛ /٤ فَخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ السُّرورِ؛ /٥ فَلا خَيْرَ في الحَياةِ إذا لَمْ تَكُنْ حُزْنًا وَسُرورًا، وَلَذَّةً وَأَلَمًا، وَجِدًّا وَلَهْوًا. /٦

أُنظُرْ عَنْ يَمينٍ، /٧ وَانْظُرْ عَنْ شِمالٍ، /٨ ثُمَّ انْظُرْ أمامَكَ إلى هذا البَلَدِ الحَزينِ التَّعِسِ، الَّذي يَعْدو عَلى حُقوقِهِ أَصْحابُ الجِدِّ (ـ وَيَلْهو بِمَنافِعِهِ أَصْحابُ اللَّهْوِ ـ)١٠ وَهُوَ يَحْتَمِلُ عُدْوانَ أولئِكَ (ـ وَيَحْتَمِلُ لَهْوَ هؤُلاءِ ـ)١١ مَحْزونًا حينًا، مَسْرورًا حينًا آخَرَ، ساخِرًا مِنْ أولئِكَ وَهؤُلاءِ دائِمًا، لِأَنَّهُ قَدْ بَلا مِنَ الدَّهْرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، وَذاقَ مِنَ الأَيّامِ حُلْوَها وَمُرَّها، وَوَثِقَ بِأَنَّ عَدْلَ اللهِ قَريبٌ، وَبِأَنَّ الحَقَّ مُنْتَصِرٌ (ـ مَهْما يَتَّصِلْ سُلْطانُ الباطِلِ ـ)١٢ وَبِأَنَّ صَرْحَ الجَوْرِ مُنْدَكٌّ، /١٣ مَهْما يُشَيَّدْ بِأَضْخَمِ الأَحْجارِ وَأَصْلَبِ الصُّخورِ /»(٨٣).

نَصُّ الرّافِعيِّ (٨٤)

((وَيْحَكَ! / ١ لِمَ تَبْتَئِسُ، / ١ أَيُّها الْفَقيرُ؟ / ٠

الْغَنِيُّ يُريدُ أَنْ يَجْعَلَ حُظوظَ النّاسِ جميعًا حَظًّا واحِدًا، لِيَخْتَصَّ نَفْسَهُ بِهـذا الحَـظِّ، / ١ وَأَنْتَ تُريدُ أَنْ تَخْتَصَّ بِحَظِّ الْغَنِيِّ؛ / ٠ فَماذا تَرَكْتُما لله يُؤْتي الْمُلْكَ مَنْ يَشاءُ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشاءُ؟ / ١

إِنَّ اللهَ قَدِ ائْتَمَنَكَ عَلى أَثْمَنِ الْفَضائِلِ وَأَعَزِّها مِنَ الصَّـبْرِ وَالْقَناعَـةِ وَشَرَفِ الضَّـميرِ، وَأَشْرَفَ بِكَ عَلى مَصارِعِ الْأَغْنِياءِ؛ فَرَأَيْتَ كَيْفَ يَخْفُـقُ قَلْـبُ أَحَـدِهِمْ وَهُـوَ يَحْسَـبُهُ كُـرَةَ الْأَرْضِ زُلْزِلَتْ زِلْزالَها، وَكَيْفَ تَطْرِفُ عَيْنُهُ وَهُوَ يَتَوَهَّمُها اللُّجَّةَ الَّتي تَبْتَلِعُ كُلَّ ما في رَأْسِهِ مِنَ الْأَحْلامِ، وَكَيْفَ يَموتُ وَهُوَ يَرى كُلَّ ما كانَ في يَدِهِ كَالظِّلِّ عَلى الْماءِ لا يَـذوبُ مـاءً، وَلا يَبْقى ظِلًّا، وَيَرى أَنَّهُ كانَ يَشْتَري الْمالَ الَّذي لا حَدَّ لَهُ بِالْعُمْرِ الْمَحْدودِ، فَلَمّا أَفْلَسَ مِنْ هذا خَسِرَ الِاثْنَيْنِ جميعًا / ٣)).

الجدول الأول (٨٥)

المسند إليه المسند	ضمير خطاب	ضمير تكلم	نكرة	مضاف إلى معرف بأل	ضمير غيبة
فعل أمر	٧				
فعل مضارع		١		١	١
شبه جملة ظرفي زماني			١		
جملة (فعل مضارع ومضاف إلى معرف بأل)			١		
جملة (فعل مضارع وضمير غيبة)			١		

الجدول الثاني (٨٦)

المسند إليه / المسند	ضمير خطاب	ضمير تكلم	معرف بأل	علـم
فعل ماض	٢			
فعل مضارع	١	١		
جملة (فعل مضارع وضمير غيبة)			١	
جملـة (فعـل مضـارع وضـمير خطاب)	١			
جملة (فعل ماض وضمير غيبة)				١

الجدول الثالث (٨٧)

الجملة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	٠	١	٢	٣	المجموع
عدد الكلم	٣	٣	٧	٤	٧	١٩	٣	٤	٧١	٧	٤	٤	٨	١٤٤
عدد العلاقات	٢	٢	٣	٢	٣	٤	٢	٢	١٦	٣	٢	٣	٥	٤٩
متوسط العلاقة	١,٥٠	١,٥٠	٢,٣٣	٢	٢,٣٣	٤,٧٥	١,٥٠	٢	٤,٤٣	٢,٣٣	٢	١,٣٣	١,٦٠	٢,٩٣

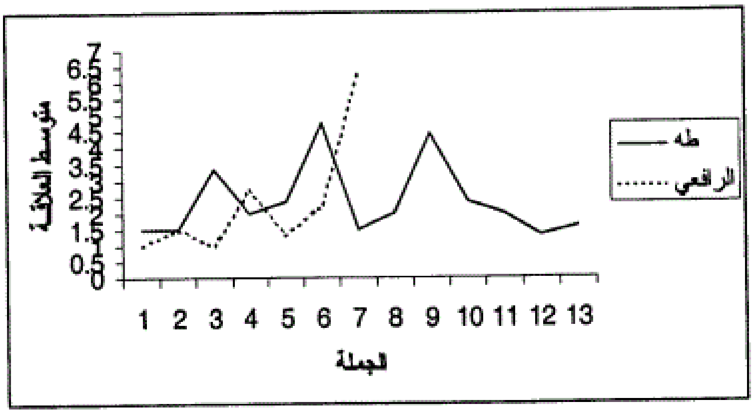
الجدول الرابع (٨٨)

الجملة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	المجموع
عدد الكلم	٢	٣	٢	١٦	٨	١٦	١٠٦	١٥٣
عدد العلاقات	٢	٢	٢	٦	٦	٧	١٧	٤٢
متوسط العلاقة	١	١,٥٠	١	٢,٦٦	١,٣٣	٢,٢٨	٦,٢٤	٣,٦٤

الجدول الخامس (٨٩)

العلاقة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	المجموع
كلام طه	٢	٢	١	٣	١	٤	٣	٦	٧	٤	٨	٧	١١	٧	٣	–		٦٩
كلام الرافعي	٢	٤	٥	٧	٨	٦	١١	٨	١١	١٠	٤	٦	٧	٧	٥	٢	١	١٠٤

رسم البيان (٩٠)



الجدول السادس (٩١)

الجملة اللاحقة / الجملة السابقة	إنشائية	علاقتها	خبرية	علاقتها
إنشائية	٨	٢ الاعتراض ٥ العطف ١ الاستئناف	٣	٢ الاعتراض ١ الاستئناف
خبرية	١	الاستئناف		

الجدول السابع (٩٢)

الجملة اللاحقة / الجملة السابقة	إنشائية	علاقتها	خبرية	علاقتها
إنشائية	٢	الاستئناف	٢	الاستئناف
خبرية	١	الاستئناف	١	العطف

الرسالة والأسلوب:

[٣٤] إنَّ من التَّوارُدِ المُهْمَل صدور طبعتي الكتابين المعتمدتين هنا عفوًا لا قصدًا، عن مكان واحد (بيروت)، في زمان واحد تقريبًا (١٩٨٣،٢م)، غير أنه لا يخلو من أن يدل على طلب القارئ العربي لهما جميعًا!

لقد كانت رسالة نص طه حسين تَصْبير البلد، ورسالة نص الرافعي تصبير الفقير. أما صبر البلد المرجو في الأول، فعلى ظلم حكامه الجادين واللاهين جميعًا؛ فعما قريب ينتصف منهم، وأما صبر الفقير المرجو في الآخر، فعلى قيد الفقر؛ إذ هو مقام من محاسن الفضائل فيه وقاؤه من نقائص الأغنياء المهلكة.

لقد كان طه حسين ناصحًا واقعيًا ثائرًا، والرافعي ناصحًا مثاليًا هادئًا. أما ناصحيّتهما فواضحة من رسالتي نصيهما المذكورتين آنفًا؛ فثم أزمة يطلع عليها كل منهما، ويلتمس للمأزوم فيها سبيل النجاة منها، ولئن تخير الأول من البلد فردًا، لقد أراد الآخر بالفرد جنسًا. وأما واقعية طه حسين دون الرافعي، فمن ملاحظته البلد حوله مكانًا وناسًا، والتماسه بما تؤدّيه الملاحظة، دليل ما يريد (٩٣). وأما مثالية الرافعي دون طه حسين، فمن تأمله سر الخُلُق في نفس الجنس، والتماسه بما يؤديه تخيّله، دليل ما يريد (٩٤). ولقد يكون من جرائر مثاليته تعلقه بالصورة المركبة المتداخلة الأجزاء، التي تتجلى في جملة نصه السابعة الأخيرة ـ على حين كان من جرائر واقعية طه حسين تعلقه بالصورة المركبة المتجاورة الأجزاء، التي تتجلى في جملة نصه التاسعة. فإذا جاز أن نذكر من أسرار هذه الصورة، عمى طه حسين الذي كان يحمله على المتابعة والمعاقبة، وكأن الأحداث تتخاطف سمعه؛ فهو في ملأ من أذنه (٩٥) ـ جاز أن نذكر من أسرار تلك الصورة، صمم الرافعي الذي كان يحمله على التوليد والتشقيق، وكأن المشاهد تتخاطف بصره؛ فهو في ملأٍ من عينه (٩٦).

الاعتذار عن اعتماد الإحصاء:

[٣٥] أغبط علماءنا القدماء على ما رزقوا من اليقين (أن أيقنوا بجدوى النظر في الكلام العربي)، خائفًا شكي، والإخلاص (أن أخلصوا للحق نظرهم في الكلام العربي) خائفًا ريائي، والانقطاع (أن انقطعوا خلال نظرهم في الكلام العربي، مما سواه) خائفًا شغلي، والدؤوب (أن دأبوا على النظر في الكلام العربي حتى تظهر الجدوى) خائفًا فتوري، وهي أحوال مختلفة مؤتلفة، لو بقيت لأمثالي من الباحثين، لأغنتنا عن التمهيد لنظرنا في الكلام العربي دائمًا طمأنة لأنفسنا ولغيرنا، بمثل تلك المقدمة المجدولة من إحصاء العناصر الدالة السابقة في الفقرة الثالثة والثلاثين؛ إذ ليس كمكافحة النص استبطانًا واستيعابًا.

نقد جهتي الخطاب المستولي على النصين:

[٣٦] إذا تأملنا «يا سيدي» ثانية جمل طه حسين، و«أيها الفقير» ثالثة جمل الرافعي، معًا وكلتاهما نداء، اطلعنا على فرق ما بين جهتي الخطاب المستولي على نص كل منهما الذي بينه الجدولان الأول والثاني.

«يا سيدي» من لوازم الحديث اليومي العادي، يتبادلها المتلاقون في البيوت والشوارع والأندية، كل يحمِّلها ما شاء من مشاعره رضًا أو سخطًا وإقرار أو إنكارًا.

و«أيها الفقير» ليست من ذلك الباب، بل تكاد لا يقولها إلا شخص بعينه لشخص بعينه، ويكاد لا يحمِّلها إلا الأسف.

كأنما اشتاق طه حسين إلى خلاط من يسمعهم ولا يراهم، ولا يخلو «انظر» قبل تلك الجملة وبعدها، من دلالةٍ ـ على حين أقبل الرافعي على نفسه دون غيره ممن لا يسمعهم ولا ينتبه لهم، حتى ليبدو هو الفقير المذكور.

جهة الخطاب المستولي على نص طه حسين إذن، حقيقية، لا يَحْتَجُّ لها أنه كان يخاطب عامله الكاتب عنه[illegible]، بل ما في نصه من علامات شوقه إلى مجتمع الناس أن يحضروا إليه لما امتنع عليه أن يحضر إليهم: (انظر، يمين، خذ، انظر، شمال، أمامك، هذا...). وجهة الخطاب المستولي على نص الرافعي إذن، مجازية، من باب التجريد المحض [illegible]، لا لأنه ليس ثَمَّ مدعوٌّ للإقبال [illegible]، بل لما في نصه من علامات شغله بنفسه يصفها من داخل، كي يصدق الوصف من قبل أن يصدقه غيره، (تبتئس، تريد، تختص، تركتها، ائتمنك، أشرف بك، رأيت كيف وكيف...).

بين فعل الأمر الطَّحْسَنيّ والفعل الماضي الرافعيّ:

[٣٧] بنظرة أخرى إلى الجدولين الأول والثاني، يتبين اختصاص نص طه حسين بفعل الأمر دون نص الرافعي، واختصاص نص الرافعي بالفعل الماضي دون نص طه حسين، وذلك أثر طبيعي؛ فالماضي مختبرٌ حكيمٌ لا يكتم الحق، إذا أنصف خُلُقًا لم يَقَعْ للإمكان أبدعُ منه، يشتغل به المثاليون الهادئون المعتزلون الراضون، ومن هؤلاء جميعًا الرافعيُّ في نصه المختار ـ والحاضر وما تعلق به من المستقبل جَلَبَةٌ وصَخَبٌ، لا يتصف فيه إلا الجسور، يشتغل به الواقعيون الثائرون المتحرّقون الساخطون، ومن هؤلاء جميعًا طه حسين في نصه المختار.

اختلاف علاقات الكلم والجمل بين النصين:

[٣٨] كلم نص طه حسين و كلم نص الرافعي ـ وإن زادت هذه قليلًا ـ اللواتي بينها الجدولان الثالث والرابع، متقاربات عددًا. وعلى رغم هذا اجتمعت كلم نص الرافعي في سبع علاقات تامات (جمل)، بمتوسط (٨٥ , ٢١) كلمة في الجملة الواحدة، على حين اجتمعت كلم نص طه حسين في ثلاث عشرة، بمتوسط (٠٧ , ١١) كلمة في الجملة الواحدة. واجتمعت بالمتوسط في العلاقة الناقصة الواحدة داخل الجملة (التأسيس أو التكميل)، (٩٣ , ٢) من كلم جملة طه حسين، و(٦٤ , ٣) من كلم جملة الرافعي. فإذا قسمنا متوسط نصيب العلاقة التامة على متوسط نصيب العلاقة الناقصة، حصلنا في نص طه حسين على (٧٧ , ٣)، وفي نص الرافعي على (٦)، وهو بيِّنٌ في أن علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، التي هي عمل النحو الذي هو نظام أطوار اللغة والتفكير ـ أكثر تعقدًا في نص الرافعين منها في نص طه حسين، وكأنه ما توجّس منه ستتكيفتيش في الفكرة الثامنة الأخيرة التي استنبطتها عنه في الفقرة الثالثة!

إذا تأملنا رسم البيان السابق في الفقرة الثالثة والثلاثين، تبيّنا كيف تتنامى درجات تعقيد علاقات الكلم (المعاني) المجتمعة في نص الرافعي، صاعدة إلى غاية الرسالة المرادة ـ على حين تضطرب قرينتها في نص طه حسين صعودًا وهبوطًا، حتى إنها لتعود إلى قريب جدًّا مما كانت عليه.

وإذا تأملنا علاقات الجمل التي بينها الجدولان السادس والسابع، تبينا غلبة العطف على نص طه حسين، وغلبة الاستئناف على نص الرافعي، واختصاص نص طه حسين بالاعتراض دون نص الرافعي.

ما من إشكال لديّ في اختلاف عمل النحو بين طه حسين والرافعي، في شيء مما في هذه الفقرة إلا اختصاص نص طه حسين بالاعتراض علاقة جمل، دون نص الرافعي؛ فظاهره نقيض سواه من الظواهر السابقة!

أنْ يختلف عمل النحو بين مستعمله الهادئ ومستعمله الثائر، فيحزم أولهما في حُزْمة العلاقة من الكلم أكثر مما يحزم الآخر، ويتأنّى دون الآخر بتدريج ذلك، ويخالف بين جملِهِ خبرًا وإنشاءً فيستأنفها على حين يؤالف الآخرُ فيعطف ـ هذا كله مفهوم معروف غير منكر، جار على سنة اختلاف الأناة ـ وهي طبيعة الهادئ ـ والعجلة، وهي طبيعة الثائر(...). أما أن يختص نص الثائر المتعجل بالاعتراض علاقة جمل، وهي ينبغي أن تكون من سمات نص الهادئ المتأني ـ فمشكل محتاج إلى تأمل.

كل ما بين قوسين في نص طه حسين، اعتراض؛ فيكون ثَمَّ أربعة اعتراضات. أما أولها فجملة ((يا سيدي)) الآنفة الذكر في الفقرة السادسة والثلاثين، التي يخرجها كونها من لوازم الحديث اليومي العادي، من الإشكال. وأما الاعتراضان الثاني والثالث، فمن آثار تكميل المتعجل كلامه؛ إذ تخطر له مكمّلات فيضيفها فتتعلق بأجزاء متقدمة من كلامه فتفضي إلى اعتراض المتأخر، هكذا: كانت جملة ((يلهو بمنافعه أصحاب اللهو))، معطوفة على ((يعدو على حقوقه أصحاب الجد))، وجملة ((يحتمل لهو هؤلاء))، معطوفة على ((يحتمل عدوان أولئك))، فلما خطر لهذا الثائر المتعجل تكميل ما تقدم بتقييد مطلقه فعلق ((بيعدو)) هذه الحال ((وهو يحتمل عدوان أولئك...))، وعلق ((بيحتمل)) هذه الأحوال ((محزونًا...)) ـ صارت الجملتان العاشرة والحادية عشرة معترضتين لأجزاء الجملة التاسعة. وأما الاعتراض الرابع الأخير فمن آثار احتراس المتعجل من أن يساء فهمه؛ إذ هو لم يبنه من أوله بحديث يمنع سوء الفهم. لقد كان ماضيًا إلى عطف ((بأن صرح الجور مندك))، على ((بأن الحق منتصر))، فخطر له ما في بقاء الباطل من تثبيط وتيئيس، فقال: ((مهما يتصل سلطان الباطل))، ثم ارتاح إلى ما فعل فكرره أخيرا، فصارت الجملة الثانية عشرة معترضة لأجزاء الجملة التاسعة، والجملة الثالثة عشرة مستأنفة بعد الجملة التاسعة.

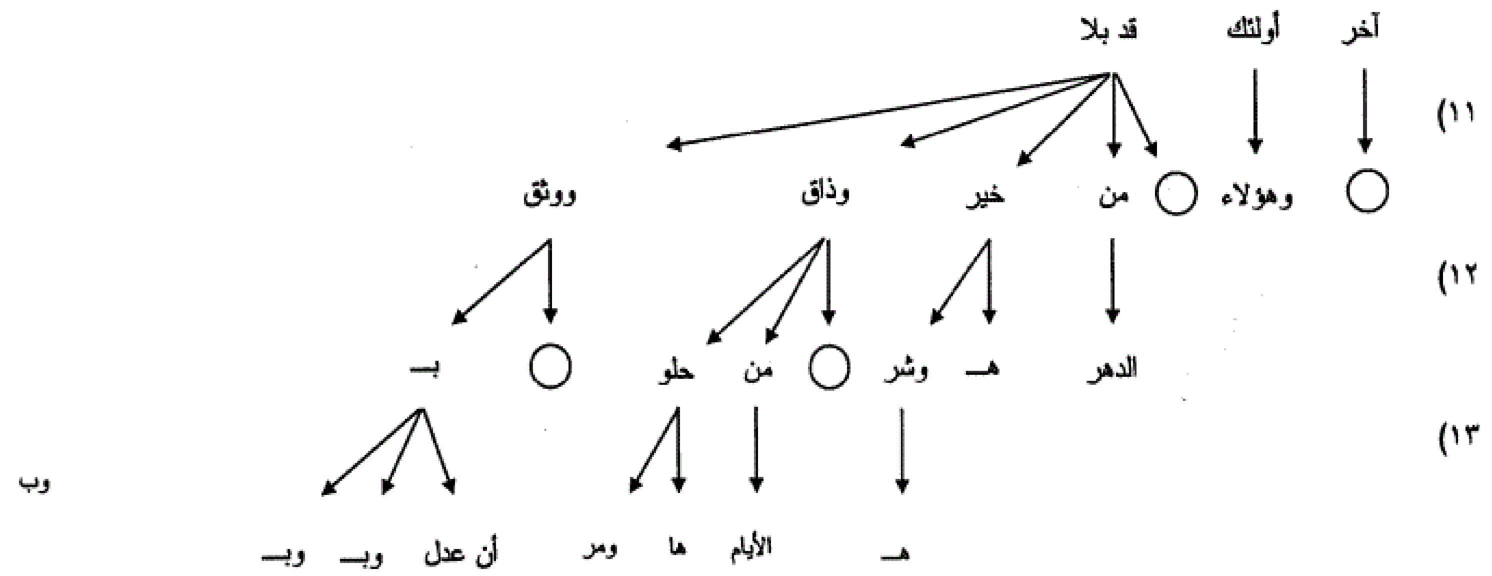
في هذا من إيضاح الإشكال بلاغ، وفيه بيان طرفٍ من المتابعة والمعاقبة اللتين سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين ذكر اتصاف نص طه حسين بهما، على حين اتصف نص الرافعي بالتوليد والتشقيق. ولكنه بيان غير كاف؛ إذ انحصر في علاقة ناقصة واقتصر على أحد الموازَنين.

تحليل علاقات أبرز جمل النصين:

[٣٩] في الجملة التاسعة من نص طه حسين كما سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين، تتجلى المتابعة والمعاقبة المفضيتان إلى الصورة المركبة المتجاورة الأجزاء، وفي الجملة السابعة من نص الرافعي يتجلى التوليد والتشقيق المفضيان إلى الصورة المركبة المتداخلة الأجزاء. وفي الجدول الخامس حللت كلًا منهما إلى كلمها وعلاقاتها؛ فاتضح لي أن إحدى عشرة علاقة من سبع عشرة (مجموع علاقات جملة الرافعي) أي ٦٤,٧٠٪، زادت حزم كلمها على قريناتها، وأن ثلاث علاقات من ست عشرة (مجموع علاقات جملة طه حسين) أي ١٨,٧٥٪ فقط، زادت حزم كلمها على قريناتها، وهو بيّنٌ في أن ارتفاع درجة تعقد علاقات الجملة، ينهض عند الرافعي من كل جهة من جهاتها قصدًا، وينهض عند طه حسين من بعض جهاتها عفوًا.

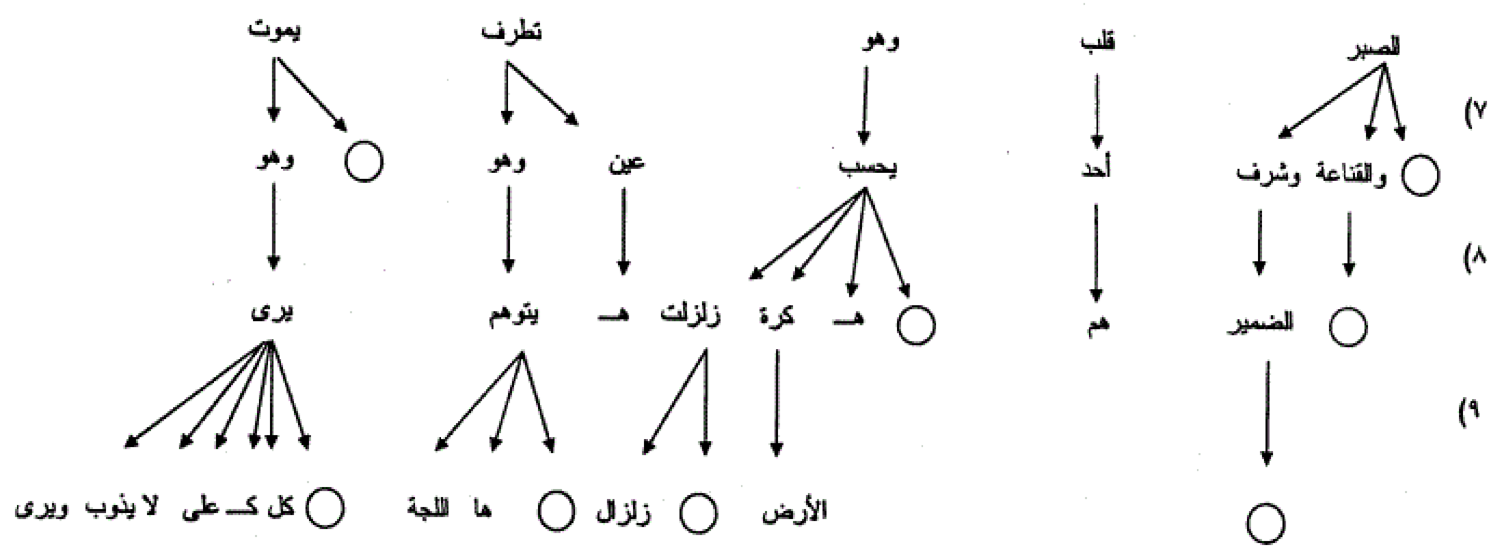
ولا ريب في أن موازنة نهضة الارتفاع في جملة طه حسين أي العلاقات (١١، ١٢، ١٣)، بمثال من نهضات الارتفاع في جملة الرافعي كما في العلاقات (٧، ٨، ٩) ـ مما يقتضيه البيان(١٠٠):

مثال طه حسين



(١١
(١٢
(١٣
آخر
أولئك
قد بلا
وهؤلاء
من
خير
وذاق
ووثق
الدهر
هـــ
وشر
من
حلو
بـــ
هـــ
الأيام
ها
ومر
أن عدل
وبـــ
وبـــ
وب

مثال من الرافعي



مصادر العلاقة الأولى من هـذين المثـالين، ثلاثـة في الأول وخمسـة في الآخـر، ومصـادر العلاقة الثانية أربعة في الأول وسبعة في الآخر، ومصادر العلاقة الثالثـة أربعـة في الأول وخمسة في الآخر. وليس بعد هذا التدسُّس إلى مُضْمَن طوايـا علاقـة الكلـمات (المعـاني) المجتمعة التي هي عمل النحو الذي هو نظام أطـوار اللغـة والتفكـير، مـن زيـادة بيـان لمستزيد.

إن الأناة التي مكنت الرافعي مـن أن يتنقـل بـين جهـات جملتـه المختلفـة يشـقق لهـا العلاقات الكثيرة المختلفة المتراكبة طبقًا عن طبق التي يحزم بها الكلـم الكثـيرة المختلفـة المتدابرة يمينًا وشمالًا ـ لمفتقرة في استيعابها إلى أناة مثلهـا بـل أطـول منهـا؛ إذ قـد عمـل الرافعي على يقين مما يؤمّ، على حين يعمل المتلقي عنه على شك مما رأى الرافعي أمّه.

أما العجلة التي أفضت بطه حسين إلى أن يكتفي من ذلك بأقله، فمكتفية في استيعابها بعجلة مثلها بل أقل منها؛ إذ قد عمل طه حسين مأزومًـا بمنازعـة الخـواطر، عـلى حـين يعمل المتلقي عنه وادعًا غير مأزوم.

طَوْرُ الثَّوْرَةِ وَالْعَجَلَةِ، وَطَوْرُ الْهَدْأَةِ وَالْأَنَاةِ:

[٤٠] لقد جرى في نصي طه حسين والرافعي على رغم اختلافهما ثورة وهدأة وعجلة وأناة، عمل النحو العربي نفسه، فإذا ثبت أن أحدهما عربي اللغة والتفكـير لم ينخلـع قـط من عروبتهما بل هو فيهما على النهج القديم كما سبق في الفقرتين الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين، ثبت أن الآخر مثله، وإذا ثبت أن أحدهما ناجح باق، ثبت أن الآخر مثله، وأن ليس ثم ـ إن تمسكنا بالاختلاف ـ غير طورٍ من اللغة والتفكير بعد طـورٍ أو معـه، يحفـظ عروبتها نظامها الباقي (النحو العربي). قال طه حسين: ((يغلو قوم منا في إيثـار القـديم فيضيقون وفي الحياة سعة. ويغلو قوم منا في إيثار الجديد فيرتفعون عما ألف الناس. ومـع ذلك فالقصد أساس الخير في كل شيء. لسنا أبناء القرن الخـامس للهجـرة، ولسـنا أبنـاء القرن السادس عشر للهجرة، وإنما نحن أبنـاء القـرن الرابـع عشر للهجـرة. بيننـا وبـين الماضي أسباب متصلة، وبيننا وبين المستقبل أسباب ستتصل))(٣٠)، وما هذه الأسـباب إلا النظام (النحو العربي) الذي ينتظم ماضي اللغة والتفكير العربيين وحاضرهما ومستقبلهما جميعًا معًا في عقد الفكر العربي.

خاتمة

يظل المرء في شأنه سادرا حتى يطّلع من غيره على ما ينبهه إلى ما هو عليه مما تخفيه عنه العادة. وربما استفز هو غيره إلى نقده، أو بدأه غيره. وسواء لديه أصَدَقَه غيره أم كذَبه؛ فسينتبه إلى ما لم يكن لينتبه إليه وحده.

لقد ركن العربي إلى حضارته القوية، وأخلد إلى غطّة لم ينتزعه منها غير صخب عدوان حضارة غيره، ففزع إلى ماديات حضارته فوجدها عليلة كليلة، وإلى معنوياتها فوجد عدوه قد بث ألسنته تنفره منها أو تصغرها عنده بعد أن كان يظنها لا يجترئ عليها أحد: أما عقيدته التي ساح في أرجاء الأرض يدعو إليها، لا يبتغي إلا أن يهتدي به غيره فيفوز عند ربه فوزًا عظيمًا ـ فصارت مُنهَزِمَة، وانبغى له أن يستبدل بها ما لدى غيره من عقائد الانتصار. وأما لغته التي يراها فيرى عقيدته والعلوم والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات التي تعلقت بها منذ اعتقدها وإلى وقته الذي هو فيه ـ فصارت شيخة فانية، مُتْحَفًا مُغْلَقًا، وانبغى له أن يستبدل بها ما لدى غيره من لغات الفتوّة.

إنه إذا كان قديمًا يُجِلّ لغته حتى ليرى من لم يتكلمها أعجم بمنزلة العجماوات، ويستغرب بلاده صارخًا «لعن الله بلادًا ليس فيها عرب»، رائيًا نفسه فيها «غريب الوجه واليد واللسان» ـ فقد اطلع حديثًا من غيره على أنه مثله، يرى لغته كما يرى هو لغته، حتى إنه ليعدّ غيرها نباح كلاب، ويستحلّ الكذب بها[103]! وما أطرف دلالة أنه «عندما يكون الرجل الإنجليزي غير مفهوم فإنه يقول لمحدثه: وهل أنا أتكلم العربية. وعندما يكون العربي غير مفهوم فإنه يقول لمحدثه: وهل أنا أتكلم الصينية. وعندما يكون الصيني غير مفهوم يتساءل إن كان يتحدث الإنجليزية»[104] ـ على تمسك كلٍّ بلغته!

من هذا الباب نفسه أي باب اللغة (أصل الاتصال البشري الباقي المستمر في وسائله المختلفة)، وعلى منهج العولمة (ظاهرة الاتصال الحضاري المستمرة في محاولاته المختلفة)، تطوع حديثًا بعض المستشرقين الذين طوفوا في بلادنا العربية من شرقيها إلى غربيها، وتأملوا من كثب، وعرفوا دون غيرهم كثيرًا، ودرسوا تطور اللغة العربية ألفاظًا وتعابير، وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء لتحديث اللغة العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة ـ بملاحظة اقتراب اللغة العربية من عائلة لغات الثقافة الغربية، ثم ببيان ما ينبغي للغة العربية ـ والمراد العرب ـ أن تصطنعه لتصبح عضوًا عاملًا مؤثرًا في تلك العائلة.

لقد خلط فيما انتهى إليه أفكارًا ضعيفة منكَرة وأخرى قوية معجِبة؛ فحفَزَني إلى النظر فيها وفي لغتنا العربية التي نصَّ منها على نماذج معينة؛ فانتهيت إلى ما يلي:

- فكرة «اللغةُ أداةٌ» على اختلاف ما هي أداته، خطأٌ مهما راجت على ألسن الكبار والصغار.
- بين الفَكْر الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، والتفكير الذي هو مبالغة في الفَكْر استُغني بها عنه لكثرة هذا الحدث وتعلق حياة الإنسان به، والفِكْر الذي هو ثمرة الفَكْر والتفكير - فروق واضحة.
- علاقة اللغة بالفِكْر هم الفلاسفة اللازم.
- علاقة اللغة بالتفكير من هموم النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين).
- علاقة اللغة بالتفكير أساس عمل التقنيين علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي.
- وعي علاقة اللغة بالتفكير، أصيل في ثقافتنا العربية.
- دلالة بعض الأفكار الاستشراقية على أن العرب الآن يفكرون بغير اللغة، أو لا يفكرون إذ لا لغة لهم - واهية نظرًا وعملًا.
- لا وجه لدلالة انقسام اللغة العربية إلى نمطين: مبتذل مستهلك، وممتنع مصون، على أن العرب الآن مضطربون لغة وتفكيرًا.
- فيما قدم الدكتور علي عبد الواحد وافي من بحثٍ للتطور اللغوي العام ولتطور اللغة العربية قديمًا وحديثًا، بيان شاف كاف في رد وصْمها بالجمود، وفقةٌ دقيق لمنزلتها حديثًا منها قديمًا، ومنزلتها قديمًا منها حديثًا.
- كانت للإسلام والقرآن قديمًا ثم لعلوم الأوائل وسيطًا ثم للفكر الغربي حديثًا، آثار لغوية تفكيرية بينة الدلالة على الحياة لا الجمود.
- للاستفادة من صحيح الفكر الحديث، مراحل أربع: الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصير، ثم الامتلاك، ثم الابتداع.
- اطِّراح الفكر القديم كاطِّراح الفكر الحديث، خسارة فادحة.
- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، أهم من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها.
- علاقة كلم الجملة (المعاني) المجتمعة، أهم من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها، وبالقياس تكون علاقة جمل الفقرة المجتمعة أهم من الجمل المنفردات، وعلاقة فقر النص المجتمعة أهم من الفقر المنفردات، وعلاقة نصوص الكتاب المجتمعة أهم من النصوص المنفردات؛ فإن المتأمل يطيل النظر حتى تتكشف له رسالة الكتاب المستولية على نصوصه؛ فتنكشف بانكشافها قضايا النصوص، ثم أفكار الفقر، ثم فِكَيْراتُ الجمل، فتكون لمعاني الكلم عندئذ قيمة.

- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة ـ وكذلك علاقة الجمل والفقر والنصوص ـ عمل النحو.
- للنحو الفلسفي وجهٌ ظاهر الجدوى على كون التعليق (إعمالِ النحو) عملا لغويًا تفكيريًا، ووجهٌ غامض الدلالة على مظهر عجيب من مظاهر العولمة.
- في دعوى قدرة التعابير الدخيلة على تفسير الحضارات، شبهةُ تَعَمُّد إثبات الضعف.
- النحو وحده هو نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين.
- في تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربيين، وعي واضح لوظيفته الخالدة السابقة.
- نسبة طه حسين إلى الحديث الغربي والرافعي إلى القديم العربي، تمهيد استشراقي للحكم لمذهب الأول اللغوي التفكيري، بالنجاح والبقاء، وعلى مذهب الآخر اللغوي التفكيري، بالفشل والفناء.
- مذهب طه حسين ومذهب الرافعي طوران من اللغة والتفكير عربيان، أولهما طور الثورة والعجلة والآخر طور الهدأة والأناة، نظامهما جميعًا معًا النحو العربي.
- إنه إذا اقتضت مقالاتُ الحضارة العادية، العربيَّ إحدى خطتي خسف أحلاهما مرٌّ: أن يعتقدها وينتمي إليها، أو أن يموت بحضارته ويمّحيًا من الحياة والكون ـ فحسبها أن نبهته لينظر في نفسه وأمته وحضارته، حتى إنه إذا ذكر ذاكرٌ مصطلح «عَوْلَمة» وسكت، تراءتْ بحُمّى الانتباه، طوائفُ من المواد العلمية والإعلامية.

لقد تبينتْ لي فيما تطوع به بعض المستشرقين من بيان واقع اللغة العربية وتحديد مستقبلها، ملامحُ من الأخطاء المتعمدة والدعاوى العريضة، لا تقبلها أدبيّاتُ الاتصال التي من بَديهيّاتها التفريقُ بين اتصال أهل الأمة الواحدة الذي يحفظ لهم خُصوصيَّتهم، واتصال أهل الأمم المتعددة الذي يتيح لهم تَنافُعَهم[100].

حَواشي الفَصْلِ الأَوَّلِ وَكُتُبُه

١ ـ ستتكيفيتش (الدكتور جاروسلاف): ((العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب))، ترجمه وعلّق عليه الدكتور محمد حسن عبد العزيز، طبعة دار النمر بالقاهرة، سنة ١٩٨٥م، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥. والكتاب كما أخبرني الدكتور خليل الشيخ الأستاذ بقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس، الذي يعرفه هو ومؤلفه وطرفًا من أخباره ويثني على عقله ونشاطه ـ رسالته للدكتوراه.

٢ ـ فك (يوهان): ((العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب))، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه وصنع فهارسه الدكتور رمضان عبد التواب، طبعة المطبعة العربية الحديثة سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٢٣٨ ـ ٢٤٢؛ ففي فصيل عنوانه ((نظرة خاطفة))، أشار إلى مثل ما رصد له ستتكيفيتش كتابه، فاتفقت بينهما أفكار وآراء، واختلفت أخرى.

٣ ـ ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): ((لسان العرب))، طبعة دار المعارف بالقاهرة، مادة أدو.

٤ ـ حسين (الدكتور طه): ((حديث الأربعاء))، الطبعة الحادية عشرة، نشرة دار المعارف بالقاهرة، ٣/ ٢٩.

٥ ـ شاكر (محمود محمد): ((أباطيل وأسمار))، طبعة المدني، الثانية سنة ١٩٨٢م، ص٥١٣.

٦ ـ في مجلس لأستاذنا محمود محمد شاكر سنة ١٩٩٢م، حضره جماعة من العلماء: منهم الدكتور محمود محمد الطناحي ـ رحمه الله ـ والأستاذ عبد الحميد بسيوني، والأستاذ رضوان دعبول صاحب مؤسسة الرسالة (دار النشر المشهورة)، وغيرهم، سأله الأستاذ رضوان عقب حديث نشر الكتب العربية ذي الشجون: بم ترى لنا أن نبدأ الآن، يا أستاذ؟ فقال: بلسان العرب (المعجم)؛ فاللغة أهم ما تتخذون رسالة نشر، أو كما قال رحمه الله، ثم خاض في بيان مكان اللغة من الثقافة عامة، ومكان لغتنا من ثقافتنا خاصة.

٧ ـ ناصف (الدكتور مصطفى): ((اللغة بين البلاغة والأسلوبية))، العدد ٥٣ من كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة، لجمادي الآخرة ١٤٠٩هـ ـ يناير ١٩٨٩م، ص٥١٩ ـ ٥٢١.

٨ ـ الجابري (الدكتور محمد عابد): ((نقد العقل العربي (١) تكوين العقل العربي))، الطبعة السابعة في أكتوبر ١٩٩٨، نشره مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ص٧٧.

٩ ـ يوسف (الدكتور جمعة سيد): ((سيكولوجية اللغة والمرض العقلي))، العدد (١٤٥) من كتاب عالم المعرفة، ليناير ١٩٩٠م، نشرة المجلس الوطني الكويتي؛ فقد وضع في العناوين، (الفكر) بين قوسين بعد التفكير دون تفريق، وبهادر (الدكتورة سعدية محمد علي): ((في

سيكولوجية المراهقة))، طبعة سنة ١٩٨٠م، نشرة دار البحوث العلمية بالكويت، ص٨١ ـ ٨٢، وعلي، ص١٣٩، ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

١٠ ـ ابن منظور، مادة (فكر).

١١ ـ دي بونو (إدوارد): ((تعليم التفكير))، ترجمة الدكتور عادل عبد الكريم ياسين والأستاذين إياد أحمد ملحم وتوفيق أحمد العمري، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م، نشرة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بالكويت، ص٤٢.

١٢ ـ محمود (الدكتور زكي نجيب): ((تجديد الفكر العربي))، طبعة دار الشروق بالقاهرة، الثامنة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

١٣ ـ محمود (الدكتور زكي نجيب): ((قشور ولباب))، طبعة دار الشروق بالقاهرة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص١٧٣.

١٤ ـ الجابري، ص٧٦.

١٥ ـ ابن منظور، مادة نطق.

١٦ ـ عبده (الدكتور داود): ((دراسات في علم اللغة النفسي))، طبعة سنة ١٩٨٤م الأولى، نشرة جامعة الكويت، ص٩ ـ ١٠؛ فقد سوّى بين المصطلحين: علم النفس اللغوي وعلم اللغة النفسي.

١٧ ـ المسدي (الدكتور عبد السلام): ((قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون))، طبعة سنة ١٩٩٣م الرابعة، نشرة دار سعاد الصباح بالقاهرة، ص٦٩ ـ ٧٠.

١٨ ـ عبده، ص١٠.

١٩ ـ يوسف، ص١٥٢ ـ ١٥٥.

٢٠ ـ السابق، ص١٩٨ ـ ١٩٩، ٢٣١ ـ ٢٣٢.

٢١ ـ عطية (الدكتورة نوال محمد): ((علم النفس اللغوي))، طبعة سنة ١٩٩٥ الثالثة، نشرة المكتبة الأكاديمية بالقاهرة، ص١٥ ـ ١٩.

٢٢ ـ علي (الدكتور نبيل): ((العرب وعصر المعلومات))، العدد ١٨٤ من كتاب عالم المعرفة لشهر شوال ١٤١٤هـ ـ إبريل ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني الكويتي، ص١٤٠ ـ ١٤١، ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

٢٣ ـ سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر): ((الكتاب))، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة المدني الثالثة سنة ١٩٨٨م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة؛ ففي كل موضع منه يتأمل الكلمات منفردة ومجتمعة: لم كانت على ذلك النحو ولم تكن على هذا، سائلًا نفسه أو أستاذه، رادًّا الأمر إلى تفكير التكلم. والجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي):

((دلائل الإعجاز))، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، طبعة المدني سنة ١٩٨٤م، نشرة الخانجي بالقاهرة؛ فهو في بيان نظم الكلام والمعاني.

وقد أفاض أستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه: ((النحو والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي))، طبعة مطبعة المدينة، الأولى سنة ١٩٨٣ في بيان وحدة النظرية بين سيبويه والجرجاني، وإكمال الخالف منهما عمل السالف.

ومن الطريف هنا أنه لما كان الأستاذ الشايب قد فهم من كلام الجرجاني أنه يقول بأسلوب لفظي مصوغ على مثاله، وجدت الدكتور شكري محمد عياد استنكر ذلك قائلًا: ((وضع الأستاذ الشايب لقضية اللفظ والمعنى يتجاوز كل ما كتبه عبد القاهر حول هذا الموضوع. فلم يذهب عبد القاهر قط إلى مثل قول الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبًا معنويًا وأسلوبًا لفظيًا يتكون على مثاله. ولاشك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة والأدب والأنثروبولوجيا وعلم النفس على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلًا والآخر صورة له))، ص٢٩ من كتابه: ((اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي))، طبعة سنة ١٩٨٨م الأولى، نشرة إنترناشيونال برس بالقاهرة.

وكذلك ناصف (الدكتور مصطفى): ((نظرية المعنى في النقد العربي))، طبعة دار الأندلس ببيروت، ولاسيما ص٣٨ التي قرّب فيها استعمالات العرب القدماء لكلمتي المعنى واللفظ.

وبين يديّ كتيّب لعنبر (الأستاذ أحمد محمد): ((قضية الأدب بين اللفظ والمعنى أو بين الأشكال والدلالات قديمًا وحديثًا))، طبعة دار الكتاب العربي بمصر (محمد حلمي المنياوي)، في أغسطس ١٩٥٤م - متواضِع متجاوَز، غير أن فيه طرافةً باقيةً بوُصوله من خلال استفتاء جمع كبير من الأدباء، منهم من ملأ الدنيا بعد ذلك، إلى أن المعاني والعبارات تتكون في الذهن في وقت واحد معًا.

٢٤ـ علي، ص١٣٩.

٢٥ـ التوحيدي (أبو حيان): ((كتاب الإمتاع والمؤانسة))، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة، والمكتبة العصرية ببيروت، ١/ ١٠٩ ـ١٢٨؛ ففيه نص مناظرة أبي سعيد السيرافي وأبي بشر القنائي سنة ٣٢٦هـ في أن يونان على ما يؤديه منطقهم المترجم عنهم، دون غيرهم من الأمم ((أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد هذا لغيرهم))، وهو ما كان أبو سعيد رآه دعوة إلى اللغة اليونانية. كذلك شاكر، فصل ((... وهذه هي أخطارها)). إنها سنة غربية قديمة مأثورة مستمرة.

٢٦ـ الجابري، ص٧٩ ـ ٨٠.

٢٧ـ وافي (الدكتور علي عبد الواحد): ((فقه اللغة))، طبعة دار نهضة مصر، بفجالة القاهرة ص١٥٣.

٢٨ـ السابق، ص١٦٠.

٢٩ـ أونج (والتر. ج): ((الشفاهية والكتابيّة))، العدد ١٨٢ من كتاب عالم المعرفة، لشعبان ١٤١٤هـ ـ فبراير ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني الكويتي، ص٢٠٣. واللغة القديمة فيما سبق من بحثنا، هي اللغة المكتوبة عنده.

٣٠ـ وافي: ((علم اللغة))، طبعة دار نهضة مصر بفجالة القاهرة، التاسعة.

٣١ـ وافي: ((فقه اللغة)) السابق.

٣٢ـ السابق، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

٣٣ـ برجشترا سر (ج): ((التطور النحوي للغة العربية))، أخرجه وصححه وعلّق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، طبعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، نشره الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض؛ ففي عربية القرون الأولى بعيد الهجرة ألقى برجشترا سر الألماني، سنة ١٩٢٩م بالجامعة المصرية، محاضراته العربية في المسائل التاريخية الخاصة باللغة العربية في طور كمالها. ثم نبّه على الحاجة إلى بيان تاريخها منذئذ إلى الآن، وأن أهم موضوعاته تكوّن اللهجات الدارجة على اختلافها. وأشار إلى أن في النظر إلى اللغة العربية من الوجهة التاريخية فائدتين: الأولى إكمال معرفتها، والأخرى معرفة طرائق علم اللغة الغربي الذي يحسن استيعاب العرب له من خلال لغتهم!

٣٤ـ سورة الرعد، من الآية١١.

٣٥ـ ابن ماجه (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني الحافظ): ((سنن ابن ماجه))، حققه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، نشرة دار الكتب العلمية ببيروت، ٢/ ١٣٩٥.

٣٦ـ البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزبه الجعفي): ((صحيح البخاري))، نشرة دار إحياء التراث العربي، ١/ ١٤، والعسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): ((فتح الباري بشرح صحيح البخاري))، قام عليه عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، نشرة دار المعرفة ببيروت، ١/ ٨٦.

٣٧ـ محمد (الدكتور محمد سيد): ((الإعلام واللغة))، طبعة ١٩٨٤م، نشرة عالم الكتب بالقاهرة، ص٥؛ فقد ذكر عن سارتر أنه لما قال طالب فرنسي لصديقه الزنجي: ((لنشتغل الآن كما يشتغل الزنجي)) ـ وإن لم ينطق الكلمة الأخيرة، فقد فهمت من هذا المثل التعبيري ـ هجره صديقه إلى غير لقاء آسفًا لهذه البقية العنصرية (الجاهلية) التي لم يطرحها من لغته وتفكيره!

٣٨ـ ابن نبي (مالك): ((الظاهرة القرآنية))، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدمشق، ص١٨٤، ١٨٥.

٣٩ـ عبد التواب (الدكتور رمضان): ((فصول في فقه العربية))، طبعة سفنكس الثانية سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ص ١٠٨ ـ ١١٥.

٤٠ـ ضيف (الدكتور شوقي): ((البلاغة تطور وتاريخ))، طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة، ص ٢٠.

٤١ـ عابدين (الدكتور عبد المجيد عابدين): ((الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى))، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، سنة ١٩٨٩م، ص١٨١.

٤٢ـ محمود: ((تجديد الفكر العربي))، ص٢٩٢.

٤٣ـ العقاد (عباس محمود): ((شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي))، العدد ٢٥٢ من كتاب الهلال المصري، لشهر ذي القعدة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م، ص٨٩ ـ ٩٠؛ فقد نظرتُ فيما ذكرتُ من ضروب تجريب الجديد، إلى ما ذكر من مراحل مرور الشعر من الركود والجمود إلى النهضة والجودة، وهي: التقليد الضعيف أو التقليد للتقليد، والتقليد المحكم أو التقليد الممتزج بشيء من القدرة، والابتكار الناشئ من شعور بالحرية القومية، والابتكار الناشئ من شعور بالحرية الفردية. والعجب للدكتور زكي نجيب محمود، جعل العقاد في القسم الأول مما سبق، الذي قَبِلَ الفكر الغربي كله وتمسك بالفكر العربي كله، ولم يكن منه، بل من القسم الرابع الذي قبل بعضًا من كلٍّ منهما دون بعض، تشهد لذلك أعماله. ومن الطريف دلالةً، أنني سمعت قريبًا حديث العقاد المتلفز الوحيد، مرة أخرى، وفيه للمتأمل ما يجعله في القسم الرابع حتمًا!

٤٤ـ ناصف: ((اللغة بين ...))، ص١٣٩ ـ ١٤٠، ١٤١ ـ ١٤٢، ١٨٥ ـ ١٨٦.

٤٥ـ محمد، ص٣٠، والجزيرة (القناة الفضائية القطرية): ((بلا حدود))، ٤/ ١/ ١٤٢٢هـ = ٢٩/ ٣/ ٢٠٠١م، موقع الجزيرة على الإنترنت، من قسم البرامج الحيّة، Page 12 of 21؛ فقد أشار الدكتور نبيل علي عالم هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، ضيف البرنامج، إلى مؤتمر لليونسكو حضره أخيرًا، في قضية التنوع اللغوي وخطورة الانقراض المخوف على لغات العالم، ومأساة انقراض لغة منها كل أسبوعين، ((بكل ما يعنيه هذا من اختفاء رصيد ثقافي عظيم جدًّا)).

٤٦ـ العسقلاني، ٦/ ٣٨٧.

٤٧ ـ أمين (الدكتور عثمان): ((فلسفة اللغة العربية))، العدد ١٤٤ من المكتبة الثقافية، لشهر نوفمبر ١٩٦٥م، نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع مكتبة مصر بفجالة القاهرة، ص٩ وما بعدها.

٤٨ ـ أبو ديب (الدكتور كمال): ((الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (١) البنية والرؤيا))، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٦م، ص٢٥.

٤٩ ـ ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري): ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر))، قدم له وحققه وعلّق عليه الدكتوران أحمد الحوفي وبدوي طبانة، نشرة دار نهضة مصر بالقاهرة، ١/ ١٦٦، ورتشاردز (أ. أ): ((العلم والشعر))، ترجمة الدكتور مصطفى بدوي، وراجعته الدكتورة سهير القلماوي، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ص٤٦، وفيشر (إرنست): ((ضرورة الفن))، نقله إلى العربية الدكتور ميشال سليمان، نشرة دار الحقيقة ببيروت، ص٢٠٤، ووات (سكوت): ((كيف تضاعف ذكاءك))، طبعة سنة ٢٠٠٠م الأولى، نشرة مكتبة جرير برياض السعودية، ص٤٩ ـ ٥٣، وفيما أورده الباحث الأخير وهو محلل اقتصادي، دليل عموم التسليم ببداهة هذه الفكرة الآن.

٥٠ ـ المرزباني (أبو عبيد محمد بن عمران بن موسى): ((الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر))، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، ص٣٥٦.

٥١ ـ فضل (الدكتور صلاح): ((نظرية البنائية في النقد الأدبي))، طبعة سنة ١٩٩٢م، نشرة مؤسسة مختار بالقاهرة، ص٤٥٦.

٥٢ ـ علي (الدكتور نبيل)، ص١٤٢.

٥٣ ـ الجرجاني، ص٨١ ـ ٨٣، ٨٤، ٩٨، وحسان (الدكتور تمام): ((اللغة العربية: معناها ومبناها))، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثانية سنة ١٩٧٩م، ص١٨٥ ـ ١٩٠، وعبد اللطيف، ص٩٩، ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٠٤ ـ ١٠٥، وناصف: ((اللغة بين...))، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤، ٢٤٦، ٢٤٨ ـ ٢٥٨، ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ٢٧٧، وعبد المطلب (الدكتور محمد): ((البلاغة والأسلوبية))، طبعة دار نوبار بالقاهرة سنة ١٩٩٤م، نشرة مكتبة لبنان ببيروت والشركة المصرية العالمية (لونجمان) بمصر، ص٥٥.

٥٤ ـ مصلوح (الدكتور سعد): ((العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص)))، بحث بالكتاب التذكاري ((عبد السلام هارون: معلما ومؤلفا ومحققا))، الذي أعده الدكتوران وديعة طه النجم وعبده بدوي، نشرة سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م، ص٤٣١.

٥٥ ـ تشومسكي (نعوم): ((اللغة والعقل))، ترجمة بيداء علي العلكاوي، ومراجعة الدكتور سليان داود الواسطي، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، سنة ١٩٩٦م، ص ٣١ ـ ٣٢.

٥٦ ـ علي، ص١٣٩، وإبراهيم (للدكتور زكريا): ((مشكلات فلسفية ٨: مشكلة البنية))، طبعة سنة ١٩٩٠م، نشرة دار سحنون بتونس ومكتبة مصر بالقاهرة، ص٦٨.

٥٧ ـ إبراهيم، ص٦٧، وزكريا (الدكتور ميشال): ((الألسنية (علم اللغة الحديث): المبادئ والأعلام))، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، نشرة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص٢١٢.

٥٨ ـ تشومسكي: ٢٤ ـ ٢٦.

٥٩ ـ الوعر (الدكتور مازن): ((نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية))، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢م، نشرة دار طلاس بدمشق، ص٢٥٠.

٦٠ ـ بورا (ك. موريس): ((الغناء والشعر عند الشعوب البدائية))، ترجمة يوسف شلب الشام، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م، نشرة دار طلاس بدمشق، ص٣٦ ـ ٣٧.

٦١ ـ حسان، ص١٩٣.

٦٢ ـ أمين، ص١٠٥.

٦٣ ـ صادق (الدكتورة آمال أحمد مختار): ((لغة الموسيقا: دراسة في علم النفس اللغوي وتطبيقاته في مجال الموسيقى))، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م، نشرة مركز التنمية البشرية والمعلومات بالقاهرة، ص١٠٨؛ فقد استعملت مصطلح ((النحو الإيقاعي)) لنحو الإيقاع، ولما كانت الموسيقا عند أهلها تفكيرًا مجردًا، جاز مصطلح نحو التفكير جوازًا حسنًا!

٦٤ ـ ستكيفيتشن ص٢٧٨.

٦٥ ـ الوعر، ص١٨ ـ ١٩.

٦٦ ـ الطرابلسي (الدكتور محمد الهادي): ((خصائص الأسلوب في الشوقيات))، طبعة سنة ١٩٨١م، نشرة الجامعة التونسية، ص٣١٨.

٦٧ ـ عبده، ص٢١.

٦٨ ـ وافي: ((فقه اللغة))، ص١٥٢.

٦٩ ـ الحمزاوي (الدكتور محمد رشاد): ((العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات))، طبعة سنة ١٩٨٢م، نشرة المعهد القومي لعلوم التربية بتونس، ص١٥٩ ـ ١٧٠.

٧٠ـ عياد، ص٣٢ ـ ٣٣، وعبد المطلب، ص١٢٩ ـ ١٣١؛ ففيهما من سيرة مصطلح ((أسلوب)) في كتب النقد العربي من قديم إلى حديث، ما ينكر تسمية مثل هذه التعابير، أساليب.

٧١ـ أدونيس (علي أحمد سعيد): ((زمن الشعر))، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م، نشرة دار العودة ببيروت، ١٣، ٤٠، ١١٣، وغيرها.

٧٢ـ أدونيس: ((النص القرآني وآفاق الكتابة))، طبعة سنة ١٩٩٣م، نشرة دار الآداب ببيروت، ص٩٦ ـ ٩٨. وراجع الخراط (إدوار): ((أنا والطابو: مقاطع من (سيرة ذاتية للكتابة) عن السلطة والحرية))، مقال بالعدد (٣) المجلد (١١) من مجلة فصول لخريف ١٩٩٢م، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤٦، ٤٧؛ فقد طمح إلى أن يتحرر من نظام اللغة والتفكير، ثم خاف من هذه الحرية.

٧٣ـ عياد، ص١١٠ ـ ١١١.

٧٤ـ محمود: ((تجديد الفكر العربي))، ص٣٦٢ ـ ٣٦٥.

٧٥ـ السابق، ص٢٢٣.

٧٦ـ حسين، ٣/ ٣٠.

٧٧ـ السابق، ٣/ ١٣.

٧٨ـ السابق، ٣/ ١٢.

٧٩ـ السابق، ٣/ ٢٩، ٣٥.

٨٠ـ السابق، ٣/ ١٣.

٨١ـ محمود: ((تجديد الفكر العربي))، ص٢٩٢.

٨٢ـ الرافعي (مصطفى صادق): ((وحي القلم))، ضبطه وصححه وعلّق حواشيه محمد سعيد العريان، نشرة دار الكتاب العربي ببيروت؛ فقد سخر مرّ السخر في مقاله الحواري (اللسان المرقّع) مثلًا، من (حضرة صاحب السعادة) الذي خير منه قروي ساذج يكون لقبه (حضرة صاحب الجاموسة)، مستهلًا بقوله: ((وقال صاحب سر (م) باشا: جاء (حضرة صاحب السعادة) فلان لزيارة الباشا. وهو رجل مصري ولد في بعض القرى، ما نعلم أن الله ـ تعالى! ـ ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فنّين من الخليقة ـ غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولوّن نفسه ألوانًا، فهو مصري ملون؛ ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلا لشهواتٍ أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودّ لو كان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مُغْمى عليه، كالميت بين تواريخ الأمم. هو

كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين، مصريّ المال فقط؛ إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر، عربيُّ الاسم لا غير؛ إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة، مسلمُ ما مضى دون ما هو حاضر؛ إذ كان لا حيلة في أنسابهم التي انحدروا منها. هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصري، ولفكره جنس آخر. قال: وكان حضرة صاحب السعادة يكلّم الباشا بالعربية التي تلعنها العربية، مرتفعا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منحطًا، نازلًا بها عن لغة السوقة نزولًا عاليًا))، ٢/ ٢٩٦.

٨٣ـ حسين: ((بَيْنَ بَيْنَ))، الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٨٣م، نشرة دار العلم للملايين ببيروت، ص١٤. وقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبت عليه علامات تقسيمه إلى جمله. وفيه ((بل)) هكذا، والمشهور في رسم هذه الألف الواويّة الأصل ((بلا)) على ما آثرت. والرجل مُمْلٍ لا كاتب!

٨٤ـ الرافعي: ((حديث القمر))، الطبعة الثامنة سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، نشرة دار الكتاب العربي ببيروت، ص٤٠. وقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبت عليه علامات تقسيمه إلى جمله كذلك.

٨٥ـ جدولت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص طه حسين الثلاث عشرة، على حسب ورودها فيه. أما المسند فالفعل أو الخبر، وأما المسند إليه فالفاعل أو المبتدأ، وقد تعارف البلاغيون الذين يتمسّكون بهذين المصطلحين، ولاسيما متأخروهم، على البدء بالمسند إليه بما يقتضي أن يوضع في يمين الجدول، السيوطي (جلال الدين): ((شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان))، طبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م، وصقر (الدكتور محمد جمال): ((الأمثال العربية القديمة: دراسة نحوية))، طبعة المدني بعباسية القاهرة، سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص٣٠، ولكنني آثرت هنا أن أضع في يمين الجدول المسند؛ فلن أقف عند أي من مؤسّسي الجملة (المسند والمسند إليه)، بل أتناولهما بها؛ فما هي إلا مركب لغوي من عنصرين مؤسسين بينهما علاقة إسناد، ربما ارتبطت بأحدهما أو كليهما عناصر أخرى مكمّلة أو ملوّنة. ثم المسند موطن الفائدة الطبيعي منها.

٨٦ـ جدولت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص الرافعي السبع، على حسب ورودها فيه كذلك.

٨٧ـ جدولت هنا عدد كلم كل جملة من جمل نص طه حسين، وعدد علاقاتها، ثم استخرجت بقسمة الأول على الثاني، متوسط نصيب العلاقة من الكلم في الجملة المعينة وفي الجمل كلها. والكلمة المقصودة هنا عنصر لغوي من الجملة، يؤسسها مع قسيمه أو يكمّل أحد مؤسسيها أو كليهما، أو يلوّنها أي يؤدي معنى طارئًا عليها أو على أي من عناصرها المؤسّسة أو المكمّلة. هو تعريف يراعي وظيفة الكلمة في الجملة كثيرًا، فلا يعد (ها)

التنبيهية، ولا (أل) الموصوليّة، ولا (ك) الخطابية وما أشبهها، كلم، بل أجزاء كلم، على حين يعد من الكلم (يا) الندائية، و(قد) التحقيقية، و(ت) الفاعلية وما أشبهها. أما العلاقة المقصودة هنا فرباط الكلم التأسيسي (الإسناد) أو التكميليّ (التقييد) فقط؛ إذ لما كانت الملوِّنات تضاف إلى ما لوّنته، لم نعتد بربابطها التلويني.

٨٨ـ جدولت هنا من كل جملة من جمل نص الرافعي، على مثال الجدول الثالث.

٨٩ـ جدولت هنا من الجملتين التاسعة بنص طه حسين والسابعة بنص الرافعي وهما أبرز جملها جميًا كما يتضح من الجدولين السابقين ـ كلم كل علاقة. وقد نقصت كلم كلٍّ من النصين، كلمتين كانتا مفتتح التعلُّق، وخلت علاقة جملة طه حسين، السادسة عشرة، من الكلم، لاستتارها.

٩٠ـ بنيت هنا منحنى متوسط كلم العلاقة (المحور (ص)) في كل جملة (المحور (س)) من جمل نص طه حسين بالخط المتصل، ومن جمل نص الرافعي بالخط المتقطع. والمادة مستفادة من الجدولين الثالث والرابع.

٩١ـ جدولت هنا على حسب الورود، علاقات جمل نص طه حسين الاثنتي عشرة ـ إذ الأخيرةُ غير متعلقة بشيء بعدها ـ مراعيًا من أحوال الجمل خبريتها وإنشائيتها ـ إذ هي الحال المعتبرة هنا، راجع ابن هشام (الأنصاري المصري): ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب))، طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، ٢/ ١٠٠ ـ ١٠١، وحسن (عباس): ((النحو الوافي))، طبعة دار المعارف بمصر، السادسة، ٣/ ٦٥٢ ـ ٦٥٤ ـ وقاصدا بعلاقة العطف ضم اللاحقة بأداة خاصة إلى السابقة، وبعلاقة الاستئناف جوار اللاحقة للسابقة، وبعلاقة الاعتراض اشتمال السابقة على اللاحقة بين أجزائها.

٩٢ـ جدولت هنا على حسب الورود، علاقات جمل نص الرافعي الست ـ إذ الأخيرةُ غير متعلقة بشيء بعدها ـ على مثال الجدول السادس.

٩٣ـ وهبه (للدكتور مجدي): ((معجم مصطلحات الأدب))، نشرة مكتبة لبنان بيروت، ص٤٦٧؛ ففيه بيان للواقعية يؤيد ما نسبت إليه طه حسين في نصه المختار، ولا عليّ ألا يكون كذلك في غيره.

٩٤ـ السابق، ص٢٣٤؛ ففيه بيان للمثالية يؤيد ما نسبت إليه الرافعي في نصه المختار، ولا عليّ ألا يكون كذلك في غيره.

٩٥ـ هيكل (الدكتور أحمد): ((تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية))، طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة سنة ١٩٩٤م، ص٣٨٠.

٩٦ـ السابق، ص٣٨٧.

٩٧ـ السابق، ص٣٨٠.

٩٨ـ طبانة (الدكتور بدوي): ((معجم البلاغة العربية))، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م، نشرة دار المنار بجدة ودار الرفاعي بالرياض، ص١٢٥؛ ففيه أن التجريد المحض أن يكون ظاهر خطاب المتكلم، لغيره، وهو لنفسه.

٩٩ـ حسن، ٤/ ١.

١٠٠ـ فندريس (جوزيف): ((اللغة))، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، طبعة سنة ١٩٥٠م، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ص١٩٥، وصقر، ص٢٠٢، ٢٠٣.

١٠١ـ يقوم التحليل الذي أجمله الجدولان الثالث والرابع، وفصله الجدول الخامس، ويبينه تشجير المثالين التاليين ـ على تفريق الكلم (المعاني) المجتمعة، وضبط علاقة السابقة منها باللاحقة بسهم يخرج من الأولى إلى الآخرة، وسواء أكانت أيٌّ منها مذكورةً محسوبةً، أم غير مذكورة ولا محسوبة حالةً محلها الدائرة المفرغة، على نهج كأنه إعراب بالأسهم ـ ثم على عد جميع ما في درجة واحدة من الكلمات مهما اختلفت مصادر علاقاتها، علاقة واحدة ـ جاريًا على النظر النحوي المشهور المتداول من قديم إلى حديث.

ولقد كان ضبط التشجير نتيجة تناظري فيه أنا وأخي العزيز الدكتور محمد نادر عبد الحكيم مدرس علم اللغة الحديث بقسم اللغة العربية من كلية الألسن بالقاهرة وكلية الآداب بمسقط.

١٠٢ـ حسين، ٣/ ١٢.

١٠٣ـ علي، ص٣٤٧.

١٠٤ـ محمد، ص١٣.

١٠٥ـ دعا أستاذنا محمود محمد شاكر، العقاد ـ رحمهما الله! ـ أستاذه، فأنكر العقاد ذلك وكأنه استعظمه، فذكر أستاذنا أنه تعلم منه طرفًا مما يقال عن الإسلام. وللعقاد كتاب بهذا الاسم ((ما يقال عن الإسلام)) مهم، غير أن المقصود ـ لا ريب ـ أكبر. ولقد اجتهدت أن أستوعب عن أستاذنا سماعًا وقراءة، طرفا مما علمه من ذلك وما نبه عليه، ثم تيسر لي سنة ١٩٩٩م، تدريس مقرر الاستشراق بجامعة السلطان قابوس بمسقط، فتأملت مالا يتأمله إلا من درّس أو ألّف، ولاسيما أنني حصرتُ المقرر في اللغة العربية.

الْفَصْلُ الثّاني

هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْقَديمِ

جَزالَةٌ أَوْ رَكاكَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ

[١] عَديٌّ **مُهَلْهِلٍ** بنُ رَبيعةَ التَّغْلَبيُّ أخو وائل كُلَيْبٍ، شاعرٌ جاهلي قديم، عاش آخرَ القرن الميلادي الخامس وأولَ السادس[١]، وذَكَرَه بأَوَّلِيَّةِ الشُّعراءِ، لبيدُ بن ربيعة، وحارثةُ بن بدر الغداني – وهما مخضرمان – وسراقةُ البارقي، والفرزدقُ ـ وهما إسلاميان – من الشعراء، وذكره بأولية المُقَصِّدين ابنُ سلام الجمحي، وابنُ قتيبة، وثعلبٌ، وأبو حاتم الرازي، والأصفهانيُّ، وأبو هلال العسكري، وابنُ رشيق القيرواني، والقلقشنديُّ، وأبو علي القالي، من العلماء، وخالفهم امرؤ القيس بن حجر الكندي – وهو ابن أخت **مهلهل** – من الشعراء، ومحمدُ بن إسحاق، ومصعبٌ الزبيري، وأبو حاتم السجستاني، وأبو زيد القرشي، والآمديُّ، وأبو أحمد العسكري، والمرزبانيُّ، وأبو عبيد البكري، والميدانيُّ، وابنُ سعيد الأندلسي، وأبو عبد الله الشبلي، وأبو بكر الحنبلي، والسيوطيُّ، من العلماء[٢].

بتلك الأولية تفاخرتِ العربُ، فزَعَمَتْها لشعرائها القدماء، قبائلُ منها مختلفة؛ فلا عجب أن يختلف في **مهلهل** أخذًا عنهم العلماءُ والشعراء!

[٢] ولكن «هناك ما يشبه الإجماع على أن الشعراء الأوائل جيلان: الجيل الأول يتقدم الثاني، ولكن ممثليه لا يعدون، في عرف بعض العلماء، شعراء، لأنهم لم يقولوا الشعر بعد الشعر، ومنهم: خُزيمة بن نهد، ودُويد بن زيد، وأعْصُرُ بن سعد بن قيس عيلان... إلخ، أما الجيل الثاني فهو الذي قَصَّدَ القصيد، وأبرز ممثليه: **مهلهل**، وزهير بن جناب، وعبيد بن الأبرص، وأبو قِلابة الهذلي، وسعد بن مالك، والفِند الزِّمّاني... إلخ. وهؤلاء متقاربون في أزمانهم، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة النبوية الشريفة بمئة وخمسين سنة، أو مئتي سنة في أبعد تقدير»[٣].

ولم يكن تَقْصيدُ القَصيدِ المجمع عليه فيما سبق، **لمهلهل** وجيله، إلا هذه الثلاثةَ جميعًا معًا: النظمَ مما يلائم غناءَ الرُّكْبانِ من العَروض، والإطالةَ، والإكثارَ ـ قياسًا إلى حالِ مَن قَبْلَهم[٤].

[٣] ولكن من العلماء من نسب عديًّا إلى **هَلْهَلَةِ** الشِّعر رادًّا إليها لَقَبَه:

ـ قادِحًا:

«فإنما سُمّي **مُهَلْهِلًا** لأنه كان **يُهَلْهِلُ** الشِّعْرَ أي يُرَقِّقُهُ ولا يُحْكِمُهُ»، كما قال الأصمعي الجليل، وذكره ابنُ دريد العالمُ الشاعرُ[٥]، و«**هَلْهَلَةِ** شِعْرِهِ **كَهَلْهَلَةِ** الثَّوْبِ، وَهُوَ اضطِرابُهُ

وَاخْتِلافُهُ))، كما قال ابن سلام الجليل(٧)، ثم نقل المرزباني كلامه(٨)، و((لِرَداءَةِ شِعْرِهِ))، كما روى ابن منظور(٩).

ـ أو مادِحًا:

فإنما ((سُمِّيَ مُهَلْهِلًا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَقَّقَ الشِّعْرَ، وَتَجَنَّبَ الْكَلامَ الْغَرِيبَ الْوَحْشِيَّ))، كما قال ابنُ الأعرابي الجليل، وذكره المرزباني(٩)، و((لِأَنَّهُ هَلْهَلَ الشِّعْرَ، أَيْ أَرَقَّهُ. وَكانَ فيهِ خُنْثٌ))، كما قال ابن قتيبة الجليل(١٠)، ثم نقل القالي ثم البغدادي كلامه(١١)، و((لِطِيبِ شِعْرِهِ، وَرِقَّتِهِ، وَكانَ أَحَدَ مَنْ غَنَّى مِنَ الْعَرَبِ في شِعْرِهِ (...) وَكانَ فيهِ خُنْثٌ وَلِينٌ، وَكانَ كَثيرَ الْمُحادَثَةِ لِلنِّساءِ، فَكانَ كُلَيْبٌ يُسَمّيهِ (زيرَ النِّساءِ)))، كما قال الأصفهاني(١٢)!

[٤] ولقد انقسمت بينهم كلمات القدح والمدح على النحو العادل التالي في الجدول:

هَلْهَلَةُ الْمَدْحِ	هَلْهَلَةُ الْقَدْحِ
التَّرْقيقُ وَاطِّراحُ الْغَريبِ الْوَحْشِيِّ	التَّرْقيقُ وَاطِّراحُ الْإِحْكامِ
اَلْإِرْقاقُ	إيقاعُ الِاضْطِرابِ وَالِاخْتِلافِ
اَلْإِطابَةُ وَالْإِرْقاقُ	اَلْإِرْداءُ

ليس العطف الوارد في خلال ذلك للمغايرة، بل للتفصيل؛ فليس اطراح الإحكام عند القادح، ولا اطراح الغريب الوحشي عند المادح، إلا الترقيق، ولولا ذلك ما استقام بالكلمة نفسها القدحُ والمدحُ جميعًا معًا.

وليس معنى زيادة إفعال ((الإرقاق))، غير التعدية التي في زيادة تفعيل ((الترقيق))، قال ابن منظور: ((أَرَقَّ الشَّيْءَ ورَقَّقَهُ: جعله رَقيقًا))(١٣)، بل التعدية التي في باب ((فَعَّلَ))، محمولة على التي في باب ((أَفْعَلَ))(١٤) ـ ومن ثم يوشك ((إيقاع الاضطراب والاختلاف)) في القدح، ألا يجد في المدح ما يقابله، إلا أن نستفيد من شَفْع الإرقاق بحديث الخُنْثِ الذي كان في عدي، عند ابن قتيبة والأصفهاني كليهما. قال ابن منظور: ((خَنِثَ الرجلُ خَنَثًا فهو خَنِثٌ، وتَخَنَّثَ وانْخَنَثَ: تَثَنّى وتَكَسَّرَ (...) وخَنَثْتُ الشيءَ فتَخَنَّثَ أي عَطَفْتُه فتَعَطَّفَ، والمُخَنَّثُ من ذلك للينهِ وتَكَسُّره، وهو الانْخِناثُ؛ والاسم الخُنْثُ (...) وتَخَنَّثَ في كلامه))(١٥).

ربما كان الإرقاق المقابل لإيقاع الاضطراب والاختلاف، نمطا من ذلك التخنيث، خرج به كلام عدي متثنيا متكسرًا لينا على مثل كلام النساء من طول معاشرتهن؛ فتعلق به بعض من يتعلق بهن، كما تعلق ببعض شعر النابغة وابن قيس الرقيات!

وبفضل تأملٍ تبدو كلماتُ العلماء المتقابلةُ، متناميةً معًا يؤدي بعضها إلى بعض؛ فاطراح الإحكام يوقع في الشعر الاضطراب والاختلاف؛ فيَرْذُلُ ـ واطراح الغريب الوحشي يرق الشعر ويخنثه ـ إمّا قَبِلْنا ـ فَيَطيب.

[٥] أتُرى بقيَتْ في أولئك العلماء أثارةٌ من ذلك التفاخر القديم؛ فقدح فيه بالهلهلة خُصومُه؛ فمدحه بها هي نفسِها أصحابُه، على طريقة من المناظرة عربية قديمة معروفة، يفخر فيها الفاخر بخَصْلة، فيُثبتها خَصمُه ثم يُوهِّمُ فَهمَه لها، على مثل ما روى المرزباني من تقديم صاحب جَريرٍ له على الفرزدق، بنجاته مما سقطَ فيه الفرزدق من التَّعْقيد، وتَوْهيم صاحب الفرزدق له بقوله: «أنت، يا أخي، لا تعقل؛ سَقَطُ الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجالُ فيه عقولها حتى يستخرجوه، وسَقَطُ جريرٍ عِيٌّ»(٦٦) ـ فأخّرَ مهلهلًا خصمُه، بهلهلته للشعر، فأثبَتَها صاحبُه، ثم وَهَّمَ فهمَه لها؟.

ولقد يساعد كلا منهما أصلُ الهلهلة في اللغة؛ فهذا ابن منظور يقول: «هَلْهَلَ النَّساجُ الثَّوبَ، إذا أرقَّ نَسْجَه وخَفَّفَه. والهَلْهَلَةُ سُخْفُ النَّسْجِ (...) وثوبٌ هَلهَلٌ رَديءُ النَّسْجِ، وفيه من اللُّغات جَميعُ ما تقدَّم في الرَّقيق؛ قال النابغة:

أتاكَ بقولٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كاذبٍ ... ولمْ يأتِ بالحقِّ الذي هُوَ ناصِعُ

(...) والمهلهلة منَ الدُّروع أردؤها نسجًا (...) ـ قال بعضهم ـ : هي الحَسَنةُ النَّسْجِ ليستْ بصَفيقةٍ»(٦٧)؛ فهلهلة أيُّ نسج إرْقاقُ تَخْفيفٍ ـ وقد عهدناه في الأثواب الفاخرة ـ أو إرْقاقُ تَسْخيفٍ، وقد عهدناه في الأثواب البالية.

فتكون هلهلةُ مهلهل للشعر عند خصمه، إرقاق تسخيف، وعند صاحبه إرقاق تخفيف، دلالةً بدلالة، والبادئُ أظلم، مُحاجَّةً لا طائلَ وراءها، ولا سيَّما ألاّ بيانَ لأيٍّ من الدلالتين.

أمْ تُرى فَرَّقَ بين القادح والمادح، شعرُه، وأكثره منحول إليه محمول عليه، كما قال الأصمعي(٦٨)؛ فقدح فيه من لم يُمَيِّزْ شعره من شعر غيره، ومدحه من ميزه؟.

ولكن أبا حاتم سأل الأصمعيَّ عن مهلهلٍ مرةً، فأجابه: «ليس بفَحْلٍ، ولو قال مثل قوله:

أَلَيْلَتَنا بذي حُسُمٍ أنيري،

خمسَ قصائد، لكان أفحلهم»(٦٩)؛ فدل على أنه ممن ميز شعره من شعر غيره، وقد مَرَّ أنه من القادحين!

أم تُرى هذه آثار أَوَّلِيَّةِ التَّقْصيدِ المُسَلَّمَةِ لمهلهل كما سبق: وُجوهٌ طبيعيةٌ من الضَّعْفِ ومن القُوَّة جميعًا معًا، غَلَبَ عليها لدى القادح الضعفُ، ولدى المادح القوةُ؟.

ولكن أين بيان ذلك؟.

كل أولئك وجوه من الظن لن تستولي على اليقين حتى يدركها البحث بسَبْرِ أَمْرِ الْمَلْهَلَةِ، ثم فَرْقِ ما بين شعر مُهَلْهِلٍ وشعر غيره المحمول عليه المنحول إليه، ثم فَرْقِ ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده.

الْمَلْهَلَةُ جَزالَةٌ أَوْ رَكاكَةٌ

[٦] اختارَ أبو تمام لمهلهلٍ في «باب المَراثي» من «ديوان الحماسة»، قولَه في أخيه :

نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ ... وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ ياكُلَيْبُ المَجْلِسُ

وَتَكَلَّموا في أَمْرِ كُلِّ عَظيمَةٍ ... لَوْ كُنْتَ شاهِدَهُمْ بِها لَمْ يَنْبِسوا

وَإذا تَشاءُ رَأَيْتَ وَجْهًا واضِحًا ... وَذِراعَ باكِيَةٍ عَلَيْها بُرْنُسُ

تَبْكي عَلَيْكَ وَلَسْتَ لائِمَ حُرَّةٍ ... تَأْسى عَلَيْكَ بِعَبْرَةٍ وتَنَفَّسُ[٢٠]

وهي قطعة باقية من قصيدة غير التي أَكْبَرَها الأصمعي فيما سبق، آثَرَها أبو تمام، واقتصر عليها طلال حرب[٢١]، وعَثَرَ لها أنطوان القوّال، بزيادة هذين البيتين بعد الثاني، في «مجالسِ ثَعْلَبٍ»:

أَبَني رَبيعَةَ مَنْ يَقومُ مَقامَهُ ... أَمْ مَنْ يَرُدُّ عَلى الضَّريكِ وَيَحْبِسُ

وَتَلَهَّفَ الصُّعْلوكُ بَعْدَكَ أُمَّهُ ... لَمّا اسْتَمالَ وَقالَ أَنّى المَجْلِسُ[٢٢]

وما ديوانُ الحماسةِ إلا مختاراتُ أبي تمام من الشعر العربي القديم، التي انتدَبَ أبو علي المرزوقيُّ إلى شرحها، فاقتضتْه أن يُنبه من يشرحها له، على العمود الذي به نَهَضَ ذلك الشعرُ من سائر الكلام واختيرت تلك المختاراتُ من سائر القصائد، كالعمود الذي به تنهض الخيمة من سائر الأرض وتُؤْثَرُ من سائر المنازل؛ فكانت «جَزالَةُ اللَّفْظِ» شطرَ الباب الثاني من سبعة أبواب هي ذلك العمود[٢٣].

ولم يختصَّ المرزوقيُّ بذكر «جَزالَةِ اللَّفْظِ»؛ فقد ذكرها قبله الجاحظ[٢٤]، وثعلب[٢٥]، و الأصفهاني[٢٦]، والآمدي[٢٧]، والمعتزلي[٢٨]، والعسكري[٢٩]، وغيرهم، ولكنه اختص بإيرادها على النحو السابق، في أبواب عمود الشعر العربي القديم.

[٧] والإِجْزالُ في لغتنا عَكْسُ الإِرْكاكِ[٣٠] الذي هو «إرقاقُ التسخيف» الذي هو أحد دَلالَتَي «الْمَلْهَلَةِ» كما سبق: «رَكَّ الشيء أيْ رَقَّ وضَعُفَ، ومنه قولهم: اقطعْهُ مِن حيثُ رَكَّ، والعامة تقول: من حيث رَقَّ، وثوبٌ ركيكُ النَّسْجِ»[٣١]، ولولا قرابة «رَقَّ» من «رَكَّ» وَزْنًا ومَعْنًى، والقاف من الكاف، مخرجًا وصفة، ما التبس الفعلان، وهو ما يوحي بأن المعنى فيهما من جنس واحد؛ فمن ثم يكون الإجزال هو «إرقاقَ التخفيف»

الذي هو دَلالةُ الهلهلة الأخرى، لا ((الإغلاظ)) الذي هو عكسُ ((الإرْقاق))؛ إذ هذا من القَدْح، وذاك من المَدْح، وقديمًا قال الجاحظ فَفَصَل : ((منَ الكلامِ الجَزْلُ والسَّخيفُ))[32].

من ثم تقع هلهلة مهلهل لشعره عند خصومه وأصحابه، التي جنى عليه وحده فيها، لَقَبُه الذي اختص به من سائر الشعراء[33] - بين الإجزال والإركاك اللذين وقع بينهما عمل سائر الشعراء القدماء؛ فمن قدح فيه بها فقد عدَّها من الإركاك، ومن مدحه بها فقد عدَّها من الإجزال.

[٨] وعلى رغم ذلك الإيراد الطريف، ترك المرزوقي شرح ((جزالة اللفظ)) – ومثلها سائر أبواب العمود – إلى إيجاز قول فيها رآه عيار الباب (معياره): ((عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينا))[34]؛ فأضاف ما يحتاج إلى شرح آخر!

ولولا انصراف كلام الجرجاني إلى نقد مقالة المُعْتَزِليِّ وأستاذه أبي هاشم الجُبَّائيِّ، لجاز أن يكون أراد المرزوقيَّ بقوله: ((لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلامًا للأولين ويتدارسوه، ويكلم به بعضهم بعضًا، من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم، إن يسألوا عنه، بيان وتفسير – إلا (علم الفصاحة)؛ فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظًا للقدماء وعبارات، من غير أن يعرفوا لها معنى أصلًا، أو يستطيعوا – إن يسألوا عنها – أن يذكروا لها تفسيرًا يصح. فمن أقرب ذلك، أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام: (إن ذلك يكون بجزالة اللفظ)... ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء))[35].

[٩] لا مُشاحّة لدى الجرجاني في استعمال المحدثين لجزالة اللفظ، مصطلح القدماء - وأولى منه ألا مشاحة لديه في استعمال الجزالة اصطلاحًا، جنسًا لمَزِيّة اللفظ[36] - ولكن المشاحة الشديدة لديه في ألا يتحمل المحدثون تكاليف استعمال مصطلح القدماء، الثلاثة:

١ عِلْمَ معناهُ أي حقيقتِهِ التي يُسْأَلُ عنها ((بما؟))،

٢ وعِلْمَ غَرَضِهِ أي عِلَّةِ حقيقته التي يسأل عنها ((بلِمَ؟))،

٣ وعِلْمَ تَفْسيرِهِ أي تمثيل حقيقته الذي يسأل عنه ((بكَيْفَ؟)).

أي في أن يجهلوا أَمْرَ تلك المَزِيَّة :

أمــرُ الجَــزالَـةِ		
علم معناها (ما هي؟)	علم غرضها (لم هي؟)	علم تفسيرها (كيف هي؟)

وإلا وجب ألا يستعملوا مصطلحها؛ فقد صار أحدَ الرموز إلى حياتنا الثقافية السابقة، التي يؤدي فقهها إلى فقه مسيرتنا الثقافية إلى المستقبل[٣٧].

[١٠] لا ريب في حَداثَةِ القديم في زمانه، وقَدامَةِ الحديث بعد زمانه. ولكن لا ريب أيضًا، في انضباط كل منها بالآخر؛ فعلماء القرنين الهجريين الرابع والخامس جميعًا — ومنهم المعتزلي والمرزوقي كلاهما — قدماء لدينا أبناء القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، محدثون لدى الجرجاني ابن القرن الهجري الخامس، وعلماء القرون الهجرية الأول والثاني والثالث، قدماء لدى الجرجاني بعيدو القدم لدينا، وعلماء القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، محدثون لدينا غائبون لدى الجرجاني.

من ثم ينبغي لنا في أمر الجزالة والركاكة :

أولًا: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدم لدينا، ولاسيما ما استوعبه هو عنهم.

ثانيًا: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعًا معًا.

ثالثًا: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعًا معًا.

حتى إذا ما انجلى أمرهما انجلى أمر الملهلة .

الجَزالَةُ وَالرَّكاكَةُ عِنْدَ الْقُدَماءِ

[١١] مر في نقد الجرجاني لاستعمال المحدثين لمصطلح القدماء، من دون أن يتحملوا تكاليفه، أن «جزالة اللفظ» عنده، من «علم الفصاحة»، وهو قد كان قال هذه الكلمة العامة التي أراد بها أن يفرغ من أصلٍ عنده: «ليس لنا — إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة — مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب»[٣٨]؛ فقد كان يرى علوم البلاغة علما واحدا، وإن كان واضع نظريتي علمي المعاني والبيان[٣٩].

إن الجزالة والركاكة عند الجرجاني إذن، من صفات النَّظْم الذي هو «أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النَّحْوِ)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ؛ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت؛ فلا تخل بشيء منها»[٤٠]، وما الجزالة والركاكة إلا نمطان من صواب النظم ومن خطئه اللذين أشار إليهما بقوله: «لست بواجد شيئًا يرجع صوابه — إن كان صوابا — وخطؤه — إن كان خطأ — إلى (النظم)، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع

في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له»[٤١]، وليست الجزالة والركاكة نمطين من صواب الإعراب ومن خطئه اللذين أشار إليهما بقوله: «لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيغ الإعراب؛ فنعتد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم؛ فليس درك الصواب دركًا حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك الخطأ تركًا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ»[٤٢].

وإن في استعماله مصطلحَ «الكلام» الخاصَّ، بدلًا من مصطلحِ «اللفظ» العامِّ الواقع في كلام المرزوقي وغيره، لحرصًا على بيان انصراف صفات النظم ومنها الجزالة والركاكة، إلى الكَلِم المجتمعة لا المنفردات، ودرءًا لشبهة انفصال اللفظ من المعنى[٤٣]، ولا سيما أنني عثرت بمن وصف المعنى بالجزالة وبالركاكة، كما وصف اللفظ[٤٤].

[١٢] نفى الجرجاني في أول كتابه أن يُكتفى في الفصاحة بأنها «خُصوصيَّةٌ في النظم»[٤٥]؛ فدل على أنها ـ ومنها لديه الجزالة والركاكة ـ هي تلك.

إن الجزالة، في أصل لغتنا، القوة، والجزل القوي، وإن الركاكة الضعف، والركيك الضعيف. وصفت العربُ بذلك العقلَ والرأيَ والجسمَ والكلامَ[٤٦]، بل وقع في نصوص من كلامها بحيث احتمل أن يكون وصفا لها كلها جميعًا معًا: «في حديث موعظة النساء: قالت امرأة منهن جَزْلَةٌ أي تامة الخَلق. قال: ويجوز أن تكون ذات كلام جَزْلٍ أي قوي شديد»[٤٧]، وفي أخبار وفود عبد الله بن أبي معقل على مصعب بن الزبير، أن مصعبًا لم يؤمِّره على غزوة زَرَنْجَ (قصبة سجستان)، حتى «أعجَبَه قولُه وجزالتُه»[٤٨]، وليس يمتنع بل يحسن أن يكون أراد قوة عقله ورأيه وجسمه وكلامه جميعًا معًا؛ فيكون خروجها كلها لديهم من أصل واحد.

من ثم تكون جزالةُ الكلام عند الجرجاني، قوةَ نظمه، وركاكتُه ضعفَه، ثم هما حين تصيبان الكلام تصيبان عقل المتكلم ورأيه وجسمه جميعًا معًا، ولكنَّ لهذا حديثًا آخر.

ولقد فَصَّلَ الجرجاني أمر النظم عقب تعريفه السابق له، بذكره أعمال الناظم قائلًا: «لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه؛ فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق)، و(زيد ينطلق)، و(ينطلق زيد)، و(منطلق زيد)، و(زيد منطلق)، و(المنطلق زيد)، و(زيد هو المنطلق)، و(زيد هو منطلق)، وفي (الشرط والجزاء) (...)، وفي الحال (...)، وينظر في (الحروف) (...)، وينظر في (الجمل) (...)، ويتصرف في (التعريف)، و(التنكير)، و(التقديم)، و(التأخير)،

في الكلام كله، وفي (الحذف)، و(التكرار)، و(الإضمار)، و(الإظهار)؛ فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. هذا هو السبيل»[٣٦].

[١٣] إننا إذا اجتزأنا بالنظر فيها فصله ونقلناه من أعمال الناظم بباب (الخبر)، وجدناها على أربعة أقسام متكاملة، لا نستطيع أن نضبط زمان بدئه أيا منها ولا زمان ختمه؛ إذ ربما تجمعت عليه هي كلها أو بعضها، وربما تفرقت:

أولها الإبدال؛ فليس إيثار الناظم في المسند أن يكون مفردًا «منطلق»، أو جملة «ينطلق، هو ينطلق»، ونكرة «منطلق»، أو معرفة «المنطلق» ـ وفي الجملة أن تكون اسمية «زيد منطلق، زيد ينطلق»، أو فعلية «ينطلق زيد»، إلا إبدال المناسب من غير المناسب.

وثانيها الترتيب؛ فليس إيثار الناظم في المسند أن يتأخر عن المسند إليه «زيد منطلق، زيد ينطلق»، أو أن يتقدم عليه «منطلق زيد، ينطلق زيد»، إلا ترتيب موقع كل منهما المناسب، من الآخر.

وثالثها الحذف، وآخرها الإضافة؛ فليس إيثار الناظم في المبتدأ والخبر المعرفتين، أن يتصلا «زيد المنطلق» ـ وهو مفهوم من «المنطلق زيد» ـ أو أن ينفصلا «زيد هو المنطلق»، إلا حذف الغير المناسب، أو إضافة المناسب.

ولا يخفى التباس الإبدال بغيره من أقسام الأعمال، في بعض ما فيها؛ إذ كل تغيير على وجه العموم، إبدال.

ثم إن في آخر نص الجرجاني السابق، بيانا آخر؛ فما إيثار التعريف أو التنكير والإضمار أو الإظهار، إلا الإبدال، ولا إيثار التقديم أو التأخير، إلا الترتيب، ولا إيثار التكرار من الحذف، إلا الإضافة.

ولقد مضى يفسر أعمال الناظمين، ويختبرها بموازنة كلامهم بعضه ببعض، أو بتغيير نظم كلامهم، وموازنة حاله الأخرى بحاله الأولى، غير متحرج من كلام الله؛ فله كان كتابه: «مما هو بتلك المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله ـ تعالى! ـ : {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}، وقوله ـ تعالى! ـ : {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، وقوله ـ تعالى! ـ : {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}؛ فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غيرَ مبنيٍّ على الاسم، فقيل: (إن وليي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين)، و(اكتتبها فتملى عليه)، و(حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون)، لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زال عن

صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها»، ولم يكن العمل الذي اختبره، إلا الترتيب.

[١٤] وعلى ذلك نفسه يجري أمرُ الجزالة والركاكة، وأعمال المُجْزِلِ (صاحب الجزالة) والمُرِكِّ (صاحب الركاكة)؛ إذ يُبْدِلانِ الكَلِمَ للجملة، والجُمَلَ للفِقْرَةِ، والفِقَرَ للنَّصِّ، والنُّصوصَ لِلْكِتابِ، ويُرَتِّبانِها، ويَحْذِفانِ منها، ويُضيفانِ إليها ـ وهو مراد الجرجاني من قوله فيما سبق: «في الكلام كله» ـ حتى يستفرغا وُسْعهما، وينفُضا أيديَهما من الكلام كلِّه، فإن خرج قويَّ النظم، كالحبل المشدود، لا يتيح لمستوعبه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، كان جزلًا، وإن خرج ضعيف النظم، كالحبل المُرْخى، يتيح لمستوعبه أن يقول ذلك، كان رَكيكًا، وإن غالى المجزل عاظَلَ أي أدخل الكلام بعضه في بعضه، والمُعاظَلَةُ ركاكة، وإن غالى المرك خَلَّعَ أي فك بعضه من بعضه، والتَّخْليعُ ركاكة؛ فالمغالاةُ ـ مهما تكن ـ إفسادٌ، وفيما يأتي في الفقرة الحادية والعشرين، بيانٌ آخر.

وآية ذلك اختباره بما اختبر به الجرجاني أعمال الناظمين: موازنة نظمه بنظم كلام آخر مثله، أو تغيير نظمه وموازنة حاله الأخرى بحاله الأولى، والأوَّلُ أوْلى وأنْفَذُ اختبارا؛ فلن يخلو الآخر من التكلف.

ذلك أمر الجزالة والركاكة عند القدماء معنى وغرضًا وتفسيرًا، كما أراد الجرجاني للمحدثين أن يعلموا: صفةٌ نحويةٌ تَشْتَبِهُ على من يستوضحها في غير نحو الكلام، تميز بها الشعر العربي القديم كما نبه المرزوقي فيما ذكره ولم يشرحه من أبواب عموده، وما أشبه ذلك الشعر، ولم يتميز بها سائر الكلام العربي؛ «فمِنَ الكَلامِ الجَزْلُ والسَّخيفُ، والمَليحُ والحَسَنُ، والقَبيحُ والسَّمْجُ، والخَفيفُ والثَّقيلُ، وكلُّهُ عَرَبِيٌّ»؛ إذ من الكلام ما يخرجه الرَّيْثُ والهَذَأةُ والتَّهْذيبُ، ككلام المكاتبة ـ وهي في شعراء العرب من قديم ـ ومنه ما تخرجه العَجَلَةُ والثَّوْرَةُ والإِهْمالُ، ككلام المشافهة، والجزالة أَعْلَقُ بالأوائل، والركاكة أعْلَقُ بالأواخر، ولن يَتَساوى نظما الكلامَيْن، ولا أعمالُ الناظمَيْن.

[١٥] ولقد صارت منزلة الجزالة من الشعر العربي القديم، وسيلة إلى تمييزه من غيره، ومن المحمول عليه المنحول إليه. روى الأصفهاني عن ابن الكلبي عن بعض بني الحارث بن كعب، خبرَ اجتماع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بأمية بن الأسكر وابنته في عكاظ قبيل الإسلام أو في أوله، وفيه شعر، ثم قال: «هذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي، والتوليد فيه بين، وشعره شعر ركيك غث لا يشبه أشعار القوم، وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روي»؛ فزيف الخبر بتزييف شعره بركاكته، ونثره بتوليد أحداثه.

الجَزالَةُ وَالرَّكاكَةُ عِنْدَ المُحْدَثِينَ المُسْتَوْعِبِينَ

من المحدثين قِلَّةٌ استوعبت من أمر الجزالة عند القدماء ومَنْزِلَتِها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر الجرجاني فيما سبق، كالحسن بن رشيق القيرواني، وحازم القرطاجني، و الدكتور عبد العزيز الأهواني، والدكتور محمد الهادي الطرابلسي.

[١٦] أما ابن رشيق فقد دل على ذلك قولُه: ((العرب لا تنظر في أعْطاف شعرها بأن تُجَنِّسَ أو تُطابِقَ أو تُقابِلَ، فَتَتْرُكَ لفظة للفظة، أو معنًى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسْط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدوًا من فضل صنعة الحطيئة، حُسْنَ نَسْقِهِ الكلامَ بعضَه على بعض في قوله:

فلا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ   بأن يَبنوا المكارمَ حيث شاؤوا
ولا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ   ولا يَرِموا لذاك ولا أساؤوا (...)

وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد:

فوردْنَ والعَيّوقُ مَقْعَدَ رابِئِ   الضُّرباءِ خَلْفَ النَّجْمِ لا يَتَتَلَّعُ
فَكَرَعْنَ في حجرات عذبٍ باردٍ   حصبِ البِطاحِ تَغيبُ فيه الأَكْرُعُ (...)

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطرد له، ولم ينحل عقده، ولا اختل بناؤه، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن))[٢٦].

إنه عالم ناقد وفنان شاعر، لم يغب عنه تمسك معاصريه بالبديع دون القدماء، حتى ليتركون له قَصْدًا أعمالًا من الجزالة، وتمسك القدماء بالجزالة دون معاصريه، حتى ليتركون له عفوًا أعمالًا من البديع. ثم هو يخوض في القدماء لما كان في حديثهم؛ فيذكر حسن عطف الحطيئة بالواو جُمَلَ البيت الثاني ((ما ظلمت قريع))، و((لا برموا لذاك))، و((لا أساؤوا))، على جملة البيت الأول ((ما ظلمت قريع (...) شاؤوا))، وحسن عطف أبي ذؤيب بالفاء جملة البيت الثاني، على جملة البيت الأول، وكلتاهما مبسوطتان على أرجاء بيتيهما، بأجزاء مختلفة مؤتلفة معًا، دون أن يعبأ الأول بحذو أولى المعطوفات على المعطوفة عليها، أو يتحرى الآخر قياس المعطوفة على المعطوفة عليها.

ولكنه يجد في معاصريه من يذهب إلى الجزالة مذهب القدماء؛ فيتأمل شعرهم؛ فيجده على ثلاثة أصناف:

صنف يتخذ للجزالة الألفاظ المَصونة، في موقعها، ومنه شعر بشار، كقوله:

إذا ما غضبنا غضبة مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنا حِجابَ الشَّمسِ أو قَطَرَتْ دَما

إذا ما أعرنا سيِّدًا من قبيلة ... ذرى منبرٍ صلّى علينا وسلّما[10].

وصنف يتخذ للجزالة الألفاظ المَصونة، في غير موقعها، ومنه شعر ابن هانئ، كقوله:

أصاخَتْ فقالَتْ وَقْعُ أَجْرَدَ شَيْظَمٍ ... وشامَتْ فقالَتْ لَمْعُ أبيضَ مِخْذَمِ

وما ذُعِرَتْ إلا لِجَرْسِ حُلِيِّها ... ولا رَمَقَتْ إلا بُرَى في مُخَدَّمِ[11]

وصنف يتخذ للجزالة الألفاظ المَبْذولة، في موقعها، ومنه شعر أبي العتاهية، كقوله:

يا إِخْوَتِي إِنَّ الهَوى قاتِلِي ... فَيَسِّروا الأَكْفانَ مِنْ عاجِلِ

ولا تَلوموا في اتِّباعِ الهَوى ... فَإِنَّني في شُغُلٍ شاغِلِ

عَيْني عَلى عُتْبَةَ مُنْهَلَّةٌ ... بِدَمْعِها المُنْسَكِبِ السّائِلِ

يا مَنْ رَأى قَبْلي قَتيلًا بَكى ... مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ عَلى القاتِلِ

بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُمْ سائِلًا ... ماذا تَرُدّونَ عَلى السّائِلِ

إِنْ لَمْ تُنيلوهُ فَقولوا لَهُ ... قَوْلًا جَميلًا بَدَلَ النّائِلِ

أَوْ كُنْتُمُ العامَ عَلى عُسْرَةٍ ... مِنْهُ فَمَنّوهُ إِلى قابِلِ[12]

لم يَعِبِ ابن رشيق إلا الثاني، قائلًا: «فِرْقَةٌ أصحابُ قَعْقَعَةٍ بلا طائلِ معنًى إلا القليلَ النادرَ (...) وليس تحتَ هذا كلِّه إلا الفَسادُ»[13] ـ وكأني بالمعري يقول في ابن هانئ نفسه: «رَحًى تَطْحَنُ قُرونًا»! ـ ولكنه لم ينفه من مذهب الجزالة.

لقد أفسد ابن هانئ على شعره جزالته، وأَحْنَقَ ابنَ رشيق، بما تَعمَّد فيه من الإِغْراب، ونَكَبُهُ أنْ كان في الغزل الذي تُتَخَيَّرُ فيه أَوانِسُ الألفاظ لأَوانسِ النّاسِ!

قال ابن رشيق فيما قبل ذلك من كتابه: «ليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقًا سفسافًا، ولا باردًا غثًا، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حوشيًا خشنًا، ولا أعرابيًا

جافيًا، ولكن حال بين حالين. ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته، مع البعد من السخف والركاكة))[٦٣]؛ فدل على التقاء الرقة والجزالة معًا في منزلة وَسَطٍ، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التخفيف، وعلى التقاء الرقة والركاكة معًا في منزلة طَرَفٍ، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التسخيف.

[١٧] وأما حازم القرطاجني، فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، قولُه في عقب دلالته معاصرَه الشاعرَ الذي لم يعش زمان عِزَّةِ العربية، على طرق العلم بتحسين هيآت العبارات والتأنق في اختيار موادها وإجادة وضعها ورصفها: ((بقوة التَّهَدِّي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة (...) والجزالة تكون بشدة التطالب بين كل كلمة وما يجاورها وبتقارب أنماط الكلم في الاستعمال (...) فهذه إشارة إلى ما يجب أن يتفقده الناظم ويلتفت إليه، على قدر قوته، من الجهات التي تحسن منها العبارات أو تقبح، قد أجملت الكلام فيها، وجعلتها كالإحالة على ما قدَّمته))[٦٤].

وعلى ((ما قدمته)) علق المحقق قوله: ((يظهر أن تفصيل ذلك كان في القسم الأول المفقود من هذا الكتاب)).

أما اتخاذ ((شدة التطالب)) سبيلًا إلى الجزالة، فسديد جدًا؛ فما هي إلا أن يحرص الشاعر في خلال إبداله وترتيبه وحذفه وإضافته، على اختيار المتناسب المتماسك، الذي يخرج — وهذا معنى عربي قديم سبق في الفقرة الثانية عشرة ذِكْرُه — كجسمه ((في صفة النبي ـ صلى الله عليه، وسلم! ـ : بادن متماسك؛ أراد أنه مع بدانته متماسك اللحم ليس بمسترخيه ولا منفضخه، أي أنه معتدل الخلق كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضا))[٦٥].

وأما ((تقارب أنماط الكلم في الاستعمال))، فقد سبق له أن زاده بيانًا في خلال حديثه عن تلاؤم الكلام الذي يقع على أنحاء، قائلًا: ((منها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال؛ فتكون الواحدة في نهاية الابتذال، والأخرى في نهاية الحوشية))[٦٦]؛ فلم يَعْدُ ما أَخْنَقَ ابن رشيق على ابن هانئ، إلا أنَّ ما يقع في غير موقعه، هو بعضُ الكلام دون بعضٍ عنده، وهو الكلامُ كلُّه عند ابن رشيق، وكلاهما يفسد على الشعر جزالته، ولا ينفيها، وإن كان ما نبه عليه حازم أشد إفسادًا؛ فإن الناس يتفاوتون في رؤية الكلام واقعًا كلُّه في غير موقعه، على حسب أعرافهم؛ ((فإن الوَحْشيَّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس، كما يفهم السوقيُّ رَطانةَ السوقيِّ))[٦٧]، فأما أن يخرج مُلَمَّعًا بعضُه من وادٍ وبعضُه من آخر، فمِمّا يُتَفَكَّهُ به[٦٨]!

وفيما ذكره الجرجاني في كتابه ((أسرار البلاغة))، من ((رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شِرْكٍ من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه))[30]، إشارة إلى ((تقارب أنماط الكلم في الاستعمال))، تؤيد رأيي السابق؛ إذ لم تجز فيه عنده لا جزالة ولا ركاكة!

[١٨] وأما الأهواني فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، ومنزلتها من الشعر العربي القديم، استيعابَه لأمر الركاكة ومنزلتها من شعر ابن سناء الملك.

لقد فلسف الظاهرة بقوله: ((إن الركاكة في الأساليب أثر من آثار الازدواج اللغوي بغير شك. وينبغي أن نفرق بين الركاكة وبين العامية، وأن نفرق بينها أيضًا وبين السهولة؛ إذ إن الركاكة تنشأ عن عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها، لافتقاره إلى معرفة أصولها، وإدراك أسرارها، ولقلة بصره بالفروق الدقيقة بين دلائل المفردات ومعاني التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها. إن ما نسميه بالركاكة ليس بشرط أن يكون خطأ في نحو اللغة واستعمال مفرداتها فيما وضعت له، وإنما هو في العجز عن التصرف باللغة بحيث تؤدي الأفكار وتعبر عن الإحساس تعبيرًا مرهفًا، وبحيث يكون تأليفها محكمًا متينًا، ونظمها متساوقًا ومنسجمًا. إن المثل الواقعي للركاكة هو ما يحسه ابن اللغة فيمن يكتب أو يتكلم بلغته من أبناء اللغات الأجنبية، حين يكون هذا الأجنبي قد درس اللغة بعيدًا عن وطنها الأصلي. والركاكة بهذا المعنى لا يحسها إلا من كان حظه من إتقان اللغة عظيمًا، بأن يكون قد ولد في بيئة تتكلمها أو يكون قد طالت قراءته لنصوصها الممتازة. فإن استطاع الجمع بين الأمرين، وكان ذا موهبة لغوية وذوق وحس في التفريق بين جرس الكلمات وتنغيم الجمل وموسيقية العبارات كان الحكم الأول في القضية (...) فالعامية لغة مستقلة لها أساليبها وألفاظها ولها بلاغتها كما أدرك ذلك ابن خلدون قديمًا. فإن تسربت العامية إلى اللغة المعربة تسربًا غير طبيعي، منشؤه ضعف شاعر العربية، حدثت الركاكة (...) على أن الركاكة في الشعر لا تجيء دائما من الضعف اللغوي ومن جهل أساليب العربية وضعف التمييز بين الجيد والرديء منها. وإنما تجيء أحيانا من ضعف الحس الموسيقي عند الشاعر؛ فالجزالة ذوق ومعرفة باللغة معًا. والتقصي يثبت أن حظ المتأخرين منها كان أقل من حظ المتقدمين من الشعراء، ولعل ابن سناء الملك يعتبر خيرًا من كثير من معاصريه والتابعين له فيما يتصل بالجزالة))[31].

ما وجوه التصرف باللغة بحيث يخرج التعبير مرهفًا ومتينًا ومنسجمًا، إلا أقسام أعمال الناظم التي استنبطناها من نص الجرجاني، وأجرينا عليها أعمال المُجْزِلِ والمُرِكِّ، وما العجز عن تلك الوجوه إلا الركاكة، ولا القدرة عليها إلا الجزالة.

وليس الحِسُّ الموسيقي الذي جَعَلَ العجز عنه ركاكة والقدرة عليه جزالة، وجها من تلك الوجوه، بل اختبارٌ من اختباراتها؛ فاللغةُ أصواتٌ تؤلف منفردةً ومجتمعةً كَلِماتٍ

وجُمَلًا وفِقَرًا ونُصوصًا؛ فإذا مَرَّ المتكلم في التعبير إبدالًا وترتيبًا وحذفًا وإضافة، ساعده إلفه على إصابة ما يأخذ وما يترك فيُجْزِلُ إذا كان أَلِفَ الجَزْلَ، أو ساعد ناقده على تخطيئه فيما أخذ وما ترك فأَرَكَّ إذا كان أَلِفَ الرَّكيك. ولا يُعترض على ذلك بأنه كاتب؛ فإنما اللغة المنطوقة، ثم إن الكاتب يقرأ على أذنه ما كتب على ورقته، ليستفيد مساعدة ذلك الحس الموسيقي، وهي وصية أبي تمام لتلميذه البحتري من قديم[33].

ولقد ألقى الأهواني كلمته في اختلاف الركاكة والسهولة (الوضوح)، ومضى دون أن يزيدها بيانًا. وإنها لكلمة سديدة جدًّا؛ إذ تتعلق السهولة بقوة النظم (جزالته) التي تُعَلِّقُ مُسْتَوْعِبَهُ بدقائق كل عمل من أعماله، لا بضعفه (ركاكته) التي تعوق استيعابه. وسيأتي لهذه المسألة في الفقرة الحادية والعشرين، مزيد بيان.

أما تسرب كلام اللهجة إلى كلام اللغة، فمما يفسد على الشعر جزالته ـ وإن لم يَنفها ـ ويَدَعُهُ سُخْرَةَ المُتَمَثِّلينَ؛ إذ هو من عدم «تقارب الكلم في الاستعمال» الذي عابه القرطاجني، ومن عدم وقوع الكلم في مواقعها، الذي أحنق ابن رشيق على ابن هانئ. ولقد كان من آثار اشتغال ابن سناء الملك بشعر اللهجة، أن «غلب على نظمه في القريض (شعر اللغة) استعمالُ اللفظ العامي، وفساد المعنى، واختلاف تركيبه، حتى أخرجوا له من ذلك ومما لا يجوز استعماله في العربية، قدرا كثيرًا»[34].

ولقد رأى الأهواني في غلبة المنطق النحوي على نظم الكلام لافتقاد سليقة اللغة وإلف قراءة الكتابات النثرية في العلوم الإسلامية واللغوية المدرسية وما أشبهها ثم الاشتغال بها ـ سر ركاكة شعر المتأخرين[35]، الذين رأى فيما سبق، أن التقصي يثبت أن حظهم من الجزالة كان أقل من حظ المتقدمين. وعلى رغم أن ابن سناء الملك خيرٌ حظًّا عنده من كثير من معاصريه وتابعيه، لم يستطع أن يكتم من الركاكة، ما تجلى له في قوله:

صَحَّ مِنْ دهرنا وفاةُ الحَياءِ	فليطُلْ منكما بُكاءُ الْوَفاء
ولْيَبِنْ ما عقدتماه من الصبـ	ـر بأن تُحْلُلا وِكاءَ البُكاء
وأهينا الدموع سَكْبًا وهَطْلًا	وهَبا أنهنَّ مثل الهَباء
وامنحا النوم كل صَبٍّ ينادي	مَنْ يُعير الكَرى ولو بالكِراء
ليست العينُ منكما لي بعينٍ	أو تعاني حمْلًا لبعض عَنائي[36]

فقد أفسد نظمها بما التزم في جملها وفي روابط جملها: من تكرار التركيب الإضافي نفسه ثلاث مرات متقاربات «وفاة الحياء، بكاء الوفاء، وكاء البكاء» ـ ومن تكرار تركيب الجار والمجرور نفسه مرتين متشابهتين «منكما، منكما» ـ ومن قبح قوله «وليبن

ما... بأن تحللًا))، و((وهبا أنهن مثل الهباء))، دون أن يبين وجه القبح. والحقيقة أن ما قدمه في غلبة المنطق النحوي، بيان جلي لسر قبح الأبيات كلها؛ فما هي إلا تراكيب قضائية صاغها قاض لم ير المقضي عليه لكيلا تشوب قضاءه شبهة عطف عليه! ولقد أحنقه تمسك ابن سناء بالبديع الذي لم يمر بنا هنا من قبل؛ فزمانه زمانه.

[١٩] أما الطرابلسي فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، ومنزلتها من الشعر العربي القديم، استيعابُه لمنزلتها من شعر أحمد شوقي، ولمدخل الركاكة إليه.

لقد اعتذر عن إخلاله بمقتضى طبيعة بحثه الوصفي التفسيري التي لاتناسبها الأحكام المعيارية، بعجزه عن كتمان ما وجد في تعابير شوقي، من جزالة ومن ركاكة.

لقد دعا الجَزْلَةَ ((قَويمَةً))، ولم يُطل حديثها؛ فشوقي مشهور بها ((لا يعدم الناظر في قصيدة من قصائده أثر الثقافة المتينة والفن الخلاق))[٣٦]، وإن فسرها باعتماده التصوير، كما في قوله:

تَنْـــــمَعُ الأَرْضُ قَــيْصَرًا حــينَ تَــدْعو ... وَعَقـــيمٌ مِــــنْ أَهْـــلِ مِصْرَ للــــدُّعاءُ

الذي صور فيه شوقي الدعاء الذي ليس وراءه خير بالدعاء العقيم؛ فنبه الطرابلسيُّ على أن مثل هذا التصوير هو الذي حمى جزالة تعابيره الغالبة[٣٧]، وهو فهم طريف؛ إذ لولا الوصف بالعقم وتقديمه وتأخير الدعاء إلى القافية وتعليقه به، لاضطرب تركيبُ عَجُزِ هذا البيت. وما تلك إلا الإبدال والترتيب من أعمال الناظم المُجْزِلِ.

ودعا الركيكة ((سَقيمَةً)) وأطال الحديث فيها؛ لأنها ((عوارض نادرة كالشذوذ الذي يؤكد القاعدة، يدرس لتوثق المعرفة بالقاعدة لا به))[٣٨]، وفسرها بإيفائه حق بعض قيود الكلام، كما في قوله:

قَــذائِفُ تَخْشــى مُهْجَــةُ الشَّــمْسِ كُلَّــما ... عَلَــتْ مُصْــعِداتٍ أَنَّهــا لا تُصَـــوَّبُ

الذي أراد فيه وصف القذائف بقوة الانفجار وارتفاع المدى، حتى إن الشمس لتخشى أن تصيبها إذا أخطأت مرماها؛ فضاقت فسحة البيت عما أراد.

وكما في قوله:

وَدانــى الهَــوى مــا شــاءَ بَيْنــي وَبَيْنَهــا ... فَلَــمْ يَبْــقَ إِلّا الأَرْضُ وَالأَرْضُ تَقْــرُبُ

الذي أراد فيه فكرة تقارب الحبيبين روحًا ومكانًا، بانطواء الأرض الفاصلة بينهما؛ فلم تمكنه القافية. وما تلك إلا الإبدال والحذف من أعمال الناظم المُرِكِّ.

ثم قال: ((إن تعابير شوقي لم تخل من سوء، ولكننا نقر ـ مع ذلك ـ أن ظاهرة سوء التعبير ليست شائعة في (الشوقيات) بالقدر الذي يضعف قيمة أشعارها؛ فقد بقيت تعابير الشاعر محتفظة بجزالتها في الجملة، وبقيت تمثل في نظرنا عاملا قويا من العوامل الضامنة لوصول رسالة الشاعر إلى القارئ، ومن وسائل التعجيل بإيصالها، وإن لم تسلم أحيانا في قنوات الإبلاغ، من العوارض التي تغير وجهة الرسالة))[٧٧].

لكأن الطرابلسي بدراسته للشوقيات بعدما تقدم من دراسة الأهواني للسنائيات، يُتْبِعُ السَّيِّئَ الْحَسَنَ، ويدل على من أخذ الشعر بحقه؛ فرده سيرته الأولى، بعدما حيدَ به عن جادَّتها.

ولقد نبه أخيرًا هنا، على تعلق السهولة (الوضوح) بالجزالة، على ما سبق أن اسْتَنبطنا من كلام الأهواني الذي سيأتي له في الفقرة الحادية والعشرين، مزيد بيان، لم يمنعه من ذلك أن تَجْزِيلَ الكلام (نسبته إلى الجَزالة، وهو غير الإِجْزال الذي هو اتِّباع الجزالة)، وتَرْكِيكَهُ (نسبته إلى الرَّكاكة، وهو غير الإِرْكاك الذي هو اتِّباع الرَّكاكة)، حُكْمانِ مِغْيارِيّانِ ـ سبق أنهما عند الجرجاني، من صواب النظم ومن خطئه ـ وعيًا منه لقيمة هذا النمط من الأحكام ولزومه لكل ناظر في الكلام .

الْجَزالَةُ وَالرَّكاكَةُ عِنْدَ الْمُحْدَثينَ غَيْرِ الْمُسْتَوْعِبينَ

ومن المحدثين كذلك، كَثْرَةٌ لم تستوعب من أمر الجزالة عند القدماء ولا منزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر فيما سبق، تستعصي على المحاورة أسماؤهم؛ فتجمعهم فيما يأتي دعاواهم .

[٢٠] الدَّعْوى الأولى: أَنَّ الْجَزالَةَ وَالرَّكاكَةَ مِنْ صِفاتِ الْكَلِمَةِ الْمُنْفَرِدَةِ.

وهي دعوى ينبغي ألا نقف عندها طويلًا، بعد أن جعلها الجرجاني من مسائله المهمة التي أدار عليها دلائله، واستفرغ في تفنيدها وُسْعَهُ، وقال فيها أصله السابق ذكره: ((ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة، مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب))[٧٨].

إن المتأمل لَيَطَّلِعُ على أنَّ منَ المحدثين، منْ علق الكلمة بالكلام، من حيث لا وجود له إلا بها؛ فقضى بوجوب فصاحة الكلمات المنفردات ((لأنها أجزاء الكلام؛ فتعين أن تكون الأجزاء فصيحة ليكون مجموع الكلام فصيحًا))[٧٩]، وربما كانت هذه العبارة الأخيرة، من جري ابن عاشور في مضمار قول المرزوقي السابق ذكره: ((عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت

الجملة هجينًا))[٨٢]، الذي لم نستبعد أن يكون الجرجاني قد عناه بتفنيده، ضمن ما فند؛ إذ لا يتعلق بالكلمة المنفردة إلا مقدار ما بين أصواتها من تآلف وتخالف، وصياغتها من بابها صوابًا وخطأً، ومقدار شياعها في الاستعمال أنسًا ووحشة، وهي كلها مسائل من غير سبيل نظم الكلام ولا جزالته ولا ركاكته.

ربما نصر الدعوى اتحادُ الفصاحة والبلاغة عند الجرجاني، وانفصالُهما عند غيره[٨٣]، ووقوع الفصاحة عند غيره في الكلمة المنفردة[٨٤]، وهو ما اجتهد ابن عاشور في الجمع به بين مقالة الجرجاني في الفصاحة ومقالة غيره، منتهيًا إلى أن لا خلاف بين البلاغيين في أن الكلمات المنفردات تتفاضل في فصاحتها، وإنما اكتفى الساكتون عنها بحصول الفصاحة للكلام على وجه العموم[٨٥]، على حين نبه الجرجانيُّ نفسُهُ وكأنه يرى ابن عاشور من وراء تسعة قرون، على أنه ((ليس لهذا الخلاف ضرر علينا، لأنه ليس بأكثر من أن نعمد إلى (الفصاحة)، فنخرجها من حيز (البلاغة والبيان)، وأن تكون نظيرة لهما، وفي عداد ما هو شبههما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك، مما ينبئ عن شرف النظم، وعن المزايا التي شرحت لك أمرها، وأعلمتك جنسها ـ أو نجعلها اسمًا مشتركًا يقع تارة لما تقع له تلك، وأخرى لما يرجع إلى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان. ليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده))[٨٦].

لا أثر لذلك عند الجرجاني فيما أمه واشتغل به؛ إذ قد حصر مكمن الإعجاز الذي هو بصدده، في نظم الكلام الذي الجزالة من صفاته على النحو السابق تفصيله . ولكن على رغم هذا الحصر قال ابن عاشور فيما بعد ذلك من شرحه لكلام المرزوقي: ((قد رأيتُهُمْ يقابلون الجزالة مرة بالرقة، ومرة بالركاكة، ومرة بالضعف، ومرة بالكراهة؛ فَتَحَصَّلَ لنا من معنى الجزالة، أنها كون الألفاظ التي يأتي بها البليغ الكاتب أو الشاعر، ألفاظًا متعارفة في استعمال الأدباء والبلغاء، سالمة من ضعف المعنى، ومن أثر ضعف التفكير، ومن التكلف، ومما هو مستكره في السمع عند النطق بالكلمة أوالكلام))[٨٧].

إنه لم يعد مقبولًا مع قدح الجرجاني في المحدثين الذين يتداولون ما لم يستوعبوا، أن نجمع بين مقابلاتهم المضطربة، لنستخرج معنى نتمسك به. ولقد سبق في هذا البحث ويلحق، نقد لها كاف؛ إذ إن اعتماد المقابلة وما إليها من وجوه الإبدال، منهج سديد في نفسه، بل هو عند الجرجاني كما سبق، أحد أعمال الناظم، وأحد اختيارَي الناقد.

ولن نزال نجد مثل هذه العبارات الصريحة في نصر فكرة وصف الكلمة المنفردة بالجزالة أو الركاكة، ما بقي في المحدثين من يرى أن: ((ركاكة الجزء ركاكة الكل))[٨٨].

[٢١] الدَّعْوى الثانية: أَنَّ الجَزالَةَ ضِدُّ السُّهولَةِ والرِّقَّةِ.

كأنما أراد بعض العلماء القدماء أن يؤلف قلوب الخصوم من أصحاب جرير وأصحاب الفرزدق، وأن يتقي شر فتنة أطلت بقرنها ولسعت الأعمى؛ فتكلف لكلٍّ صفةً تميزه من الآخر، وترضي أصحابه، وأورثنا فتنة علمية مستمرة:

قال الأصفهاني: ((الفرزدق مُقَدَّمٌ على الشعراء الإسلاميين، هو وجرير والأخطل، ومحله في الشعر أكبر من أن ينبه عليه بقول، أو أن يدل على مكانه بوصف؛ لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم، ويعلمان تقدمه بالخبر الشائع، علمًا يستغنى به عن الإطالة في الوصف، وقد تكلم الناس في هذا قديمًا وحديثًا، وتعصبوا واحتجوا، بما لا مزيد عليه، واختلفوا، بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة، في أيهم أحق بالتقديم على سائرها، فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل، لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر، ولا له مثل ما لهما من فنونه، ولا تصرف كتصرفهما في سائره، وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما = وهم في ذلك طبقتان: أما من كان يميل إلى جزالة الشعر، وفخامته، وشدة أسره، فيقدم الفرزدق، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين، وإلى الكلام السمح السهل الغَزِل، فيقدم جريرا))[61]:

أوائلُ الفتنةِ المتقاةِ باديةٌ، وصفاتُ المدح المتكلَّفةُ التَّضادُّ أو الاختلاف، المُقَسَّمَةُ بالعَدْلِ؛ متى انتبهنا إلى زيادة المعطوف من صفات الفرزدق، لبيان المعطوف عليه، وتفصيل المعطوف من صفات جرير المتعاطفة فيما بينها بيانا، لإجمال المعطوف عليه:

الفرزدق	جرير
جَزالةٌ	سَماحةٌ
فَخامةٌ	سُهولةٌ
شِدّةُ أسْرٍ	غَزَلٌ

ليس في تشابه هذه الصفات المتواليات عند كلٍّ منهما، غيرُ إخلاص الجزالةِ للفرزدق الذي يَفرح أصحابُه بأنه لولا حِفْظُه لذهب ثلث اللغة، والسهولةِ لجرير الذي يَفرح أصحابُه بأنه لولا عِفّتُه لأبكى العجائز = ولا في اضطراب هذه الصفات المتقابلات، غيرُ إصلاح ذاتِ البَيْنِ، الذي يُتَحَمَّلُ فيه من أصول كثيرة، منها هنا مُراعاةُ الاصْطِلاحِ والمُقابَلَةِ العِلْمِيَّيْنِ[62]!

قال المرزباني: ((كان عامرٌ يُقَدِّمُ جَريرًا، ويَحْتَجُّ على الفرزدق بما عَقَّدَ فيه من شعره، نحو قوله:

فَلَوْلا أنَّ أُمَّكَ كانَ عَمّي أباها	كُفيتَ أَخْرَسَ بالنَّشيد

ومثل قوله:

وَمَــــا مِثْلُـــــهُ فِي النَّـــــاسِ إِلَّا مُمَلَّكًـــــا   أَبُـــو أُمِّـــهِ حَـــيٌّ أَبُـــوهُ يُقَارِبُـــهُ

وأشباه ذلك. فقال كردين: أنت يا أخي لا تعقل، سَقَطُ الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجالُ فيه عُقولَهَا حتى يَستخرجوه، وسَقَطُ جريرٍ عِيٌّ، نحو قوله:

والتَّغْلَبِيُّ جِنازَةُ الشَّيطانِ»[illegible].

لقد غالى الفرزدق في الإجزال حتى عاظَل، مُغالَياتٍ أُولِعَ بتفنيدها عليه ابنُ أبي إسحاق النحويُّ الإمام، حتى هجاه الفرزدق واستفزه إلى تأويلها؛ فبدت لأصحابه من مفاخره؛ فتمسكوا بها على النحو السابق، وهي ـ لو علموا — من نزغاته التي رغب بعض الباحثين في دراستها دراسةً نفسية[illegible]، ولم يكن ينبغي للعلماء أن يجاملوهم بالسكوت على أنها من الإجزال؛ فقد تَعَثْكَلَتْ فيها أعماله، كما تتعثكل خيوط النسج؛ فانقطعت بالمتلقي بعض المراحل إلى الفهم؛ فغمضت عليه[illegible]؛ فدلت على اضطرابٍ نفسي، لا على خصبٍ عقلي. ولقد ميز الجرجاني في «أسرار البلاغة»، هذا الذي سماه «المُلَخَّص»، من ذاك الذي سماه «المُعَقَّد»، بقوله: «المعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يُعثر فكرك في متصرفه، ويُشيك طريقك إلى المعنى، ويوعِر مذهبك نحوه، بل ربما قسَّم فكرك، وشعَّب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصَّل، وكيف تطلب. وأما المُلَخَّص فيفتح لفكرتك الطريق المستوي ويمهِّده، وإن كان فيه تعاطفٌ أقامَ عليه المَنار، وأوقد فيه الأنوار، حتى تسلكه سلوك المُتَبَيِّنِ لِوِجْهَتِهِ، وتقطعَه قَطْعَ الواثق بالنُّجح في طِيَّته، فَتَرِدَ الشَّريعةَ زَرْقاءَ، والرَّوضةَ غَنَّاءَ، فتنال الرِّيَّ، وتَقْطِفَ الزَّهر الجنيَّ. وهل شيءٌ أحلى من الفكرة إذا استمرَّتْ وصادفت نهجًا مستقيمًا، ومذهبًا قويمًا، وطريقة تنقاد، وتَبَيَّنَتْ لها الغايةَ فيما تَرْتاد»[illegible]، وكأنما أراد أصحاب الفرزدق.

ولقد رغبت مرة في أن أتبين حقيقة هذه الدعوى؛ فكتبتُ لتلامذتي[illegible]، غيرَ مُتكلفٍ، هاتين الجملتين:

- جاء أخوك الذي رأيته عندك مسرعًا على رغم مرضه إلينا.
- على رغم مرضه جاء إلينا مسرعًا أخوك الذي رأيته عندك.

ثم أخبرتهم أنني لم أرد محض المجيء، على رغم أنه لُباب الفكرة، بل احتمال المرض. ثم سألتهم: أيتهما أسهل (أوضح)، وأيتهما أصعب (أغمض)؟ فاختلفوا، غير أنني ومن له بهذا علم منهم ـ وكنا الأكثر ـ رأينا الآخرة أسهل.

إننا نمكث في الجملة الأولى لنفهم المعنى المراد، وقتا أطول مما نمكثه في الجملة الأخرة، وإن اتفقت بينهما الكلمات؛ إذ نطلب الفائدة في غير موطنها، حتى إذا ما خاب مسعانا، طلبناها في موطنها، ولكن بعد فوات الأوان!

ولم تكن صعوبة الجملة الأولى إلا من ضعف الترتيب الذي هو أحد أعمال المُرِكّ، ولا سهولة الجملة الآخرة إلا من قوة الترتيب التي هي أحد أعمال المُجْزِل.

ولقد كان فيما سبق من تفريق الأهواني بين الركاكة والسهولة (الوضوح)، وجمع الطرابلسي بين السهولة والجزالة، وكلاهما تنبيه على تعلق الصعوبة (الغموض) بالركاكة - بيانُ طرف مما اشتمل عليه المستوعبون. ولكن الخالفين الذين جعلوا الفرزدق «يَنْحِتُ مِنْ صَخْرٍ»، وجريرا «يَغْرِفُ مِنْ بَحْرٍ» - ملأوا الجزالة من صعوبة الصخر، والسهولة من سلاسة الماء، حتى استفحل لدى كثير من الدارسين الأمر؛ فصارت الجزالة والصعوبة شيئًا واحدا، والسهولة شيئًا آخر[97]. بل قد وجدتُ بعض شُداة الشعر المعاصرين، يبادر نُقّادَهُ بالسخرية من نفسه قائلًا:

لكِنَّ نَظْمَكَ فَرْدٌ في سَجَاجَتِهِ	وَشِعْرَكَ الْفَتَّ أَمْرٌ غَيْرُ مُحْتَمَلِ (...)
لا أَنْتَ تَغْرِفُ مِنْ بَحْرٍ فَتَرْشُفَهُ	أَوْ أَنْتَ تَنْحِتُهُ جَزْلًا مِنَ الْجَبَلِ[98]!

ولم تكن مقابلة الجزالة بالرقة[99]، إلا أخذا فيما سبق، ولكنها أُكِّدَتْ بمقابلة الأغراض. قال ابن الأثير في الألفاظ: «الجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك»[100]؛ فلم يميز الجزالة من الرقة بأوضاع النظم كما علمنا الجرجاني، بل بأُطُرِ الأغراض، وهذا من إهمال الواجب الذي استمرَّ في الخالفين[101]. والرجل متهم بعدم استيعاب مقالات البلاغيين من قبله، وباضطراب تصور مسائل علوم البلاغة من جراء ذلك[102].

ولقد سبق لنا أن حرَّرنا عند القدماء أصحاب المصطلح، التقاءَ الجزالة والسهولة والرقة حين تكون هذه خِفَّةً، وافتراق الجزالة والرقة حين تكون هذه سُخْفًا - بما يفند هذه الدعوى الثانية.

[٢٢] الدَّعْوى الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّجْزِيلَ حُكْمٌ انْطِباعِيٌّ (ذَوْقِيٌّ).

في الباب الخامس من كتاب «الأسلوب»، درس الأستاذ الشايب «صفات الأسلوب» التي كانت عنده ثلاثًا أُصولًا: الوضوح، والقوة، والجمال[103]، لم تبعد عنها الجزالة؛ فجاء كلامه قديم الباطن حديث الظاهر؛ فأثار عليه نقادًا صدمتهم المفارقة العجيبة؛ «فالأسلوب عنده – من حيث هو سمة للإبداع الأدبي – خاضع لرسوم

البلاغة التقليدية إلى حد كبير، بل إنه خاضع لهذه الرسوم خضوعًا تامًا رغم العبارات المتشحة بالعصرية التي عبرت عن ذلك، أما من حيث هو مطلب للنقد الأدبي فلا مدرك له إلا الانفعال ولا سبيل إلى وصفه إلا هذه الكلمات الانطباعية الخالصة))[٣٠٣] ـ ومنها الجزالة[٣٠٤] ـ ((وهي عبارات لا يمكن أن نخرج منها بتحديد واضح ملموس يؤكد مفهوم الرجل للأسلوب وخصائصه))[٣٠٥].

لقد أقبل أولئك النقاد على كتاب ((الأسلوب))، وقَدَّروا أن يُعَلِّقَهُمْ بِبِنى النِّظام المستولية على النصوص وملامح المُجاوزة الصادعة للنظام، ناقدٌ مأخوذ بشروط منهج النقد الأدبي الحديث التي توَصَّل لمقولات النقد في نظرية العلم؛ فعثروا بأديب قَدامِيٍّ مُقَلِّدٍ يلوك مقولات بلاغية بالية، مِنْ مِثْلِ ((الجَزالَةِ))، فرارا مما لا قدرة له على رؤيته، كفرار سلفه بقوله: ((إِنَّ مِنَ الأَشْياءِ أَشْياءَ تُحيطُ بِها المَعْرِفَةُ، وَلا تُؤَدّيها الصِّفَةُ))[٣٠٦] أو بقوله: ((ما يَخْتارُهُ النّاقِدُ الحاذِقُ قَدْ يَتَّفِقُ فيهِ ما لَوْ سُئِلَ عَنْ سَبَبِ اخْتِيارِهِ إِيّاهُ، وَعَنِ الدَّلالَةِ عَلَيْهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ الجَوابُ إِلّا أَنْ يَقولَ: هكَذا قَضِيَّةُ طَبْعي))[٣٠٧]، واستطالةً بما لا يملك، كاستطالة سَلَفِهِ بقوله:

عَـزَّ عِلْـمُ الـذَّوْقِ أَنْ يَعْرِفَـهُ   عـالِمٌ جانَبَنـا مـا اخْتَرْتَـمـا[٣٠٨]!

— وإلا على نمط من تفسير نصوص الأدب، من مثل ((تَجْزيلِ الألفاظ))، تتجلى فيه هذه الخصال المتعاقبات الحدوث:

١ أنه يَخُصُّ صاحبَهُ، ولا يُتَعَلَّمُ منه.

٢ أنه يُتيح مخالفته على نحو واسع، إلى ما ربما ناقضه.

٣ أنه لا يمكن اختباره أصلًا.

٤ أنه لا يمكن تخطيئه هو أو غيره مما على نمطه.

ينبغي أن يُضاف – إمّا استقام لصاحبه ـ إلى نصوص الفن، لا إلى أعمال العلم[٣٠٩]!

وعلى رغم ما ذهب إليه باحثون في مسائل علم النفس، من دقة أحكام المُهَيَّجين وجودة عمل عقول الواجدين (الطِّراب)[٣١٠]، وفي نظرية الأدب، من تكامل أحكام الذوق وأحكام الاستنتاج المعلل[٣١١]، وفي علم الأسلوب، من دقة أحكام ذوق الخبير[٣١٢] ـ كفانا عبد القاهر الجرجاني فيما سبق مؤونة اقتصار بعض مُجَزِّلي الكلام على أحكام أذواقهم؛ إذ كان وهو ابن القرن الهجري الخامس، ممن يؤمنون برجوع تلك الأحكام إلى أوضاع نظم الكلام ـ فافتضحت لمُتَّهِمي التَّجْزيلِ بذلك، حالٌ من عدم استيعاب مقالات البلاغيين السابقين، كحال ابن الأثير الآنفة.

[٢٣] اَلدَّعْوى الرّابِعَةُ: أَنَّ الجَزالَةَ ضِدُّ الحَداثَةِ.

إنما تَسَمّى قُدَماء العلماء والفنانين بقَدامتهم، ومُحْدَثوهم بحَداثتهم، ولكن لَمّا كان بين المتعاصرين من هؤلاء أو أولئك على رَغْمِ تَعاصُرِهِمْ، مَنْ يَحِنُّ إلى الماضي ويعمل له، ومن يشتغل بالحاضر ويعمل له، ومن يطمح إلى المستقبل ويعمل له ـ تَسَمّى أَوَّلُهُمْ قَداميًّا، وثانيهم حَداثيًّا[113]، وآخِرُهم مُسْتَقْبَليًّا[114]، حتى إذا ما خَلَفَ عَصْرٌ عَصْرًا، استمسك القداميُّ الآخِر بالقداميِّ والحداثيِّ الأَوَّلَيْنِ سلفًا له واطَّرح غيرهما، واستمسك الحداثيُّ الآخِر بالمستقبلي الأول واطَّرح غيره، وبقي المستقبلي الآخِر مُنْبَتًّا لا سلف له[115].

ولم يعدم أمرُ الجزالة عند المحدثين المتعاصرين، تلك الطوائفَ الثلاث؛ فقد انتبهوا للعربية وقد اتسعت فيها بين اللغة واللهجة، هُوَّةٌ من التطور، خَيَّلَتْ لهم مُتَّسَعًا قادمًا في رحم الغيب[116]:

أما القداميون الذين قصروا الجزالة على القدماء[117]؛ فأثاروا غيرهم إلى الحديث عن «فِتْنَةِ اللُّغَةِ النَّقيَّةِ» التي أحدثها الصراع الشعوبي والتناحر المذهبي كلاهما، فحرمت العربية الصدق، وعاقتها عن التطور، وشغلت اللغويين عن مباحث مفيدة في دقة العبارات، وفي اختلاف الصيغ المتشابهة الظاهر[118]، وإلى الحديث عن عجز مقولات النحو القديمة ـ وما الجزالة فيما رأيت، إلا إحداها ـ عن استيضاح النشاط اللغوي، وأن «كل ما صنعه باحثٌ عظيم في القرن الخامس (الجرجانيُّ)، هو أنه أخذ يطبق هذه النظرية أو يطبق المقولات النحوية المتعارفة، تطبيقا ينم عن ذكاء»[119]، وإلى الحديث عن الأعرابي صانع العالم، ولغتِهِ «اللاتاريخية» الحِسِّيَّةِ، وهيمنة الذوق القديم على الذوق الحديث[120]، وإلى الحديث عن مشكلة الفصاحة التي كان ينبغي أن تكون عونا على المشكلات اللغوية، فجعلها «أهلُ الصَّفاءِ اللغويِّ»، أهمَّها[121]، وإلى الحديث عن وخامة عاقبة الجزالة، فيما قصت فدوى طوقان من آثار الإجزال الذي حملها عليه أستاذُها وأخوها إبراهيمُ الشاعرُ الكبيرُ، قائلةً: «لقد نما وتضخم اهتمامي بالتركيب القديم للعبارة الشعرية، إلى حد كانت أفكاري ومشاعري تنصرف معه عن التجربة الحقيقية، إلى الاهتمام بتركيب العبارات وانتقاء الكلمات ذات الطنين والدوي:

وَلِي عِنْدَكُمْ قَلْبٌ غَريبٌ مُطَرَّحٌ   لَدى بابِكُمْ يُمسي وَيُصْبِحُ في الْكَرْبِ
طَليحٌ إذا اسْتَنْهَضْتُهُ كَبَّ أَبْلَهُ   تَحامَلَ ثُمَّ انْكَبَّ مِنْ أَلَمِ الْحُبِّ
فَلا تَسْأَلوني عَنْ بُكائي فَإِنَّما   بُكائِيَ يا أَحْبابَ قَلْبي عَلى قَلْبي
سَلامٌ عَلَيْهِ إِذْ يَموتُ صَبابَةً   وَإِذْ أَنْتُمُ لاهونَ عَنْ قَلْبِيَ الصَّبِّ

(...) كل هذه كنت أحسها سَدًّا يقف دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم. كنت أحس التصنع يدب في ثنايا أشعاري ويلصق بها صفة الجفاف واليبوسة. ولم أكن أعرف كيف أبتعث في قصيدتي النُّسغ المفقود، ولا من أين أستمده. كنت أنحت من صخر فعلًا، وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي، ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدتي بسهولة ويسر، ولم أهتد إلى أصالتي إلا يوم هداني الدكتور مندور إلى أدب المهجر))[١٢٢].

وأما الحداثيون الذين عافوا الجزالة واستمسكوا ـ أو كادوا ـ بالركاكة التي اتُّهموا بها وحُبسوا فيها[١٢٣]؛ فأثاروا غيرهم إلى الحديث عما في مصطلح ((الحداثة)) من قبول لشيء من الضياع، وما في مصطلح ((القدامة))، من مجاهدة لذلك الضياع[١٢٤]، وإلى الحديث عما يجني به على الكلام، اطِّراحُ الفصاحة، من ضعف وفُسولة، وأنه ((صحيح أن (الفصاحة) وحدها لا تصنع فنا، ولكن البعد عن الفصاحة ـ بدون صفة أخرى في الكلام ـ هو من الفن أبعد))[١٢٥]، وإلى الحديث عما في استبدال فصاحةٍ حديثةٍ، بفصاحةٍ قديمةٍ، من فوضى إذا انفتح بابها لم يَقَرَّ للعربية قَرارٌ[١٢٦]، وإلى الحديث عمَّن أخذ مادة شعره من معالم الحياة العادية المكررة المبتذلة، ثم وصلها ((باللغة التي كانت تصف بعر الآرام دون أن تفقد بهاءها وفخامتها))[١٢٧]، وإلى الحديث عن وخامة عاقبة الركاكة، فيما وجد الحساني حسن عبد الله، في مثل قول نزار قباني:

((&ألإِسْمُ
&جَمِيلَةُ بوحَيْرَدْ
&رَقْمُ الزِّنْزانَةِ تِسْعونا
&في السِّجْنِ الحَرْبِيِّ بِوَهْرانْ
&وَالْعُمْرُ اثْنانِ وَعِشْرونا
&عَيْنانِ كَـقِنْديلَيْ مَعْبَدْ
&وَالشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ الأَسْوَدْ
&كَالصَّيْفِ كَشَلّالِ الأَحْزانْ
&إِبـْرِيقٌ لِلْماءِ وَسَجّانْ
&وَيَـدٌ تَنْضَمُّ عَلى الْقُرْآنْ
&وَامْرَأَةٌ في ضَوْءِ الصُّبْحِ
&تَسْتَرْجِعُ في مِثْلِ الْبَوْحِ
&آياتِ مُحْزِنَةَ الإِرْنانْ
&مِنْ سورَةِ (مَرْيَمَ) وَ(الْفَتْحِ)).

من آثار لِلإزكاكِ: ((منها التقرير غير المفيد، ومنها ركاكة اللغة، كاضطراره إلى قطع همزة الوصل في كلمة (الإسم)، واستعمال الواو في قوله (وامرأة في ضوء الصبح)، يريد أن يَشْدَهَنا هنا بغرابة المنظر كأنما نراه فجأة، ناسيا أنه حدثنا من قبل عن أنثى اسمها جميلة لها عينان وشعر ويدان (...) ومنها كذب الشعور (...) ومنها رقاعة شائعة في الشعر الحر كله (...) أعني الفصل لغير ضرورة في كثير من الأحيان بين أجزاء لا تقبل الانفصال، كالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، والجار والمجرور، والمضاف إليه، ومثاله هنا وضعه كلمة (الإسم) في سطر و(جميلة) في سطر))[128].

وأما المستقبليون الذين رفضوا الجزالة والركاكة جميعًا معًا، بدعوتهم إلى تفجير نظام اللغة والتفكير، طامحين إلى ما لا يتأتى فيه لأحد تَجْزِيلٌ ولا تَرْكيكٌ[129]، فأثاروا غيرهم إلى الحديث عن علاقة الاستمساك بالأصول بالاستمساك بالحضارة، وعن أن موقف الكاتب العربي المعاصر من اللغة (الفصيحة) جزء من الظاهرة الأسلوبية عنده، وعن لزوم الإطار المرجعي[130]، وإلى الحديث عن أن اطراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان ويجدب من حياته ويطفئ من بصيرته[131]، وإلى الحديث عن استيعاب نظام لغتنا وتفكيرنا العربي الخصب، لتجارب أولئك المستقبليين التي ظُنَّتْ مارقةً منه[132]، وإلى الحديث فيما تنشره الصحف دون رقابة، عن اختراقٍ للقواعد اللغوية الأولية، أقربَ إلى لعب الصبية، منه إلى المقولة النظرية الحديثة[133].

إنه لو صح اقتصار الركاكة على المحدثين دون القدماء، لصح اقتصار الجزالة على القدماء دون المحدثين؛ فلمّا لم يصح ذاك، كما سبق أن ذكرت عن الجاحظ في قوله: ((مِنَ الكَلامِ الجَزْلُ والسَّخيفُ، والمَليحُ والحَسَنُ، والقَبيحُ والسَّمْجُ، والخَفيفُ والثَّقيلُ، وكلُّهُ عَرَبِيٌّ))[134] ـ لم يصح هذا.

ثم لا حياة ولا بقاء لثقافة لم تَحْظَ مِنْ حَمَلَتِها بأولئك الثلاثة (القداميين، والحداثيين، والمستقبليين) جميعًا معًا، على ألا يغفل بنوها عن تكاملهم، وإن بدوا متناقضين؛ فالحاضر ابن الماضي، والمستقبل ابن الماضي والحاضر جميعًا، ثم هو أمل الحاضر، كما كان الحاضر أمل الماضي ـ ولا عن السِّلْك الذي ينتظمهم في عقد ثقافة واحدة وإن بدوا مختلفين؛ فلا انتسابَ لثقافة بحيث يقال: عربية أو عجمية، حتى تسلم لها أصولُ نظام اللغة والتفكير، مُسْتَمِرَّةً في الماضي والحاضر إلى المستقبل، وما هذه الأصول إلا منهج أعمال ناظم الكلام (إبدال الكلم للجملة والجمل للفقرة والفقر للنص والنصوص للكتاب، وترتيبها، والحذف منها، والإضافة إليها) التي يُجزِلُها أو يُركُّها فيدل على مبلغ اجتهاده.

خاتمة

[٢٤] يبدو البحث لقارئه، في أمر الجَزالَةِ (صفة الشعر العربي القديم) والإِجْزالِ (إخراج الشعر العربي القديم على هذه الصفة) والتَّجْزيلِ (الحكم على الشعر العربي القديم بهذه الصفة) وأمر الرَّكاكَةِ (ضِدّ الجزالة) والإِرْكاكِ (ضِدّ الإجزال) والتَّرْكيكِ (ضِدّ التجزيل)، أكثر منه في أمر الهَلْهَلَةِ صفةً وإخراجًا وحكمًا، حتى إذا ما مضى فيه إلى غايته، اطلع على أن تلك الأمور الثلاثة أمر واحد.

لقد بلغ أمر الهلهلة التي تَلَقَّبَ بها عدي بن ربيعة التغلبي الشاعر العربي القديم، من الغموض، أن اتُّخِذَتْ صفة قَدْحٍ مرة وصفة مَدْحٍ أخرى، وأنِ التبست كلمات القدح والمدح متنامية وكأنما روعي قياسُ بعضها إلى بعض، وأنْ ساعدتِ اللغةُ على ذلك.

ولقد يسرت قطعة عدي التي اختارها أبو تمام لباب المراثي من ديوان الحماسة، السبيلَ إلى تحقيق أمر الهلهلة بتحقيق أمر الجزالة (وضدها الركاكة) التي ذكرها المرزوقي شارح الديوان، في أبواب عمود الشعر العربي القديم التي انبنى عليها الاختيار؛ فاتضح وقوعُ هلهلة مهلهل بينهما: من قدح فيه بها فقد عدها من الركاكة، ومن مدحه بها فقد عدها من الجزالة.

ولما كان المرزوقي قد ترك شرح أمر الجزالة (وضدها الركاكة)، وكان عبد القاهر الجرجاني قد نَعى على المحدثين الذين المرزوقيُّ واحدٌ منهم، استعمالَهم مصطلحَ القدماء (جزالةَ الألفاظ) دون تحمُّل تكاليفه الثلاثة: عِلْمِ معناهُ وعِلْمِ غَرَضِهِ وعِلْمِ تَفْسيرِهِ، أي أن يجهلوا أمْرَ تلك المَزِيَّةِ - انبغى لنا في أمر الجزالة والركاكة:

أولًا: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدم لدينا، ولاسيما ما استوعبه هو عنهم.

ثانيًا: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعًا معًا.

ثالثًا: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعًا معًا.

حتى إذا ما انجلى أمرهما انجلى أمر الهلهلة.

ولقد اتضح أن الجزالة ومثلها هلهلة المدح (الخفة)، والركاكة ومثلها هلهلة القدح (السخف) عند القدماء، صفتان نحويتان في نظم الكلام إبدالًا وترتيبا وحذفًا وإضافة، تستبهان على من يستوضحها في غير نحو الكلام، تكون الأولى متى انتظم قويًا كالحبل المشدود لا يتيح لمستوعبه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، وتكون الأخرى متى انتظم ضعيفًا كالحبل المُرْخى يتيح لمستوعبه أن يقول ذلك، وشاهد الحكم الموازنة المسوَّغة بين نظمَيْ كلامين مختلفين، أو بين نظمي الكلام نفسه، السالم والمغير.

ثم اتضح استيعاب قلة من المحدثين كابن رشيق والقرطاجني والأهواني والطرابلسي، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومنزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، كما دلت على ذلك نصوص لهم واضحة.

ثم اتضح عدم استيعاب كثرة من المحدثين، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومنزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، استعصت على المحاورة أسماؤهم؛ فجمعتهم دعاوى أربعٌ ادَّعَوْها وفَنَّدتُّها:

الأولى: أنَّ الجَزالَةَ وَالرَّكاكَةَ مِنْ صِفاتِ الْكَلِمَةِ الْمُنْفَرِدَةِ.

الثانية: أنَّ الجَزالَةَ ضِدُّ السُّهولَةِ والرِّقَّةِ.

الثالثة: أن التَّجْزيلَ حُكْمٌ انطِباعيٌّ (ذَوْقِيٌّ).

الرابعة: أن الجزالة ضِدُّ الحَداثَةِ.

[٢٥] ومهما ذكرتُ ما تيسرت لي دراسته، لم أفرح بأن ينسى القارئ بسَبْرِ أَمْرِ الْمُلْهَلَةِ، فَرْقَ ما بين شعر مُهَلْهِلٍ وشعر غيره المحمول عليه المنحول إليه، ثم فَرْقَ ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده (موعدتي في مقدمة هذا البحث)!

وإنني لأرجو أن أضع في إنجاز هذه الموعدة، بحثًا تاليًا أو أكثر، والله المستعان.

حَواشِي الْفَصْلِ الثَّانِي

١ حرب: ١٩، والقوال: ١٤؛ فقد أشارا إلى الاختلاف في سنة موته بين ٥١١، و٥٢٥ و٥٣٠ و٥٣١ م.

٢ الفريجات: ٥٣ = ٨٢.

٣ السابق: ٨٣.

٤ السابق: ٢٩ = ٤٤.

٥ ابن دريد: ٣٣٨، وراجع كذلك ٦١.

٦ ابن سلام: ١ / ٣٩.

٧ المرزباني: ٩٤.

٨ ابن منظور: هلل.

٩ المرزباني: ٩٤.

١٠ ابن قتيبة: ١ / ٢٩٧.

١١ القالي: ٢/ ١٢٩، وإن خص إرقاقه الشعر عند ابن قتيبة، بالمراثي، فيما قرأ له على ابنه أحمد، والبغدادي: ٢ / ١٦٤.

١٢ الأصفهاني: ٥ / ١٧٠١، وفيه «غُنِّيَ»، بالبناء للمفعول، وبناؤه للفاعل = إن شاء الله = هو الصواب؛ فمن غُنّي في شعرهم من العرب لا يُحصَون كثرةً، و«الأغاني» نفسه شاهد، فأما من غَنوا هم في شعرهم هم، فقليل. ولقد يقوي رأينا نسبةُ من نسب هلهلة مهلهل، إلى حسن صوته، فيما ذكر فارمر: ٥٩.

١٣ ابن منظور: رقق.

١٤ الرضي: ١/ ٩٣.

١٥ ابن منظور: خنف. وهذه «(...)» علامة حذفي أنا لا صاحب النص، من نصه ما لا أريده، فأما هذه «...»، فعلامة حذف صاحب النص نفسه في خلال كلامه ما لا يريده.

١٦ المرزباني: ١٦٢.

١٧ ابن منظور: هلل.

١٨ المرزباني: ٩٥.

١٩ السابق نفسه.

٢٠ أبو تمام: ١/ ٣٨٤ = ٣٨٥.

٢١ حرب: ٤٤.

٢٢ القوال: ٤٧.

٢٣ المرزوقي: ١/ ٩.

٢٤ الجاحظ: ١/ ١٤٤.

٢٥ ثعلب: ٦٣.

٢٦ الأصفهاني: ٢٥/ ٨٦٧٥، ٢٧/ ٩٤٥٣.

٢٧ الآمدي: ١/ ٤٢١.

٢٨ المعتزلي: ١٦/ ١٩٨.

٢٩ العسكري: ١٥٥، وكذلك الطناحي: ٥ ـ ٦.

٣٠ ابن منظور: جزل.

٣١ السابق: ركك.

٣٢ الجاحظ: ١/ ١٤٤.

٣٣ روى بالتَّمْريض ابنُ دريد: ٦١، أنه إنما «سمي مهلهلًا لقوله:
لَمَّا تَوَقَّلَ في الكُرَاعِ هَجِينُهُمْ هَلْهَلْتُ أَثْأَرُ مالِكًا أَوْ صِنْبِلَا».

وكذلك صنع البغدادي: ٢/ ١٦٥، وابن منظور: هلل، والقوال: ٨، وغيرهم، وهو ما أباه حرب: ٨، ساخرا: «إن فارسنا الذي دوخ بكرا وفتك بأبطالها اسمه (الذي كاد) أو (الذي كاد يثأر)!»، مؤثرا أن يكون لقبه اسمه، ولا سيما أن من معانيه السمّ؛ فيكون سم أعدائه، على ما كان العرب يرغبون لأسماء أبنائهم أن تكون.

وليس يمتنع ـ على وجاهة النقد ـ أن يكون عديٌّ ابتدع الفعل (هلهل) في اللغة؛ فمثل هذا من عمل الشعراء، أو ابتدع ذكره في الشعر، فسموه به.

ومن الطريف قول فارمر، ٥٩: «قيل إن (عدي بن ربيعة) وهو شاعر بني تغلب الأشهر، ما لقب بالمهلهل إلا لحسن صوته. على أن كتابا آخرين يقدمون أسبابًا أخرى لاشتهاره بهذه الصفة».

٣٤ المرزوقي: ١/ ٩.

٣٥ الجرجاني: ٤٥٦.

٣٦ صمود: ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

٣٧ ناصف: ١٣٩ ـ ١٤٠، ١٤١ ـ ١٤٢، ١٨٥ ـ ١٨٦.

٣٨ الجرجاني: ٧٢.

٣٩ ضيف: ١٦٠ ـ ١٦١.

٤٠ الجرجاني: ٨١.

٤١ السابق: ٨٢.

٤٢ السابق: ٩٨.

٤٣ الجرجاني: ٦٣ ـ ٦٤. وعلى رغم ذلك ظنه الأستاذ الشايب يقول بأسلوبين لفظيٍّ ومعنويٍّ؛ فزيف الدكتور عياد: ٢٩، ظنه قائلًا: «وضع الأستاذ الشايب لقضية اللفظ والمعنى يتجاوز كل ما كتبه

عبد القاهر حول هذا الموضوع؛ فلم يذهب عبد القاهر قط إلى مثل قول الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبًا معنويًا، وأسلوبًا لفظيًا يتكون على مثاله. ولا شك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة والأدب والأنثروبولوجيا وعلم النفس، على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلًا والآخر صورة له».

٤٤ المعتزلي: ١٦/ ١٩٧، والآمدي: ١/ ٢٣٩، والمرزوقي: ١/ ٧، وابن طباطبا: ٦.

٤٥ الجرجاني: ٣٦.

٤٦ ابن منظور: جزل، وركك.

٤٧ السابق: جزل.

٤٨ الأصفهاني: ٢٧/ ٩٤٥٣.

٤٩ الجرجاني: ٨١، ٨٢. ومن أطرف الاتفاقات – كما أوضح عبد اللطيف: ٤٧ ح، نقلا عن داود عبده – ألا تخرج أقسام القواعد التحويلية التي تتحول بها بنية الجملة الداخلية إلى بنيتها الخارجية عند النحويين التحويليين، عن أقسام أعمال الناظم التي وجدتها في تفصيل الجرجاني. وإنما كان ذلك من أنها التي بها انبنت البنية الداخلية في أصلها.

٥٠ السابق: ١٣٧.

٥١ ابن سنان: ١٥١.

٥٢ ابن منظور: خلع.

٥٣ قدامة: ١٨١؛ فقد ذكر من عيوب العروض «التَّخْليع» أي الإفراط في الزحاف، الذي يخرجه «عن باب الشعر الذي يعرف السامع وزنه في أول وهلة، إلى ما ينكره حتى ينعم ذوقه، أو يعرضه على العروض فيصح فيه؛ فإن ما جرى هذا المجرى ناقص الطلاوة، قليل الحلاوة»؛ فلم أجد أدل على شدة إركاك الكلام من التخليع؛ فاستعرته للنحو من العروض، على طريقة علمائنا القدماء أنفسهم الدالة على اتحاد أصول تفكيرهم وأصالة عملهم فيما استنبطوا من العلوم الخالصة لهم.

٥٤ الآمدي: ١/ ٦، ٥٧، ٤٢٩، والقرطاجني: ٣٧٦، ومصلوح: ٤٩، ١٠٥، وصقر: ٣٩ – ٤٢.

٥٥ ناصف: ٢٥٢؛ فقد قال: «جاء عبد القاهر فكتب كتابًا خلاصته: إذا أريد لدراسة الأدب أن تبلغ درجة من النضج، فلا بد من إقامة رابطة بينها وبين المسائل النحوية المتعلقة بنظام الكلمات أو تركيب العبارات. من النحو يمكن أن ينشأ فصل مهم في علم الأدب. هذه القضية البسيطة التي يرفع لواءها باحث ذكي في القرن الخامس. من التأمل في الاحتمالات النحوية يمكن أن يفتح الباب أمام خبرة أقوى بالشعر. ولن نستطيع أن نفهم الشعر ما لم نستطع أن نحول دراسة النحو بحيث تفيدنا في توضيح لغة الشعر التي ظلت توصف وصفًا مبهمًا في الكتابين العظيمين اللذين كتبهما الآمدي والقاضي الجرجاني. كان الآمدي والجرجاني يتحدثان عن قوة الألفاظ. وما من ناقد تعرض للشعر دون أن يفطن

إلى هذه الخاصية، لكن قوة الألفاظ ظلت عبارة مبهمة أو بابًا مغلقًا؛ فكيف يمكن أن نعرف ما نسميه باسم قوة الألفاظ وفاعليتها؟ لابد لنا أن نستعين بالنحو الذي هو روح اللغة ونظامها».

ولم تكن قوة الألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني إلا جزالتها، ولا كان الآمدي وعلي الجرجاني إلا بعضَ المحدثين.

٥٦ الجاحظ: ١/ ١٤٤.

٥٧ فندريس: ١٩٥، وأونج: ١٩٩ ـ ٢٠٠، ويوسف: ١٩٨ ـ ١٩٩، ٢٣١ ـ ٢٣٢، والوعر: ٨٠ ـ ٨٢، والعبد: ١٢٠.

٥٨ الأصفهاني: ٢٣/ ٨١٧٦.

٥٩ ابن رشيق: ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

٦٠ السابق: ١/ ١٢٤.

٦١ السابق: ١/ ١٢٥.

٦٢ السابق: ١/ ١٢٦.

٦٣ السابق: ١/ ١٢٥.

٦٤ السابق: ١/ ٩٣.

٦٥ القرطاجني: ٢٢٥.

٦٦ ابن منظور: مسك.

٦٧ القرطاجني: ٢٢٤.

٦٨ الجاحظ: ١/ ١٤٤، وكذلك الخفاجي: ٣٢–٣٣، ٨٢.

٦٩ ابن طباطبا: ٨ ـ ٩.

٧٠ الجرجاني: ٦.

٧١ الأهواني: ٤١، ٤٢، ٤٣.

٧٢ ابن أبي الإصبع: ٤١٠.

٧٣ الحلي: ١٣٤. ولقد رغبت مرة في خلال تدريسي لعلم عروض شعر اللغة العربية، أن أستطرد إلى أمثلة من شعر اللهجة العربية المصرية، دلالة على علاقتها؛ فذكرت ذلك لأستاذي محمود محمد شاكر ـ رحمه الله! – فزجرني عنه شديدًا!

٧٤ الأهواني: ٤٤.

٧٥ السابق: ٤٣.

٧٦ الطرابلسي: ٣٢٥.

٧٧ السابق نفسه.

٧٨ السابق: ٣٢٦.

٧٩ السابق: ٣٣٠.

٨٠ الجرجاني: ٧٢.

٨١ ابن عاشور: ٢٨.

٨٢ المرزوقي: ١/ ٩.

٨٣ البرقوقي: ٣٧.

٨٤ السابق: ٢٤.

٨٥ ابن عاشور: ٢٨ ـ ٣١، ٤١ ـ ٤٢.

٨٦ الجرجاني: ٥٩.

٨٧ ابن عاشور: ٦٤ ـ ٦٥.

٨٨ البابرتي: ١٤٢. من هؤلاء المحدثين أساتذة وزملاء متخصصون، بأقسام اللغة العربية، لا نفتأ نستفيد من محاورتهم.

٨٩ الأصفهاني: ٢٥/ ٨٦٧٥ ـ ٨٦٧٦.

٩٠ الآمدي: ١/ ٥؛ فقد أعرض الشيخ عن التصريح بمن يقدم من الطائيَّيْن؛ إذ ليس فيه إلا التعرض لذم أحد الفريقين: الأصحاب أو الخصوم.

٩١ المرزباني: ١٦٢.

٩٢ محمد (السيد): المقدمة.

٩٣ خليل: ٢٢٥ ـ ٢٢٨.

٩٤ الجرجاني: ١٤٧.

٩٥ كانوا سنة ٢٠٠١ م، في فصلهم الأخير بقسم اللغة العربية، من كلية التربية، يدرسون علينا بنظيره من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، بجامعة السلطان قابوس، مقرر «نصوص وتدريبات نحوية».

٩٦ ضيف: ٢٧ ـ ٢٨، وإبراهيم: ٩٥ ـ ٩٧، ١٠١، والحسيني: ٢٥٣.

٩٧ العريمي: ٢٧، ٢٨.

٩٨ ابن الأثير: ١/ ١٨٦، وابن عاشور: ٦٤ ـ ٦٦، وقصاب: ٢٠٢.

٩٩ ابن الأثير: ١/ ١٨٦.

١٠٠ ابن عاشور: ٦٤ ـ ٦٦، وقصاب: ٢٠٢، وعبد المطلب: ١١٢ ـ ١١٣.

١٠١ ضيف: ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

١٠٢ الشايب: ١٨٥ ـ ٢٠٢.

١٠٣ عياد: ٣١.

١٠٤ السابق نفسه.

١٠٥ عبد المطلب: ١١٧.

١٠٦ الآمدي: ١/ ٤١٤.

١٠٧ المرزوقي: ١/ ١٥. وفي شرحه لمراد المرزوقي «بالطبع»، انتهى ابن عاشور: ٢٠، إلى مرادفة الذوق له، مستشهدا بسماعه أئمة الأدب يقولون: «هذا يشهد به الذوق السليم والطبع المستقيم».

١٠٨ ابن عربي: ٦٧. وراجع ابن عاشور: ٢٠؛ فقد روى عن السكاكي أن أستاذه الحاتمي كان يحيلهم كثيرًا، إذا راجعوه في محسنات الكلام، على الذوق، ثم قال: «ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب».

١٠٩ شبلنر: ١٣١ ـ ١٣٢.

١١٠ ماي: ٥٧.

١١١ ويليك: ٢٦٥. ولقد قال شبلنر نفسه في عقب رفضه لما سماه التحليل الأسلوبي الذاتي: «لا يعني رفضنا لهذا الاتجاه أن الحدس أو التقويم الذاتي بمعناه الواسع، لا يحتل مكانا في التفسير الأسلوبي الشامل. إن مثل هذا الجانب في داخل التفسير، ينبغي توضيحه وعدم الاستغناء عنه بعد ذلك، وخاصة عند عدم وجود إمكانيات أخرى في التفسير أو الشرح، وينبغي كسب أساس أي تفسير من خلال المناهج التحليلية التي يمكن القيام بها» ١٣٢.

١١٢ مصلوح: ٨٨.

١١٣ يميل بعض المثقفين المعاصرين إلى أن يميزوا المهتم لـلشيء، بالمنسوب إلى مصدره (مثاله الإسلاميُّ، للمشتغل بالإسلام العامل له)، والجاري فيه على موروث عاداته، بالمشتق من مصدره (مثاله المُسْلِمُ ـ اسم الفاعل ـ للمكتفي من الإسلام بما تعود)، ولا بأس بهذا التمييز، وإن أشكل علينا في «الاستقبالي»؛ فتركناه إلى ميميِّه.

١١٤ وإن اقتضى التلاؤم (استقباليًّا).

١١٥ سئل يوسف إدريس في قول مجيد طوبيًا في جيله من القصاصين والروائيين المصريين: «نحن جيل لا أساتذة له»؛ فقال: «إذن لم يتعلموا»!

١١٦ الأهواني: ٦٣، وإسماعيل: ١٧٦؛ فقد نبها على مشكلة اللغة المستمرة عند المحدثين الأوائل والأواخر.

١١٧ ابن عاشور: ٦٥، وقصاب: ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

١١٨ ناصف: ٤٢، ٧٧، ١٣٢.

١١٩ السابق: ٨٨. وإن نبه فيما بعد على أن منهج الجرجاني كان ثورة على تلك المقولات القديمة، واعتذر عنه قائلًا ـ ٢٤٨ ـ: «ليس من الصواب أو الشرف في شيء أن نطالب باحثًا ذكيًا في القرن الخامس، بما عجز عنه الدارسون حتى القرن الرابع عشر الهجري»، طاويًا اعتذاره عنه بدعوة الباحثين إلى استحداث مقولات لما يستحدثون من مناهج.

١٢٠ الجابري: ٨٦ ـ ٨٧، ٨٨ ـ ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣. وكذلك عبد المطلب: ٣٦٢.

١٢١ الحمزاوي: ١١ ـ ١٣، ٢٦ ـ ٢٧، ١٦١ ـ ١٦٢.

١٢٢ طوقان: ٨٩، ٩٠ ـ ٩١.

١٢٣ قباني: ٣٤، ٤٤ ـ ٤٦، وطوقان: ٨٨ ـ ٩٣.

١٢٤ ناصف: ب = ٢٠. وكذلك بشر: ٣٤ ـ ٣٥، ٥٦ ـ ٥٩.

١٢٥ عياد: ٨٤.

١٢٦ بشر: ٧٨.

١٢٧ حجازي: ١١.

١٢٨ عبد الله: ١٦ ـ ١٩. ولا تخفى دلالة كلامه على أنه من أصحاب الدعوى الأولى المفندة في الفقرة العشرين.

١٢٩ أدونيس: ١٣٥ ـ ١٣٦، والخراط: ٤٦. ولقد وضعت في تأمل هذه الدعوة بحثًا باسمها، قصيرًا، أرجو أن يتاح لي نشره قريبًا.

١٣٠ عياد: ٧٢ ـ ٧٣، ١٠١ ـ ١٠٣.

١٣١ محمد: ٣٠، وعلي: ١٢.

١٣٢ بزيع: ١٠٣. وبهذه النتيجة خرج بحثي المشار إليه في (١٢٩).

١٣٣ درويش: ٣٠٩. وكذلك الملائكة: ٣٣٢؛ فقد سخرت بمثل هذا، ممن سَمَّتْه «طفل اللغة المدلل».

١٣٤ الجاحظ: ١/ ١٤٤.

كُتُبُ الفَصْلِ الثّاني

- الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر): «الموازنة بين أبي تمام والبحتري»، تحقيق السيد أحمد صقر، وطبعة دار المعارف بمصر، الرابعة.
- إبراهيم (الدكتور شكري بركات): «دراسات في الشعر العماني: ٤ – البديع واللغة في الشعر العماني الوسيط» طبعة سنة ١٩٩٤م، ونشرة دار الثقافة العربية بالقاهرة.
- ابن أبي الإصبع (المصري): «تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن»، قدم له وحققه الدكتور حفني محمد شرف، وطبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة.
- ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري): «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتوران أحمد الحوفي وبدوي طبانه، ونشرته دار نهضة مصر بالقاهرة.
- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن): «الاشتقاق»، حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعته دار الجيل ببيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ=١٩٩١م.
- ابن رشيق (أبو علي الحسن الأزدي): «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد، وطبعة دار الجيل ببيروت، الخامسة سنة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.
- ابن سلام (محمد الجمحي): «طبقات فحول الشعراء»، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدني بالقاهرة.
- ابن سنان (أبو محمد الخفاجي الحلبي): «سر الفصاحة»، تحقيق علي فوده، الطبعة الثانية سنة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م، نشرة الخانجي بالقاهرة.
- ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي): «عيار الشعر»، حققه الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، وطبعته دار العلوم بالرياض سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- ابن عاشور (محمد الطاهر): «شرح المقدمة الأدبية»، طبعته دار الكشاف ببيروت سنة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م، ونشرته دار الكتب الشرقية بتونس.
- ابن عربي (أبو عبد الله محي الدين بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي): «ديوانه»، طبعته بولاق بالقاهرة، سنة ١٢٧١هـ ونشرته دار المثنى ببغداد.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): «الشعر والشعراء»، حققه وشرحه الأستاذ أحمد محمد شاكر، وطبعته دار المعارف بمصر.
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): «لسان العرب»، طبعته دار المعارف بالقاهرة.

- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي): «ديوان الحماسة»، طبعته السعادة الطبعة الثانية سنة ١٣٣١هـ=١٩١٣ م، ونشرته المكتبة الأزهرية بالقاهرة.

- أدونيس (علي أحمد سعيد): «زمن الشعر»، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م، نشرته دار العودة ببيروت.

- إسماعيل (الدكتور عز الدين): «الشعر العربي المعاصر»، طبعة دار الكاتب بالقاهرة سنة ١٩٦٦م.

- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي): «الأغاني»، حققه وأشرف عليه الأستاذ إبلراهيم الإبياري، وطبعته دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.

- الأهواني (الدكتور عبد العزيز): «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر»، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، الثانية ١٩٨٦م.

- أونج (والتر. ج): «الشفاهية والكتابية»، ترجمة الدكتور حسن البنا عز الدين، ومراجعة الدكتور محمد عصفور، وطبعة مؤسسة دار السياسة بالكويت، العدد١٨٢ من سلسلة عالم المعرفة، لشعبان ١٤١٤هـ = فبراير ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني الكويتي.

- البابرتي (كمال الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد): «شرح التلخيص»، درسه وحققه الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية، وطبع سنة ١٣٩٢و.ر = ١٩٨٣م، ونشرته المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس ليبيا.

- البرقوقي (عبد الرحمن): «شرح التلخيص»، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، المصورة عن الطبعة الثانية سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.

- بزيع (شوقي): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل «أسئلة الشعر» الذي نشرته الدار العربية بليبيا.

- البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعه المدني الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م، ونشره الخانجي بالقاهرة.

- بشر (الدكتو ر كمال محمد): «العربية بين الوهم وسوء الفهم»، طبعة سنة ١٩٩٩م، ونشرة دار غريب بالقاهرة.

- ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى): «قواعد الشعر»، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، ونشره الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٩٥م.

- الجابري (الدكتور محمد عابد): «نقد العقل العربي (١) تكوين العقل العربي»، الطبعة السابعة في أكتوبر ١٩٩٨م، نشرة مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت.

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): «البيان والتبيين»، حققه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعه المدني الطبعة الخامسة سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي):

«دلائل الإعجاز»، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدني، ونشره الخانجي بالقاهرة.

«أسرار البلاغة»، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدني الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ = ١٩٩١م، ونشرته دار المدني بجدة. (والدلائل هو المقصود دائما، فإن عَرَض الأسرار نبهتُ عليه في المتن).

- حجازي (أحمد عبد المعطي حجازي): «رسالة إلى أمل دنقل»، مقال بسفر أمل دنقل الذي حررته عبلة الروني، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٩٩م.

- حرب (طلال): «ديوان مهلهل بن ربيعة»، طبعة الدار العالمية ببيروت سنة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

- الحسيني (راشد بن حمد بن هاشل): «اللواح الخروصي سالم بن غسان، حياته وشعره: دراسة موضوعية وفنية»، طبعة النهضة بسلطنة عمان، الأولى سنة ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

- الحلي (صفي الدين): «العاطل الحالي والمرخص الغالي»، حققه الدكتور حسين نصار، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الحمزاوي (الدكتور محمد رشاد): «العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات»، نشرة المعهد القومي لعلوم التربية بتونس ١٩٨٢م.

- الخراط (إدوار): «أنا والطابو: مقاطع من (سيرة ذاتية للكتابة) عن السلطة والحرية»، مقال بالعدد ٣ من المجلد ١١ لخريف ١٩٩٢ من مجلة فصول، الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الخفاجي (الدكتور محمد علي رزق): «ظاهرة الابتذال في اللغة والنقد»، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م، نشرة الدار الفنية بالقاهرة.

- خليل (الدكتور حلمي): «العربية والغموض»، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، الأولى سنة ١٩٨٨م.

- درويش (محمود): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل «أسئلة الشعر» السابق الذكر .

- الرضي (محمد بن الحسن الإستراباذي النحوي): «شرح شافية ابن الحاجب»، تحقيق الأساتذة محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وطبعة ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، ونشرة دار الفكر العربي بالقاهرة.

- الشايب (أحمد): «الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية»، الطبعة الثامنة سنة١٩٨٨م، نشرة مكتبة النهضة المصرية.

- شبلنر (برند): «علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي»، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود جاد الرب، وطبع الأولى سنة ١٩٩١م، ونشرته الدار الفنية للنشر والتوزيع بالقاهرة.
- صقر (الدكتور محمد جمال): «علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي»، طبعة المدني بالقاهرة، الأولى سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- صمود (حمادي): «التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة»، طبعة المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٨١م، ونشرة الجامعة التونسية.
- ضيف (الدكتور شوقي): «البلاغة: تطور وتاريخ»، طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة.
- الطرابلسي (الدكتور محمد الهادي): «خصائص الأسلوب في الشوقيات»، طبعة سنة ١٩٨١م، ونشرة الجامعة التونسية.
- الطناحي (الدكتور محمود محمد): «ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وشيء من التحليل والعروض والفهرسة»، بحث بالجزء الأول من المجلد السادس والستين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، طبعة الصباح سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- طوقان (فدوى): «رحلة جبلية رحلة صعبة: سيرة ذاتية»، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م، نشرة دار الشروق بعمان الأردن.
- العبد (الدكتور محمد): «اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية»، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م، نشرة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة.
- عبد الله (الحساني حسن): «عفت سكون النار»، الطبعة الأولى بالقاهرة، سنة ١٩٧٢م .
- عبد اللطيف (الدكتور محمد حماسة): «النحو والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي»، طبعة المدينة الأولى، سنة ١٩٨٣م.
- عبد المطلب (الدكتور محمد): «البلاغة والأسلوبية»، طبعة دار نوبار بالقاهرة سنة ١٩٩٤م، ونشرة مكتبة لبنان ببيروت والشركة المصرية العالمية (لونجمان).
- العريمي (سالم بن سعيد بن خميس): «حمأة الفشل»، قصيدة فائزة بمرتبة التشجيع الأولى، منشورة بكتاب مهرجان الشعر العماني الثاني، طبعة العالمية بسلطنة عمان، الأولى سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل): «كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر»، تحقيق الأستاذين علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، الثانية.
- علي (الدكتور نبيل): حوار ببرنامج «بلا حدود» بقناة الجزيرة القطرية الفضائية www.aljazeera.ne حلقة ٤/ ١/ ١٤٢٢هـ= ٢٩/ ٣/ ٢٠٠١م، ص١٢.

- عياد (الدكتور شكري محمد): «اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي»، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م، نشرة إنترناشيونال برس.
- فارمر (هنري جورج): «تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي»، عربه وعلق حواشيه ونظم ملاحقه جرجيس فتح الله المحامي، ونشرته دار مكتبة الحياة ببيروت.
- الفريجات (الدكتور عادل): «الشعراء الجاهليون الأوائل»، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م، نشرة دار المشرق ببيروت، وتوزيع المكتبة الشرقية ببيروت.
- فندريس (جوزيف): «اللغة»، تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، طبعة سنة ١٩٥٠م، ونشرة مكتبة الأنجلو المصرية.
- القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): «الأمالي»، طبعة ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م، الثانية، نشرة دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت.
- القاضي المعتزلي (عبد الجبار): «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، نشرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر.
- قباني (نزار توفيق): «الشعر قنديل أخضر»، الطبعة السادسة عشرة، لينايـر ٢٠٠٠م، من منشورات نزار قباني ببيروت.
- قصاب (الدكتور وليد): «قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم: ظهورها وتطورها»، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م، نشرة المكتبة الحديثة بعين الإمارات العربية المتحدة.
- القرطاجني (أبو الحسن حازم): «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، قدم له وحققه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجه، وطبعته دار الكتب الشرقية بتونس سنة ١٩٦٦م.
- القوال (أنطوان محسن): «ديوان المهلهل»، طبعة دار الجيل ببيروت، الأولى سنة ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
- ماي (روللو): «شجاعة الإبداع»، ترجمه الدكتور فؤاد كامل، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م، نشرة دار سعاد الصباح بالقاهرة.
- محمد (السيد إبراهيم): «الضرورة الشعرية: دراسة أسلوبية»، طبعة دار الأندلس ببيروت.
- محمد (الدكتور محمد سيد): «الإعلام واللغة»، طبعة ١٩٨٤م، نشرة عالم الكتب بالقاهرة.
- المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى): «الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر»، حققه الأستاذ علي محمد البجاوي، وطبعته دار الفكر العربي بالقاهرة.
- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين): «شرح ديوان الحماسة»، حققه الأستاذان أحمد أمين وعبد السلام هارون، وطبعته دار الجيل ببيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

- مصلوح (الدكتور سعد): ((العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص))، بحث بالكتاب التذكاري ((عبد السلام هارون: معلمًا ومؤلفًا ومحققًا))، الذي أعده الدكتوران وديعة طه النجم وعبده بدوي، نشرة سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- الملائكة (نازك): ((قضايا الشعر المعاصر))، الطبعة السابعة سنة ١٩٨٣م، نشرة دار العلم للملايين ببيروت.
- ناصف (الدكتور مصطفى): ((اللغة بين البلاغة والأسلوبية))، نشرة النادي الأدبي الثقافي بجدة لجمادى الآخرة سنة ١٤٠٩هـ = يناير ١٩٨٩م، (كتابه رقم ٥٣).
- الوعر (الدكتور مازن): ((دراسات لسانية تطبيقية))، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م، نشرة دار طلاس بدمشق.
- ويليك (رينيه)، ووارين (أوستن): ((نظرية الأدب))، ترجمة محي الدين صبحي، ومراجعة الدكتور حسام الدين الخطيب، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥م، نشرة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت.
- يوسف (الدكتور جمعة سيد): ((سيكولوجية اللغة والمرض العقلي))، نشرة المجلس الوطني الكويتي ليناير ١٩٩٠م (كتاب عالم المعرفة رقم ١٤٥).

الْفَصْلُ الثّالِثُ

بَيْنَ الْأَعْشـــى وَجَـــريرٍ

مُوازَنَةٌ نَصّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

مُقَدِّمَةٌ

شَرْحُ الْكَلامِ الْعَرَبِيِّ

[١] تبدو لي كتب شرح الكلام العربي أنفع لِلنَّحْويِّ من كتب مسائله؛ فربما لم يبتهج بكتاب مثلما يبتهج بكتاب لغوي في شرح نص من الكلام العربي المبين قرآنه وشعره ونثره، ولم ينقطع لكتاب مثلما ينقطع له، ولم يستوعب من مسائل علم النحو أنفسها مثلما يستوعب ما يرد في خلاله.

ثم تبدو لي كتب المجالس وأشباهها من كتب الأمالي، من مثل: ((مجالس ثعلب))، و((أمالي ابن الشجري))، وغيرها التي أنتجتها مجالس أصحابها لطلاب العلم ينظرون لهم كلما لقوهم، في نصوص قصيرة خاصة أو مشكلة، مُحْضَرة أو مُقْتَرحة، ولا يتركونها حتى يشرحوا خُصوصيَّتها أو يزيلوا إشكالها، مستطردين إلى ما لا يقع بكتب مسائل علم النحو من الأشباه والنظائر والأضداد والأمثلة والشواهد ـ أحظى بأول إقبال ذلك النَّحْويِّ، وأدعى إلى تأمله، وأَرْوَحَ لقلبه؛ فربما لا يكاد يمل تأمل نمط من المسائل حتى ينشط لتأمل غيره.

ثم تبدو لي كتب شرح الأمثال العربية القديمة، من مثل: ((الأمثال)) للقاسم ابن سلام، و((مجمع الأمثال)) للميداني، وغيرها التي كانت على طريقة موادها نصوصًا من الكلام العربي المبين قصيرة خاصة أو مشكلة ـ أَعْلَقَ لدى ذلك النَّحْويِّ بكتب الأمالي؛ فربما بحث في تراكيبها المطردة والشاذة عن مسائلها النحوية، ووقف في الكتاب الواحد من الأمثال على أنماط مختلفة، ونظر فيما بينها من جوامع وفوارق؛ فاطلع على طرف من موازنة أنماط الكلام المتزامنة.

ثم تبدو لي كتب شرح النصوص الطويلة (القصائد)، من مثل: ((شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات)) للأنباري، و((الغيث المسجم)) للصفدي، وغيرها التي نازعت فيها عقولُ الشراح عقولَ أصحابها سياسةَ الكلام العربي ـ أَعْلَقَ لدى ذلك النَّحْويِّ بكتب شرح النصوص القصيرة (الأمثال)؛ فربما عكف منها على مسائل التراكيب الفنية الطريفة والتحريرات العلمية اللطيفة، حتى انتبه إلى فروق ما بين النصوص المتزامنة والمتعاقبة بعضها وبعض من جهة، وفروق ما بين الشروح المتزامنة والمتعاقبة بعضها وبعض من جهة أخرى، ووقف على أنماطها المختلفة؛ فاطلع على طرف آخر من موازنة أنماط الكلام المتزامنة والمتعاقبة.

مَقالَةُ أَبي عَمْرِو بْنِ الْعَلاءِ

[٢] وربما انتبه ذلك النَّحْويُّ من مقالات العلماء في شعر الطبقة الأولى من فحول الجاهليين (امرئ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى)، إلى مقالة أبي عمرو بن العلاء هذه النفيسة:

«نَظيرُهُ (الأعشى) في الْإِسْلامِ جَريرٌ، وَنَظيرُ النّابِغَةِ الْأَخْطَلُ، وَنَظيرُ زُهَيْرٍ الْفَرَزْدَقُ»(١)

- كما انتبهتُ، وأحسَّ لها قيمة ليست لسائر مقالات العلماء كما أحسستُ.

ولكنني على رغم عجزي أولًا عن فهم تشبيه الأخطل بالنابغة إلا في النصرانية وعجبي آخرا من تشبيه الفرزدقِ المُتَعَهِّرِ بزهيرِ المُتَعَفِّفِ، لم أترك لخواطري التي بينها وبين خواطر أبي عمرو مثل ما بين الخبر والمعاينة، أن تصرفني عما في مقالته على تقدم زمانها من الأفكار الجليلة التالية:

١ مُقْتَضى علم العالم بالشعر ألا يغفل عن الحاضر اشتغالًا بالماضي؛ فأبو عمرو المشهور انصرافه عن حاضر الشعر العربي إلى ماضيه واشتغاله به زمانًا طويلًا حتى حفظ منه ما لم يحفظ أحد، قد دل على أنه لم يكن أقل اشتغالًا بحاضره منه بماضيه؛ فمقالته لا تكون إلا عن انقطاع لهما جميعًا.

٢ الشعر العربي بحر واحد متدفق محيط، لا يَنْخَلِعُ حاضره من ماضيه؛ فأبو عمرو قد وازن بأولئك الشعراء الجاهليين هؤلاء الإسلاميين على ما بينهم من فيافي الزمان والمكان المترامية المدلهمة.

٣ نَوازِعُ الشعراء طبيعية خالدة، لا يستحيل أن يشابه فيها حاضر ماضيا؛ فأبو عمرو قد وجد لكل شاعر من شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين إلا امرأ القيس، من يشابهه ويجري معه، ووقع بالشاعر على الشاعر كما يقع الحافر على الحافر.

٤ أَفْذاذُ الشعراء لا يُشابَهون؛ فأبو عمرو قد أخرج امرأ القيس من المشابهة على رغم أنه أخو طبقة الثلاثة المذكورين الأولى، وكأنه لا ينسلك فيما ينسلك فيه غيره من الشعراء مهما تكن أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم!

مُوازَنَةُ الْكَلامِ بِالْكَلامِ

[٣] لقد رأيت مقالته علامة بارزة على منهج موازنة النصوص المتزامنة أو المتعاقبة أو المتزامنة المتعاقبة معًا، ودعوة خالدة إلى بحث نحوي راسخ شامخ، لا يتناهى في أية الجهتين إلى غاية، بل يتراحب كلما سار فيه النحويون، نافيا عنهم خوفهم من نَفاد مسائل البحث وتكرارها الذي يؤرقهم، واقفًا غيرهم على جَلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية الإسلامية المُشَرَّفة المضيَّعة.

كيف أنشأ الثلاثة الشعراء الجاهليون (الأعشى والنابغة وزهير) والثلاثة الشعراء الإسلاميون (جرير والفرزدق والأخطل) نصوصهم؟

وما الذي اجتمعوا فيه، وما الذي افترقوا، بحيث أشبه بعضهم بعضًا وبقوا مع ذلك شعراء كبارًا لا يغني بعضهم طلاب الشعر عن بعض؟

ذاك سؤال كبير في موازنة النصوص المتزامنة، وهذا سؤال كبير في موازنة النصوص المتعاقبة، ولا ريب لدي في أن جوابهما الكامل صعب محتاج إلى انتهاج مناهج واستفتاء نظريات من علوم كثيرة لغوية كعلم النحو وغير لغوية كعلم النفس، ربما تيسر يومًا ما حين يستقل ثم يستحصد في العربية «علم النص» نظرا وعملا جميعًا معًا، ولا سيما أن تنظر في مثل ذلك الجواب الواحد تلك العلوم الكثيرة، وألا ينتظر بعضها بعضًا أن ينظر له فيشاركه في النظر؛ فللبحث في كل علم تقاليد وأعراف تشبه الخصائص يكاد الباحثون لا يتجاوزونها.

شُعَراءُ مَقالَةِ أَبِي عَمْرٍو

[٤] ومن ثم فتشت عن دواوين الشعراء الستة، ثم قرنت بعضها ببعض على ما رأى أبو عمرو، ورتبتها -حتى أوازن بعضها ببعض- قَرِينَيْنِ قَرِينَيْنِ، على النحو التالي:

١ الأعشى = جرير.

٢ النابغة = الأخطل.

٣ زهير = الفرزدق.

عسى أن يُعْقِبَ هذا النمط الواحد من الموازنة جوابَ السؤالين السابقين جميعًا معًا؛ فليس في قرن الثلاثة الجاهليين وموازنة بعضهم ببعض ثم في قرن الثلاثة الإسلاميين وموازنة بعضهم ببعض، غيرُ التطويل على نفسي وعلى القارئ بما لا تظهر لي الآن فيه جدوى كبيرة.

شِعْرُ الْأَعْشى وَجَرِيرٍ

[٥] وجدت للأعشى اثنتين وثمانين (٨٢) قصيدةً وقِطْعَةً ونُتْفَةً وبَيتًا، ولجرير أربعمئة وسبع عشرة (٤١٧) من مثل ذلك -فشعر جرير أكثر من شعر الأعشى، بما كان جرير أكثر انصرافًا إلى الشعر وانقطاعًا له، والأعشى أكثر ابتلاء بتضييع شعره ونسيانه- قد تَقاسَمَتْها البحورُ على النحو التالي بالنِّسَبِ المُقَرَّبة:

البحر	طويل	بسيط	وافر	كامل	رجز	رمل	سريع	منسرح	خفيف	متقارب
الأعشى	٣٤	١١	١٠	١٥	٦	٢	٢	١	٦	١٢

جرير	٣٧	١٦	٢١	١٧	٧	×	١	٠	×	٢

فأغراني ذلك بتصديق مقالة الفاخرين للأعشى بأنه أكثر الأربعة الجاهليين عَروضًا[١]؛ فقد غَنّى وهو الجاهلي ببحرين (الرمل، والخفيف) ، ضَمَّ عنهما جرير وهو الإسلامي، على رغم ما افتتنت به بعض الحواضر في زمان جرير من الغناء الحافز الطبيعي إلى تصريف أوزان الشعر[٢]، ولكن يبدو أن ميل الأعشى إلى الغناء المتلقب به ((صَنّاجَة العَرَب))[٣]، والمتلهي به عن الحبيبة المعرضة[٤]، لم يكن بجرير المؤثر التداوي من الحبيبة بذكراها[٥].

ولكن ذلك الجدول لا يبين منازل تلك البحور المشتركة بينهما كما يبينها الجدول التالي:

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
الأعشى	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	سريع	منسرح
جرير	طويل	وافر	كامل	بسيط	رجز	متقارب	سريع	منسرح

فعلى حين ائتلفت بينهما منازل الطويل والبسيط والسريع والمنسرح؛ فظهر طرف مما يمكنه أن يكون الجامع بينهما ـ اختلفت بينهما منازل الكامل والمتقارب والوافر والرجز؛ فظهر طرف مما يظل الفارق بينهما، وتلك معطيات مهمة، ولا سيما إذا تأملتُها في ضوء ((جدول تطور أوزان الشعر العربي))، الذي صنعه بعض الباحثين مما وصل إليه هو وغيره[٦]، وحسبي أن أستفيد منه للجدول التالي:

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
الجاهلية	طويل	بسيط	وافر	كامل	رمل	متقارب	سريع	رجز	خفيف	منسرح	مديد
الأعشى	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	خفيف	رمل	سريع	منسرح	
الهجري١	طويل	كامل	وافر	بسيط	خفيف	رجز	متقارب	منسرح	رمل	مديد	
جرير	طويل	وافر	كامل	بسيط	رجز	متقارب	سريع	منسرح			

فقد ائتلفت بعض المنازل بين شعري شاعرينا خاصة وشعري عصريهما عامة، فَنَسَبْتُ كلا منهما إلى عصره، كما يلي:

١ منزلة الطويل أولًا في الجاهلية وشعر الأعشى والقرن الهجري الأول وشعر جرير جميعًا.

٢ منزلة المنسرح عاشرًا في الجاهلية وشعر الأعشى جميعًا.

٣ منزلة البسيط رابعًا في القرن الهجري الأول وشعر جرير جميعًا.

٤ منزلة المنسرح ثامنًا في القرن الهجري الأول وشعر جرير جميعًا.

واختلفت بعض المنازل؛ فكفلت لكل منها خصوصيته المتأبية أبدا على التعميم، كما يلي:

١ منزلة المديد في الشعر الجاهلي مفتقدة في شعر الأعشى، ومنزلتا الرمل والمديد في شعر القرن الهجري الأول مفتقدة في شعر جرير.

٢ منازل الكامل والمتقارب والبسيط والوافر والرجز والخفيف والرمل والسريع في شعر الأعشى خاصة، غيرُها في شعر الجاهلية عامة.

٣ منازل الوافر والكامل والرجز والمتقارب والسريع في شعر جرير خاصة، غيرُها في شعر القرن الهجري الأول عامة.

مادَّةُ المُوازَنَةِ

[٦] ولقد كان لكل من ذلك أثره في إجراء الموازنة بين شعري الأعشى وجرير؛ فقد مضيت في شعر الأعشى الأقل، أتمسك بكل قصيدة أجد لها من شعر جرير الأكثر، ما يلائمها عَروضًا وطولًا ومَعْنًى؛ فلم أعثر من شعر الأعشى إلا على أربع قصائد فقط تلائم أربعًا من شعر جرير. ثم مضيت أتذوق الكلام وأنظر فيما وراءه، حتى أشفقت من استطالة البحث؛ فاصطفيت من تلك القصائد الثماني هاتين القصيدتين وكلتاهما مستحسنة مصطفاة:

الأولى لاميَّةُ الأَعْشى[١]، وقد فَصَّلتها بما استوعبتها على النحو التالي[٢]:

[١: فَصْلُ الْبَيْنِ]

١ــ وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطيقُ وَداعًا أَيُّها الرَّجُلُ

[٢: فَصْلُ الِاسْتِحْسانِ]

٢ــ غَرّاءُ فَرْعاءُ مَصْقولٌ عَوارِضُها تَمْشي الْهُوَيْنى كَما يَمْشي الْوَجي الْوَحِلُ

٣ــ كَأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ وَلا عَجَلُ

٤ــ تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إِذا انْصَرَفَتْ كَما اسْتَعانَ بِريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

٥ــ لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها وَلا تَراها لِسِرِّ الْجارِ تَخْتَتِلُ

٦ــ يَكادُ يَصْرَعُها لَوْلا تَشَدُّدُها إِذا تَقومُ إِلى جاراتِها الْكَسَلُ

٧ــ إذا تُعالِجُ قِرْنًا ساعةً فَتَرَتْ وَاهْتَزَّ مِنها ذَنُوبُ المَتْنِ وَالْكَفَلُ
٨ــ صِفْرُ الوِشاحِ وَمِلْءُ الدِّرْعِ بَهْكَنَةٌ إذا تَأَتّى يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ

[٣: فَصْلُ الإِعْراضِ]

٩ــ صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا جَهْلًا بِأُمِّ خُلَيْدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ
١٠ــ أَأَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ المَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

[٤: فَصْلُ الاسْتِلْذاذِ]

١١ــ نِعْمَ الضَّجيعُ غَداةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُ لِلَذَّةِ المَرْءِ لا جافٍ وَلا تَفِلُ
١٢ــ هِرْكَوْلَةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مَرافِقُها كَأَنَّ أَخْمَصَها بِالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ
١٣ــ إذا تَقومُ يَضوعُ المِسْكُ أَصْوِرَةً وَالزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدانِها شَمِلُ
١٤ــ ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراءُ جادَ عَلَيْها مُسْبِلٌ هَطِلُ
١٥ــ يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنها كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
١٦ــ يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنها نَشْرَ رائِحَةٍ وَلا بِأَحْسَنَ مِنها إذْ دَنا الأُصُلُ

[٥: فَصْلُ الخَيْبَةِ]

١٧ــ عُلِّقْتُها عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْري وَعُلِّقَ أُخْرى غَيْرَها الرَّجُلُ
١٨ــ وَعُلِّقَتْهُ فَتاةٌ ما يُحاوِلُها مِنْ أَهْلِها مَيِّتٌ يَهْذي بِها وَهِلُ
١٩ــ وَعُلِّقَتْني أُخَيْرى ما تُلائِمُني فَاجْتَمَعَ الحُبُّ حُبًّا كُلُّهُ تَبِلُ
٢٠ــ فَكُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَخْبولٌ وَمُخْتَبِلُ
٢١ــ قالَتْ هُرَيْرَةُ لَمّا جِئْتُ زائِرَها وَيْلي عَلَيْكَ وَوَيْلي مِنْكَ يا رَجُلُ

[٦: فَصْلُ الطُّمَأْنينَةِ]

٢٢ــ يا مَنْ يَرى عارِضًا قَدْ بِتُّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّما البَرْقُ في حافاتِهِ الشُّعَلُ
٢٣ــ لَهُ رِدافٌ وَجَوْزٌ مُفْأَمٌ عَمِلٌ مُنَطَّقٌ بِسِجالِ الماءِ مُتَّصِلُ

٢٤ـ لَمْ يُلْهِني اللَّهْوُ عَنْهُ حينَ أَرْقُبُهُ   وَلا اللَّذاذَةُ مِنْ كَأْسٍ وَلا الكَسَلُ

٢٥ـ فَقُلْتُ لِلشَّرْبِ في دُرْنى وَقَدْ ثَمِلوا   شيموا وَكَيْفَ يَشيمُ الشّارِبُ الثَّمِلُ

٢٦ـ بَرْقًا يُضيءُ عَلى الأَجْزاعِ   مَسْقِطُهُ وَبِالخَبِيَّةِ مِنْهُ عارِضٌ هَطِلُ

٢٧ـ قالوا نِمارٌ فَبَطْنُ الخالِ   جادَهُما فَالعَسْجَدِيَّةُ فَالأَبْلاءُ فَالرِّجَلُ

٢٨ـ فَالسَّفْحُ يَجْري فَخِنْزيرٌ فَبُرْقَتُهُ   حَتّى تَدافَعَ مِنْهُ الرَّبْوُ فَالجَبَلُ

٢٩ـ حَتّى تَحَمَّلَ مِنْهُ الماءَ تَكْلِفَةً   رَوْضُ القَطا فَكَثيبُ الغَيْنَةِ السَّهِلُ

٣٠ـ يَسْقي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا   زورًا تَجانَفَ عَنْها القَوْدُ وَالرَّسَلُ

[٧: فَصْلُ الرِّحْلَةِ]

٣١ـ وَبَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ موحِشَةٍ   لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ في حافاتِها زَجَلُ

٣٢ـ لا يَتَنَمّى لَها بِالقَيْظِ يَرْكَبُها   إِلّا الَّذينَ لَهُمْ فيها أَتَوْا مَهَلُ

٣٣ـ جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ   في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ

[٨: فَصْلُ التَّلَهّي]

٣٤ـ إِمّا تَرَيْنا حُفاةً لا نِعالَ لَنا   إِنّا كَذَلِكَ ما نَحْفى وَنَنْتَعِلُ

٣٥ـ فَقَدْ أُخالِسُ رَبَّ البَيْتِ غَفْلَتَهُ   وَقَدْ يُحاذِرُ مِنّي ثُمَّ ما يَئِلُ

٣٦ـ وَقَدْ أَقودُ الصِّبى يَوْمًا فَيَتْبَعُني   وَقَدْ يُصاحِبُني ذو الشِّرَّةِ الغَزِلُ

٣٧ـ وَقَدْ غَدَوْتُ إِلى الحانوتِ يَتْبَعُني   شاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

٣٨ـ في فِتْيَةٍ كَسُيوفِ الهِنْدِ   قَدْ عَلِموا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذي الحيلَةِ

وَقَهْوَةٍ مُزَّةٍ راووقُها خَضِلُ

٣٩ـ نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئًا   وَقَهْوَةٍ مُزَّةٍ راووقُها خَضِلُ

٤٠ـ لا يَسْتَفيقونَ مِنْها وَهْيَ راهِنَةٌ   إِلّا بِهاتِ وَإِنْ عَلّوا وَإِنْ نَهِلوا

٤١ـ يَسْعى بِها ذو زُجاجاتٍ لَهُ نُطَفٌ   مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ

٤٢ـ وَمُسْتَجيبٍ تَخالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ   إِذا تُرَجِّعُ فيهِ القَيْنَةُ الفُضُلُ

٤٣ـ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ   وَفي التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالغَزَلُ

٤٤ـ وَالسّاجِباتُ ذُيولَ الخَزِّ آوِنَةً … وَللرّافِلاتُ عَلى أعْجازِها العِجَلُ

[٩: فَصْلُ الوَعيدِ (الرِّسالَةِ)]١٠

ف١

٤٥ـ أَبْلِغْ يَزيدَ بَني شَيْبانَ مَأْلُكَةً … [أَبا ثُبَيْتٍ/ ١أَما تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ/ ٢

٤٦ـ أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنا … وَلَسْتَ ضائِرَها ما أَطَّتِ الإِبِلُ/ ٣

٤٧ـ تُغْري بِنا رَهْطَ مَسْعودٍ وَإِخْوَتِهِ … عِنْدَ اللِّقاءِ/ ٤فَتُرْدي/ ٥ثُمَّ تَعْتَزِلُ/ ٦

٤٨ـ لَأَعْرِفَنَّكَ (إِنْ جَدَّ النَّفيرُ بِنا/ ٨ … وَشُبَّتِ الحَرْبُ

٤٩ـ كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيَفْلِقَها … فَلَمْ يَضِرْها وَأَوْهى قَرْنَهُ الوَعِلُ/ ٧

٥٠- لَأَعْرِفَنَّكَ(إِنْ جَدَّتْ عَداوَتُنا/ ١٢ … وَالتُمِسَ النَّصْرُ مِنْكُمْ عَوْضُ/ ١٣)تُحْتَمَلُ/ ١١

٥١ـ تُلْزِمُ أَرْماحَ ذي الجَدَّيْنِ سَوْرَتَنا … عِنْدَ اللِّقاءِ/ ١٤فَتُرْديهِمْ/ ١٥وَتَعْتَزِلُ/ ١٦

٥٢ـ لا تَقْعُدَنَّ وَقَدْ أَكَّلْتَها حَطَبًا … تَعوذُ مِنْ شَرِّها يَوْمًا وَتَبْتَهِلُ/ ١٧

٥٣ـ قَدْ كانَ في أَهْلِ كَهْفٍ (إِنْ هُمُ … وَالجاشِرِيَّةِ مَنْ يَسْعى وَيَنْتَضِلُ/ ١٨

ف٢

٥٤ـ سائِلْ بَني أَسَدٍ عَنّا/ ٢٠(فَقَدْ عَلِموا … أَنْ سَوْفَ يَأْتيكَ مِنْ أَنْبائِنا شَكَلُ)/ ٢١

٥٥ـ وَاسْأَلْ قُشَيْرًا وَعَبْدَ اللهِ كُلَّهُمُ/ ٢٢ … وَاسْأَلْ رَبيعَةَ عَنّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ/ ٢٣

٥٦ـ إِنّا نُقاتِلُهُمْ حَتّى نُقَتِّلَهُمْ … عِنْدَ اللِّقاءِ وَهُمْ جاروا وَهُمْ جَهِلوا/ ٢٤

٥٧ـ كَلّا زَعَمْتُمْ بِأَنّا لا نُقاتِلُكُمْ/ ٢٥ … إِنّا لِأَمْثالِكُمْ (يا قَوْمَنا)٢٧ قُتُلُ

٥٨ـ حَتّى يَظَلَّ عَميدُ القَوْمِ مُتَّكِئًا … يَدْفَعُ بِالرّاحِ عَنْهُ نِسْوَةٌ عُجُلُ

٥٩ـ أَصابَهُ هِنْدُوانِيٌّ فَأَقْصَدَهُ … أَوْ ذابِلٌ مِنْ رِماحِ الخَطِّ مُعْتَدِلُ

٦٠ـ قَدْ نَخْضِبُ العَيْرَ مِنْ مَكْنونِ فائِلِهِ … وَقَدْ يَشيطُ عَلى أَرْماحِنا البَطَلُ/ ٢٦

٦١ـ هَلْ تَنْتَهونَ/ ٢٨وَلا يَنْهى ذَوي شَطَطٍ … كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيهِ الزَّيْتُ وَالفُتُلُ / ٢٩

٦٢ـ إِنّي لَعَمْرُ الَّذي خَطَّتْ مَناسِمُها … تَخْدي وَسيقَ إِلَيْهِ الباقِرُ الغُيُلُ

٦٣ـ (لَئِنْ قَتَلْتُمْ عَميدًا لَمْ يَكُنْ صَدَدًا)٣١ … لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَنَمْتَثِلُ

٦٤ـ لَئِنْ مُنيتَ بِنا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ)٣٢ … لَمْ تُلْفِنا مِنْ دِماءِ القَوْمِ نَنْتَفِلُ/ ٣٠

٦٥ـ نَحْنُ الفَوارِسُ يَوْمَ العَيْنِ ضاحِيَةً … جَنْبَيْ فُطَيْمَةَ لا ميلٌ وَلا عُزُلُ/ ٣٣

٦٦ـ قالوا الرُّكوبَ/ ٣٤فَقُلْنا تِلْكَ عادَتُنا   أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنّا مَعْشَرٌ نُزُلُ/ ٣٥].

والأخرى نونيَّةُ جَريرٍ(١)، وقد فصلتها بيا استوعبتها على النحو التالي:

[١: فَصْلُ الْبَيْنِ]

١ـ بانَ الخَليطُ وَلَوْ طُوِّعْتُ ما بانا   وَقَطَّعوا مِنْ حِبالِ الوَصْلِ أَقْرانا
٢ـ حَيِّ المَنازِلَ إِذْ لا نَبْتَغي بَدَلًا   بِالدّارِ دارًا وَلا الجيرانِ جيرانا
٣ـ قَدْ كُنْتُ في أَثَرِ الأَظْعانِ ذا طَرَبٍ   مُرَوَّعًا مِنْ حِذارِ البَيْنِ مِحْزانا
٤ـ يا رُبَّ مُكْتَئِبٍ لَوْ قَدْ نُعيتُ لَهُ   باكٍ وَآخَرَ مَسْرورٍ بِمَنْعانا
٥ـ لَوْ تَعْلَمينَ الَّذي نَلْقى أَوَيْتِ لَنا   أَوْ تَسْمَعينَ إِلى ذي العَرْشِ شَكْوانا
٦ـ كَصاحِبِ المَوْجِ إِذْ مالَتْ سَفينَتُهُ   يَدْعو إِلى اللهِ إِسْرارًا وَإِعْلانا

[٢: فَصْلُ الرَّسولِ]

٧ـ يا أَيُّها الرّاكِبُ المُزْجي مَطِيَّتَهُ   بَلِّغْ تَحِيَّتَنا لُقِّيتَ حُمْلانا
٨ـ بَلِّغْ رَسائِلَ عَنّا خَفَّ مَحْمَلُها   عَلى قَلائِصَ لَمْ يَحْمِلْنَ حيرانا
٩ـ كَيما تَقولَ إِذا بَلَّغْتَ حاجَتَنا   أَنْتَ الأَمينُ إِذا مُسْتَأْمَنٌ خانا
١٠ـ تُهْدي السَّلامَ لِأَهْلِ الغَوْرِ مِنْ مَلَحٍ   هَيْهاتَ مِنْ مَلَحٍ بِالغَوْرِ مُهْدانا
١١ـ أَحْبِبْ إِلَيَّ بِذاكَ الجِزْعِ مَنْزِلَةً   بِالطَّلْحِ طَلْحًا وَبِالأَعْطانِ أَعْطانا
١٢ـ يا لَيْتَ ذا القَلْبَ لاقى مَنْ يُعَلِّلُهُ   أَوْ ساقِيًا فَسَقاهُ اليَوْمَ سُلْوانا
١٣ـ أَوْ لَيْتَها لَمْ تُعَلِّقْنا عَلاقَتَها   وَلَمْ يَكُنْ داخَلَ الحُبُّ الَّذي كانا
١٤ـ هَلّا تَحَرَّجْتِ مِمّا قَدْ فَعَلْتِ بِنا   يا أَطْيَبَ النّاسِ يَوْمَ الدَّجْنِ أَرْدانا

[٣: فَصْلُ المَكيدَةِ]

١٥ـ قالَتْ أَلِمَّ بِنا إِنْ كُنْتَ مُنْطَلِقًا   وَلا إِخالُكَ بَعْدَ اليَوْمِ تَلْقانا
١٦ـ يا طَيْبَ هَلْ مِنْ مَتاعٍ تُمْتِعينَ بِهِ   ضَيْفًا لَكُمْ باكِرًا يا طَيْبَ عَجْلانا

١٧ـ ما كُنْتُ أَوَّلَ مُشْتاقٍ أخي طَرَبٍ ... هاجَتْ لَهُ غَدَواتُ البَيْنِ أَحْزانَا

١٨ـ يا أُمَّ عَمْرٍو جَزاكِ اللهُ مَغْفِرَةً ... رُدّي عَلَيَّ فُؤادي كَالَّذي كانَا

١٩ـ أَلَسْتِ أَحْسَنَ مَنْ يَمْشي عَلى قَدَمٍ ... يا أَمْلَحَ النّاسِ كُلَّ النّاسِ إِنْسانَا

٢٠ـ يَلْقى غَريمُكُمُ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ ... بِالبَذْلِ بُخْلًا وَبِالإِحْسانِ حِرْمانَا

٢١ـ لا تَأْمَنَنَّ فَإِنّي غَيْرُ آمِنِهِ ... غَدْرَ الخَليلِ إِذا ما كانَ أَلْوانَا

٢٢ـ قَدْ خُنْتِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَخْشى خِيانَتَكُمْ ... ما كُنْتِ أَوَّلَ مَوْثوقٍ بِهِ خانَا

٢٣ـ لَقَدْ كَتَمْتُ الهَوى حَتّى تَهَيَّمَني ... لا أَسْتَطيعُ لِهذا الحُبِّ كِتْمانَا

٢٤ـ كادَ الهَوى يَوْمَ سَلْمانَيْنِ يَقْتُلُني ... وَكادَ يَقْتُلُني يَوْمًا بِبَيْدانَا

٢٥ـ وَكادَ يَوْمُ لِوى حَوّاءَ يَقْتُلُني ... لَوْ كُنْتُ مِنْ زَفَراتِ البَيْنِ قُرْحانَا

٢٦ـ لا بارَكَ اللهُ فيمَنْ كانَ يَحْسَبُكُمْ ... إِلّا عَلى العَهْدِ حَتّى كانَ ما كانَا

٢٧ـ مِنْ حُبِّكُمْ فَاعْلَمي لِلْحُبِّ مَنْزِلَةً ... تَهْوى أَميرَكُمُ لَوْ كانَ يَهْوانَا

٢٨ـ لا بارَكَ اللهُ في الدُّنْيا إِذا انْقَطَعَتْ ... أَسْبابُ دُنْياكِ مِنْ أَسْبابِ دُنْيانَا

٢٩ـ يا أُمَّ عُثْمانَ إِنَّ الحُبَّ عَنْ عَرَضٍ ... يُصْبي الحَليمَ وَيُبْكي العَيْنَ أَحْيانَا

٣٠ـ ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا ... تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ القَلْبِ صَدْيانَا

[٤: فَصْلُ الوَجْدِ]

٣١ـ كَيْفَ التَّلاقي وَلا في القَيْظِ مَحْضَرُكُمْ ... مِنّا قَريبٌ وَلا مَبْداكِ مَبْدانَا

٣٢ـ نَهْوى ثَرى العِرْقِ إِذْ لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ ... كَالعِرْقِ عِرْقًا وَلا السُّلّانِ سُلّانَا

٣٣ـ ما أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِمّا تَعْلَمينَ لَكُمْ ... لِلْحَبْلِ صُرْمًا وَلا لِلْعَهْدِ نِسْيانَا

٣٤ـ أَبُدِّلَ اللَّيْلُ لا تَسْري كَواكِبُهُ ... أَمْ طالَ حَتّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْرانَا

٣٥ـ يا رُبَّ عائِدَةٍ بِالغَوْرِ لَوْ شَهِدَتْ ... عَزَّتْ عَلَيْها بِدَيْرِ اللُّجِّ شَكْوانَا

٣٦ـ إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرْفِها مَرَضٌ ... قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيينَ قَتْلانَا

٣٧ـ يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حَتّى لا صِراعَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكانَا

٣٨ـ يا رُبَّ غابِطِنا لَوْ كانَ يَطْلُبُكُمْ ... لاقى مُباعَدَةً مِنْكُمْ وَحِرْمانَا

٣٩ـ أَرَيْنَهُ المَوْتَ حَتّى لا حَياةَ بِهِ   قَدْ كُنَّ دِنَّكَ قَبْلَ اليَوْمِ أَدْيانا

[٥: فَصْلُ الخَيالِ]

٤٠ـ طارَ الفُؤادُ مَعَ الخَوْدِ الَّتي طَرَقَتْ   في النَّوْمِ طَيِّبَةَ الأَعْطافِ مِبْدانا

٤١ـ مَثْلوجَةَ الرِّيقِ بَعْدَ النَّوْمِ واضِعَةً   عَنْ ذي مَثانٍ تَمُجُّ المِسْكَ وَالْبانا

٤٢ـ تُسْتافُ بِالعَنْبَرِ الهِنْديِّ قاطِعَةً   هَمَّ الضَّجيعِ فَلا دُنْيا كَدُنْيانا

٤٣ـ ظَنّي بِكُمْ حَسَنٌ مِنْ خِبْرَةٍ بِكُمُ   فَلا تَكونوا كَمَنْ قَدْ كانَ أَلْوانا

٤٤ـ بِتْنا نَراها كَأَنّا مالِكونَ لَها   يا لَيْتَها صَدَّقَتْ بِالحَقِّ رُؤْيانا

٤٥ـ قالَتْ تَعَزَّ فَإِنَّ القَوْمَ قَدْ جَعَلوا   دونَ الزِّيارَةِ أَبْوابًا وَخُزّانا

٤٦ـ لَمّا تَبَيَّنْتُ أَنْ قَدْ حيلَ دونَهُمُ   ظَلَّتْ عَساكِرُ مِثْلُ المَوْتِ تَغْشانا

[٦: فَصْلُ الرِّحْلَةِ]

٤٧ـ ماذا لَقيتَ مِنَ الأَظْعانِ يَوْمَ قَنًا   يَتْبَعْنَ مُغْتَرِبًا لِلْبَيْنِ ظَعَّانا

٤٨ـ أَتْبَعْتَهُمْ مُقْلَةً إِنْسانُها غَرِقٌ   هَلْ ما تَرى تارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسانا

٤٩ـ كَأَنَّ أَحْداجَهُمْ تُحْدى مُقَفِّيَةً   نَخْلٌ بِمَلْهَمَ أَوْ نَخْلٌ بِقُرّانا

٥٠ـ يا أُمَّ عُثْمانَ ما تَلْقى رَواحِلُنا   لَوْ قِسْتِ مُصْبَحَنا مِنْ حَيْثُ مُمْسانا

٥١ـ تَخْدي بِنا نُجُبٌ دَمّى مَناسِمَها   نَقْلُ الحَزابِيِّ حِزّانًا فَحِزّانا

٥٢ـ تَرْمي بِأَعْيُنِها نَجْدًا وَقَدْ قَطَعَتْ   بَيْنَ السَّلَوْطَحِ وَالرَّوْحانِ صَوّانا

[٧: فَصْلُ الذِّكْرى]

٥٣ـ يا حَبَّذا جَبَلُ الرَّيّانِ مِنْ جَبَلٍ   وَحَبَّذا ساكِنُ الرَّيّانِ مَنْ كانا

٥٤ـ وَحَبَّذا نَفَحاتٌ مِنْ يَمانِيَةٍ   تَأْتيكَ مِنْ قِبَلِ الرَّيّانِ أَحْيانا

٥٥ـ هَبَّتْ شَمالًا فَذِكْرى ما ذَكَرْتُكُمُ   عِنْدَ الصَّفاةِ الَّتي شَرْقِيَّ حَوْرانا

٥٦ـ هَلْ يَرْجِعَنَّ وَلَيْسَ الدَّهْرُ مُرْتَجِعًا   عَيْشٌ بِها طالَما احْلَوْلى وَما لانا

٥٧ـ أَزْمانَ يَدْعونَني الشَّيْطانَ مِنْ غَزَلي   وَكُنَّ يَهْوَيْنَني إِذْ كُنْتُ شَيْطانا

٥٨ـ مَنْ ذا الَّذي ظَلَّ يَغْلي أنْ أزورَكُمُ ... أمْسى عَلَيْهِ مَليكُ النّاسِ غَضْبانَا

[٨: فَصْلُ الْوَعيدِ]

٥٩ـ ما يَدَّري شُعَراءُ النّاسِ وَيْلَهُمُ ... مِنْ صَوْلَةِ الْمُخْدِرِ العادي بِخَفّانَا

٦٠ـ جَهْلاً تَمَنَّوْا حُدائي مِنْ ضَلالِهِمُ ... فَقَدْ حَدَوْتُهُمُ مَثْنى وَوُحْدانَا

٦١ـ غادَرْتُهُمْ مِنْ حَسيرٍ ماتَ في قَرَنٍ ... وَآخَرينَ نَسوا التَّهْدارَ خِصْيانَا

٦٢ـ ما زالَ حَبْلِيَ في أعْناقِهِمْ مَرِسًا ... حَتّى اشْتَفَيْتُ وَحَتّى دانَ مَنْ دانَا

٦٣ـ مَنْ يَدْعُني مِنْهُمُ يَبْغي مُحارَبَتي ... فاسْتَيْقِنَنْ أُجِبْهُ غَيْرَ وَسْنانَا

٦٤ـ ما عَضَّ نابِيَ قَوْمًا أوْ أقولَ لَهُمْ ... إيّاكُمُ ثُمَّ إيّاكُمْ وَإيّانَا

[٩: فَصْلُ الذَّمِّ (الرِّسالَةِ)] [١٢]

ف١

٦٥ـ قُلْ لِلأُخَيْطِلِ [لَمْ تَبْلُغْ مُوازَنَتي/ ١ ... فَاجْعَلْ لِأُمِّكَ أيْرَ الْقَسِّ ميزانَا/ ٢

٦٦ـ إنّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ فيمَنْ أُناوِئُهُ ... لِلنّاسِ ظُلْمًا وَلا لِلْحَرْبِ إدْهانَا

٦٧ـ أحْمي حِمايَ بِأعْلى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي ... مِنْ خِنْدِفٍ وَالذُّرا مِنْ قَيْسِ عَيْلانَا/ ٣

٦٨ـ قالَ الْخَليفَةُ وَالْخِنْزيرُ مُنْهَزِمٌ ... ما كُنْتَ أوَّلَ عَبْدٍ مُحْلِبٍ خانَا/ ٤

٦٩ـ لاقى الأُخَيْطِلُ بِالْجَوْلانِ فاقِرَةً ... مِثْلَ اجْتِداعِ الْقَوافي وَبْرَ هِزّانَا/ ٥

ف٢

٧٠ـ يا خُزْرَ تَغْلِبَ/ ٦ ماذا بالُ نِسْوَتِكُمْ ... لا يَسْتَفِقْنَ إلى الدَّيْرَيْنِ تَحْنانَا/ ٧

٧١ـ لَمّا رَوينَ عَلى الْخِنْزيرِ مِنْ سَكَرٍ ... نادَيْنَ يا أعْظَمَ الْقَسَّيْنِ جُرْدانَا/ ٨

٧٢ـ هَلْ تَتْرُكُنَّ إلى الْقَسَّيْنِ هِجْرَتَكُمْ ... وَمَسْحَكُمْ صُلْبَهُمْ رَحْمانَ قُرْبانَا/ ٩

٧٣ـ لَنْ تُدْرِكوا الْمَجْدَ أوْ تَشْروا عَباءَتَكُمْ ... بِالْخَزِّ أوْ تَجْعَلوا التَّنّومَ ضَمْرانَا/ ١٠]]).

تَفْصِيلُ الْقَصِيدَةِ

[٧] إن للشاعر بالقصيدة حين يقولها لقصدًا إلى إرسال رسالةٍ (مُغَلْغَلَةٍ، مَأْلُكَةٍ) ما، تدل عليها أدلة مختلفة، منها ما يلي:

١ طبيعة القصيدة الخاصة.
٢ سياق القصيدة الشعري.
٣ سياق القصيدة الاجتماعي.

أما دلالة طبيعة القصيدة الخاصة فَأَنْ تَتَفَصَّلَ فُصولها وتَتَوَصَّلَ ظاهرًا وباطنا بحيث تؤدي رسالتها، وأما دلالة سياق القصيدة الشعري في ديوانها وغيره فأن يشتمل على أشباهها اللاتي يغرين بالاطمئنان إلى فهم تلك الرسالة، وأما دلالة سياق القصيدة الاجتماعي في إِرْسالِها وتَلَقِّيها فأن ينص بحال صاحبها ويفهم متلقيها على تلك الرسالة، حتى إن علماء المتلقين إذا صنفوا القصيدة مع غيرها من شعر صاحبها أو غيره وضعوها تحت عنوان باسم تلك الرسالة.

وأولئك المتلقون هنا قسمان: مُرْسَلٌ إليه مقصود هو نفسه بالرسالة، ورَسولٌ حامل لها موكول إليه كثير من أمرها، وكلاهما محتاج إلى أن يَتَأَتّى له الشاعر، وإلا مَلَّ الرسالةَ الرسولُ فلم يُعَنِّ نَفْسَهُ أن يُبَلِّغَها، أو كَرِهَها المرسلُ إليه فلم يقبل أن يَسْمَعَها.

ولقد كان من منهج الشاعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية، أن قسم قصيدته على فُصول: فصل لرسالته، و فصول لعَطْفِ الرسول والمرسل إليه على رسالته ـ وأن جرى على تأخير فصل الرسالة إلى آخر القصيدة ـ وإن فرغ منه أولًا ـ حتى يجد مندوحة ليتأتى إليها ويعطف المتلقين عليها، وحتى تكون آخر ما يُتَلَقّى فَيَبْقى.

فمن ثم ينبغي أن يكون من منهجي أن أقدم النظر في فصل الرسالة الذي بدأ به الشاعران وأؤخر النظر في فصول التأتي التي ختما بها على الحقيقة؛ عسى أن أتبين من مَسيرَتَيْ تَفْكيرَيْهِما ما يستخفي بطيّات نَصَّيهما.

فَصْلُ الرِّسالَةِ

رِسالَتا الشّاعِرَيْنِ

[٨] لقد قصد الأعشى إلى منع «يَزيد» أحد رؤوس بني شيبان، من إيغار صدور «بني سيار» أحد بيوت قبيلته، على «بني كعب» أحد بيوت قبيلة الأعشى، ليقتلوا أحد رؤوسهم برجل منهم مُهْمَلٍ قتلوه - وقصد جرير إلى منع الأخطل شاعر بني تغلب الأكبر من التطاول عليه.

وعلى رغم أنْ ليس هذا المَنْع ببعيد من ذلك - فكلاهما مَنْع من الكلام، ولئن كان كلام يزيد مما يفضي إلى القتال، لقد أفضى كلام الأخطل من قبل إلى مقتلة لم يمل جرير تعييره بها، و«الْكِلامُ مِنَ الْكَلامِ»! - كانت شناعة الذم وسيلة جرير إلى منع خصيمه، وسياسة الوعيد وسيلة الأعشى إلى منع خصيمه، وليس أدل على المتوسل من وسيلته؛ فأما المتوعد فصبور، وأما الذام فغضوب!

مِقْدارا الرِّسالَتَيْنِ

[٩] وعلى حين شغلت رسالة الأعشى اثنين وعشرين بيتًا بنسبة ٣٣٪، من آخر قصيدته التي عدتها ستة وستون بيتًا، وكان فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل عنايته برسالته وجلال شأنها عنده - لم تشغل رسالة جرير غير تسعة أبيات بنسبة ١٢٪، من آخر قصيدته التي عدتها ثلاثة وسبعون بيتا، ولم يكن فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل استهانته برسالته وهوان شأنها عليه، دون إهمال أثر اختلاف الوعيد والذم - مهما اتفقا في المنع السابق - في ذلك؛ ففي الوعيد علاج، وفي الذم بتر!

إِحاطَةُ الرِّسالَتَيْنِ

[١٠] ثم على حين اجتمع الشاعران في بناء أجزاء رسالتيهما على هاتين الجملتين الطلبيتين [«أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبانَ مَأْلُكَةً (...)»، و«قُلْ لِلْأُخَيْطِلِ (...)»]، الخارجتين بمسنديهما [(فعل أمر الإبلاغ)، و(فعل أمر القول)]، مخرج النصيحة إعْذارًا إلى المتلقين، وبالمسند إليه الواحد فيهما (ضمير المخاطب غير المعين الحضور) مخرج التأنيب على الصمت والصبر الموضوعين في غير موضعهما متى كان المتكلم هو المخاطب على جهة التجريد، أو مخرج التَّسْميع بين الناس الذين لا يتناقلون شيئًا كما يتناقلون رسائل بعضهم إلى بعض ولا سيما إذا تَواصَوْا بكتمانها، متى كان المخاطب غير المتكلم - أَلْطَفَ الأعشى

وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بتقديم كلمة «مَأْلَكَةً» قبلها بحيث كانت تفريعًا عنها وتبيينًا لها وبدلًا منها، والمألكة هي الرسالة التي لا تكون عادة إلا بين الإخوان الحريصين على التواصل في البعد كالتواصل في القرب، تذكيرًا له بحقه عليه عسى أن يجيبه إلى ما يستحق ـ وأَقْذَعَ جرير وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بمباشرتها بفعل القول، تنكيلًا به وتحييرًا له عن وجوه الجواب!

ذِكْرُ الخَصيمَيْنِ

[١١] ومهما يكن مُتَّجَهُ ضمير المخاطب فقد عزف الأعشى عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الوعيد إليه، وأَلْطَفَ ذِكْرَهُ له باسمه مضافًا إلى قومه «(...) يَزِيدَ بَني شَيْبانَ»، تذكيرا له بحقهم عليه ألا يهلكهم كِفاءَ ما سَوَّدوه عليهم، كما عَرَّف اسمَه المضافَ بعدما ذهبت عنه عَلَمِيَّتُهُ اسمُهُمُ المضافُ إليه[٦٣]، حتى تجلى ما في عزوفه عن مواجهته من استبقائه والحرص عليه. وعزف جرير عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الذم إليه، وأقذع ذِكْرَهُ بلقبه مصغرا «(...) للأُخَيْطِل»، الذي نبز به «لسفهه واضطراب شعره»[٦٤]، تحقيرًا له وحَطًّا منه، حتى تجلى ما في عزوفه عن مواجهته من اطراحه والزهد فيه.

اسْمُ رِسالَةِ الأَعْشى

[١٢] وعلى حين اجتمع الشاعران بإطاري التبليغ والتَّحْديث اللذين في جملتيها الأوليين، على أن تتضمنا ما بعدهما على نحوٍ ما وتستوليا عليه كما يتضمن الإطار ما فيه ويستولي عليه؛ فتتوثق بذلك علاقة أجزاء الرسالة بعضها ببعض على أحسن ما يتمنى مُرْسِلٌ حريص على كلمته إلى المتلقي ـ استفاد الأعشى من جواز انقطاع ما بعد «مألكة» منها وحمله على الاستئناف، ما يتيحه ذلك لكل جزء من أجزاء رسالته من خصوصية تبدو بها حَمّالة وجهين من اللين والقسوة مُلْتَبِسَيْنِ!

ومهما تكن شدة إطار الجملة الأولى المحيط بأجزاء الرسالة، فلا غنى عن كسره وفحصها، ولا سيما أنها تفتقر فيما بينها هي إلى مقدار من التجاذب الباطني والظاهري يُقيم صُلْبَها، ولا يتركها لذلك الإطار أشتاتًا متنافرة ضعيفة التأثير.

تَقْسيمُ أَجْزاءِ الرِّسالَتَيْنِ

[١٣] لقد جمع بين الشاعرين المنع الذي أتاه؛ فإنه لما اقتضى (الوعيدُ = الذمُّ) (متوعَّدًا = ذامًّا) و(متوعَّدًا = مذمومًا) و(شُهودًا) تَحَوِلُ مِنْ كُلٍّ منهما أو إليه وتحكم له أو عليه وإلا تَناقَتْ أفعالُهما وضاعت بينهما رسالة الوعيد أو الذم، قَسم الشاعران أجزاء

رسالتيها على ثلاثة الأقسام المنطقية السابقة؛ فجعل الأعشى أجزاء رسالته الخمس والثلاثين جملة[١٠]: عشر جمل منها لنفسه هو منضمًا إليه أحيانًا قومه (٢٩٪)، وسبع عشرة جملة منها ليزيد منضمًا إليه أحيانًا قومه كذلك (٤٩٪)، وثماني جمل منها للشهود (٢٣٪) - وجعل جرير أجزاء رسالته العشر الجمل: سبع جمل منها للأخطل وقومه (٧٠٪)، وجملتان اثنتان منها له هو وحده (٢٠٪)، وجملة واحدة منها للشهود (١٠٪).

ولكن كانت لمنهجي الشاعرين في تقسيم الجمل على أصحابها، اللذين يتحرك بهما تفكيرهما، معالم تحتاج إلى فضل تأمل فيما يلي.

أَصْحابُ الْأَقْسامِ

[١٤] لقد أدار الأعشى على خصيمه يزيد سبع عشرة جملة (٤٩٪) مسندة إلى ضمير خطابه، وعلى نفسه عشر جمل (٢٩٪) مسندة إلى ضمير تكلمه، وعلى الشهود ثماني جمل (٢٣٪) مسندة إلى أسماء القتال والمقاتلين المعرفة بأل والموصولة وضمائر غيبتهم. وأدار جرير على خصيمه الأخطل سبع جمل (٧٠٪) مسندة أربع مرات إلى ضمير خطابه، و مرة إلى لقبه المنبوز به، ومرة إلى اسم استفهام عن بعض هموم قومه الخبيثة، ومرة إلى ضمير غيبته - وعلى نفسه جملتين اثنتين (٢٠ ٪) مسندتين إلى ضمير تكلمه، و على الشهود جملة واحدة (١٠٪) مسندة إلى معرف بأل.

لقد أدارا جميعًا أكبر أقسام أجزاء رسالتيهما على خصيميهما، ولكنهما اختلفا في نسبة تلك الأكبرية فكانت عند جرير أكبر منها عند الأعشى، وما ذلك إلا من انصراف جرير إلى التنكيل بخصيمه وتحييره عن وجوه الجواب وإخراسه أمام المتلقين، وتمسك الأعشى بتنبيه خصيمه إلى أنه يعاند الدنيا كلها بما ينتوي لا الأعشى وقومه وحدهم، وشتان ما هما!

لقد كان التوفيق إلى أخبث التهم والسباب والشتائم والتَّعاير والتَّغايظ، هو هَمَّ جرير اللازم في أجزاء رسالته، حتى كاد لا يدع لغيرها مكانا إلا أن يكون من بابتها، كما فيما اختاره للشهادة على ما بينه وبين خصيمه؛ فقد كان مقالةً للخليفة نفسه في سب خصمه، إن تكن أخف إقذاعًا يكفها أن تكون مقالة الخليفة المسموع المتبوع.

ولقد خُيِّلَ لي الأعشى بإلحاحه على إسناد جمل خصيمه إلى ضمير خطابه، أن جملةَ الإطار الآنفة الذكر «أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبانَ مَأْلُكَةً (...)»، هي نفسها مسندةٌ إلى ضمير خطاب يزيد نفسه كذلك، وكأنه بما طمع فيه وطمح إليه غافل عن حقيقة نفسه؛ فأراد الأعشى أن يريه إياها في مرآته، ولسان حاله يقول: نبه نفسك، وهذا ألطفُ تأتيا إلى إنجاز المراد!

تَتابُعُ الأَقْسامِ

[١٥] وعلى حين حرص الأعشى على مزج جمل كل طرف من أطراف أجزاء رسالته (يزيد، الأعشى، الشهود) بجمل غيره سريعًا ومدافعتها ومنافاتها لكيلا تنفرد بمجال الصراع فتقطع بمعنى واحد يفسد عليه مراده من وعيده؛ فبدأ بندائه ليزيد حتى ينتبه إلى ما سيقوله له، وختم بمقالته لبعض خصومه حتى يرتدعوا، ووالى الجمل بين البدء والختم على النحو التالي:

الأعشى (١) - يزيد (٢، ٣، ٤، ٥، ٦) - الأعشى (٧) - القتال (٨، ٩، ١٠) - الأعشى (١١، ١٢) - يزيد (١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧) - القتال (١٨، ١٩) - يزيد (٢٠) - القتال (٢١) - يزيد (٢٢، ٢٣) - الأعشى (٢٤) - يزيد (٢٥) - الأعشى (٢٦، ٢٧) - يزيد (٢٨) - القتال (٢٩) - الأعشى (٣٠) - يزيد (٣١، ٣٢) - الأعشى (٣٣) - القتال (٣٤) - الأعشى (٣٥).

- لم يعبأ جرير بظهور جمل طرف من أطراف أجزاء رسالته (الأخطل، جرير، الشهود)، على غيره، وانفراده بمجال الصراع الذي لا فخر فيه لفاخر، بل لا شيء غير العار؛ فبدأ وختم بنفي القدرة عن خصيمه، ووالى بين البدء والختم الجمل على النحو التالي:

الأخطل (١، ٢) - جرير (٣) - الشهود (٤) - الأخطل (٥) - جرير (٦) - الأخطل (٧، ٨، ٩، ١٠).

أَزْمانُ الأَجْزاءِ

[١٦] ثم على حين وجه الأعشى أكثر جمله (٨٣٪) إلى المستقبل وأقلها إلى الماضي (١٧٪)، وجه جرير نصف جمله إلى المستقبل وقرابة نصفها إلى الماضي.

إن المصيبة عند الأعشى مخشية لم تقع بعد، فإن فعل خصيمه شيئًا غدًا فعل هو مثله أو أشد منه، وشهد القتال عندئذ للمُحق على المُبطل، وفي الوقعات السالفة منهم لأعدائهم شاهد عدل لا يكذب، فأما صغائر الجَهَلات الواقعة فينبغي للرؤساء أن يغضوا عنها ولا يُكَبِّروها؛ وفي سبيل ذلك تلطف الأعشى غاية التلطف؛ فأخرج جملا كثيرة ملتبسة الأزمنة:

فمنها ما ظاهره الحاضر المستمر ولكن باطنه مستقبل منتظر، كما في الجمل ٤ - ٦ «تُغْري بِنا (...)»، «تُرْدي»، «تَعْتَزِلُ»؛ فربما أيقن من بلغه ما كان من يزيد حقا أن الأعشى أراد هذا الحاضر، ولكنَّ في طَرَفِ الجملة الأولى ظرفًا هو «عند» مضافًا إلى شيء

لم يحدث بعد هو ((اللقاء))، كفيلًا بصرف من لم يبلغه ما كان من يزيد عن الحاضر إلى المستقبل.

ومنها ما ظاهره الماضي المنقطع ولكن باطنه مستقبل منتظر، كما في الجملة ١٨ ((قَدْ كانَ في أَهْلِ كَهْفٍ (...) وَالجاشِرِيَّةِ مَنْ يَسْعى وَيَنْتَضِلُ))؛ فربما ظن المتلقي سريعًا أن الأعشى يمتدح هؤلاء القوم بما استمر من فرسانهم ورماتهم قديما، ولكن الأعشى يرمي بين طيات هذه الجملة جملة شرط ماضوية ظاهرا مستقبلية باطنًا هي ١٩ ((إِنْ هُمُ قَعَدوا)) قبلها أداة شرطها المستغنية عن جوابها بما اعترضته؛ فيرتد المتلقي إلى نفسه ويتبين أنهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك، وأن الأعشى يريدهم ألا يفعلوا، أو يمدحهم بأنْ لَنْ يفعلوا.

ومنها ما ظاهره الحاضر المستمر أو المستقبل المنتظر وباطنه الماضي المنقطع، كما في الجملة ٢٤ ((إِنّا نُقاتِلُهُمْ حَتّى نُقَتِّلَهُمْ عِنْدَ اللِّقاءِ وَهُمْ جاروا وَهُمْ جَهِلوا))؛ فربما ظن المتلقي أن بين الأعشى وقومه وبين هؤلاء الجائرين الجاهلين الذين يتحدث عنهم بهذه الجملة، حربا مشتعلة الآن أو غدًا، ولا سيما أن ((أل)) التي في ((اللِّقاء)) في سياق الفعل المضارع، يجوز أن تكون عهدية متجهة إلى الآن، وأن تكون جنسية متجهة إلى الغد - حتى إذا ما وضعها المتلقي في سياقها بعد الجملة ٢٣ السابقة لها ((اسْأَلْ رَبيعَةَ عَنّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ))، كانت أل عهدية متجهة إلى الماضي؛ فعلم أنه أراد سابق حربهم لهم.

ومنها ما ظاهره الإطلاق من حدود الزمان وباطنه ماض منقطع، كما في الجملة ٣٣ ((نَحْنُ الْفَوارِسُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضاحِيَةً جَنْبَيْ فُطَيْمَةَ لا مِيلٌ وَلا عُزُلُ))؛ فربما تُلُقِّيَتْ مُطْلَقَةً على أنها أصل راسخ لا يتغير، تَمَدَّحَ فيها الأعشى بثباتهم وكمالهم، ثم انْتُبِهَ إلى ما في أول أحوال الخبر من تقييد ذلك بزمان ((يَوْمَ العَيْنِ)) الماضي.

وفي ذلك من سياسة المتلقين مهارة واضحة؛ فربما حَمَلَتِ المتوعَّد وغيرَه فظاظةُ المتوعِّد على إهمال الوعيد واحتقاره واطِّراحه؛ فلم يَخْلُ مِنْ وعيده بطائل؛ فَشَدَّ الأعشى وأرخى وأظْهَرَ وأخفى وداری وماری؛ فلم يكن لجاهل مُتَفَلِّتٍ مُغامِرٍ غِرٍّ مُنْخَدِعٍ مُنْدَفِعٍ أن يفهمه سريعًا، حتى يكون العالِمُ الحكيمُ الرَّزينُ الرَّجيح هو الذي يخبره بمراده وبجوابه إليه في وقت واحد معًا!

وإن المصيبة عند جرير - إن كانت ثَمَّ مصيبة! - هي هي في الماضي والمستقبل؛ فَعَظامَةُ جرير التي بعثته بشريف الخصال وحملته على كريم الفعال، لن تزال تحمله عليها، وحَقارَةُ خصيمه التي بعثته بوضيع الخصال وحملته على لئيم الفعال، لن تزال تحمله عليها، ولا مَنْدوحةَ لغير ذلك؛ فالطبع غلاب، ولا أمل في غير ذلك؛ ((وَتَأْبى الطِّباعُ عَلى النّاقِلِ))! وفي سبيل ذلك مضى جرير مُصَرِّحًا غير مضطر إلى تلطف الأعشى، غير أنه أخرج جملته الثالثة التي كانت محور فقرته الأولى ((إِنّي امْرُؤٌ (...) عَيْلانا))، بحيث اجتمع

فيها الزمنان المستوليان على أجزاء رسالته؛ فوجه نعتها الأول «لَمْ أُرِدْ (...)» جهة الماضي، ونعتها الآخر «أَحْمِي حِمَايَ بِأَعْلَى المَجْدِ مَنْزِلَتِي (...)» جهة الحاضر المستمر إلى المستقبل؛ فبدا الزمان فيها كليًّا فَوْقيًّا، ولا سيما أن جملة النعت الآخر تحتمل كما سبق، أن تكون حالا من أي من ضميري [«لَمْ أُرِدْ»، و«أُنَاوِئُهُ»].

تَصَدُّرُ المُتَكَلِّمَيْنِ

[١٧] ثم اجتمع الأعشى في أربع جمل (١١٪) وجرير في جملة واحدة (١٠٪)، على صرف المتلقي عن تلك الأزمان قليلا إلى الإنسان بتصدير المسندات إليها فيها وتحويلها هي وحدها من الفعلية المستولية على سائر الجمل، إلى الاسمية:

قال الأعشى:

٢٤ «إِنَّا نُقَاتِلُهُمْ (...)».

٢٦ «إِنَّا لِأَمْثَالِكُمْ (...) قُتُلٌ (...)».

٣٠ «إِنِّي لَعَمْرُ الَّذِي (...) لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ مِنْكُمْ (...)».

٣٣ «نَحْنُ الفَوَارِسُ (...)».

وقال جرير:

٣ «إِنِّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ (...) أَحْمِي حِمَايَ (...)».

ولم يكن المُصَدَّر فيها كلها غير ضمير تكلم الشاعرين وكأنما انحصرت فيها وحدهما حقيقة الإنسان الفاعل، فأما خصيماهما فربما دعتهما إلى الفعل - إمّا فَعَلا - دواعٍ خارجة عن حقائقهما.

لقد كان الأعشى مَعْنِيًّا بأساليب سياسة الناس مُعْجَبًا بخبرائها الموفقين إلى مساعيهم على رغم المكر والحرج(٣٦)؛ فوجب الانتباه إلى ما في تأخيره لهذه الجمل ولا سيما الجملة ٣٣ إلى أواخر أجزاء الرسالة، من مندوحة التمهيد لها بما قبلها، لكيلا ينقلب الفخر على الفاخر ولا ينجز الوعيد مراده!

ثم قد ميز منها الجملة الثالثة ٣٠، بإفراد المسند إليه «إِنِّي»، على رغم رجوع الضمير إليه من جملة المسند مجموعًا «لَنَقْتُلَنْ». إن الأعشى هو الغاضب في هذه القصيدة لا غيره، وربما ركن يزيدُ المتوعَّدُ إلى ألّا فعلَ ولا قدرةَ على شيء لشخص واحد مهما كان غضبه؛ فنبهه الأعشى بضمير تكلمه في «إِنِّي» على أنه السيد المطاع في قومه، وبضمير تكلمه مع قومه في «لَنَقْتُلَنْ» على أن قومه لن يتركوه؛ فمن العقل ألا يغري يزيد المُتَوَعَّدُ أولياءَ المقتول المهمل بأن يقتلوا به أحد رؤساء قوم الأعشى، وإلا انتصف الأعشى منه ومنهم وانتصر.

ثم قد ميز منها كذلك الجملة الرابعة الأخيرة ٣٣، بإخلائها من أداة التوكيد «إنَّ»؛ فخرجت في ظاهرها مخرج النتيجة التي لا تحتاج إلى اجتهاد، ولكنها في باطنها مقدمة ما سبقها من هذه الجمل؛ فلو لم يستقر في قلوب الأعشى وقومه أنهم الفوارس الذين تجلت عن قدرتهم وغلبتهم الحروب، لم يجترئ على الوعيد.

أما جرير فقد كان خبيرا بإيذاء الناس، وليس آذى لهم من إنكار حقائقهم وإثبات أباطيل غيرهم أو حقائقهم؛ فوجب الانتباه إلى تقديمه لنفسه وحده في الجملة ٣ وإهماله لغيره، ثم لإعادته ضميري جملتي النعتين بالتكلم المناسب للمسند إليه المُصَدَّر «إنّي»، بدلًا من الغيبة المناسبة للمنعوت القريب «امْرُؤٌ»، حتى ملأ الجملة بنفسه الممتلئة بنفسها!

تَفْقيرُ الْفَصْلَيْنِ

[١٨] ولقد أكمن الشاعران للمتأمل وراء جمل أجزاء رسالتيهما، فقرتين متقابلتين:

كانت الفقرة الأولى عند الأعشى من الجمل التسع عشرة الأولى (١ ـ ١٩)، في تحقير ما عليه يزيد، وقد شَغَلَتْ تسعة الأبيات الأولى، وكان مِحْورها الذي دارت في فلكه منجذبةً إليه قَسَم الأعشى أنَّ يزيد خاذل من يغريهم بالقتل ـ لا محالة ـ بقوله:

لَأَعْرِفَنَّكَ إنْ جَدَّ النَّفِيرُ بِنا ... وَشُبَّتِ الحَرْبُ بِالطُّوّافِ وَاحْتَمَلُوا

كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيَفْلِقَها ف ... لَمْ يَضِرْها وَأَوْهى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

لَأَعْرِفَنَّكَ إنْ جَدَّتْ عَداوَتُنا و ... الْتُمِسَ النَّصْرُ مِنْكُمْ عَوْضُ تُحْتَمَلُ.

وكانت الفقرة الأولى عند جرير من الجمل الخمس الأولى (١ ـ ٥)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت خمسة الأبيات الأولى، وكان محورها الذي دارت في فلكه نفي جرير الظلم عن نفسه وإثبات الجرأة والحماية، بقوله:

إنّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ فيمَنْ أُناوِئُهُ ... لِلنّاسِ ظُلْمًا وَلا لِلْحَرْبِ إذْعانا

أَحْمي حِمايَ بِأَعْلى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي ... مِنْ خِنْدِفٍ وَالذُّرا مِنْ قَيْسِ عَيْلانا

وكانت الفقرة الآخرة عند الأعشى الجمل الست عشرة الأخرى (٢٠ ـ ٣٥)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت الثلاثة عشر بيتا الأخيرة، وكان مِحْورها الذي درات في فلكه منجذبةً إليه قَسَم الأعشى أنه مُنْتصفٌ ـ لا محالة ـ مِنْ يزيد ومَنْ أطاعه، إذا مضى إغراؤه، بقوله:

إنّي لَعَمْــرُ الَّــذي خَطَّــتْ مَناسِــمُها ... تَخْــدي وَســيقَ إلَيْــهِ الْبــاقِرُ الْغُيُــلُ

لَــئِنْ قَتَلْــتُمْ عَميــدًا لَمْ يَكُــنْ صَــدَدًا ... لَنَقْــتُلَنْ مِثْلَــهُ مِــنْكُمْ فَنَمْتَثِــلُ

لَــئِنْ مُنيــتَ بِنــا عَــنْ غِــبِّ مَعْرَكَــةٍ ... لَمْ تُلْفِنــا مِــنْ دِمــاءِ الْقَــوْمِ نَنْتَفِــلُ

وكانت الفقرة الآخرة عند جرير الجمل الخمس الآخرة (٦ ـ ١٠)، في تحقير ما عليه الأخطل، وقد شغلت أربعة الأبيات الأخيرة، وكان محورها الذي دارت في فلكه منجذبة إليه تأبيد نفي جرير إدراك المجد عن الأخطل، بقوله:

لَــنْ تُــدْرِكوا الْمَجْــدَ أَوْ تَشْروا عَبــاءَتَكُمْ ... بِــالْخَزِّ أَوْ تَجْعَلــوا التَّنّــومَ ضَــمْرانا.

الْفِقَرُ وأبْياتُها

[١٩] لقد اجتمع الشاعران بتقسيم جمل أجزاء رسالتيهما على فقرتين، على ملاءمة ظاهرة الازدواج الإيقاعي الطبيعية من حولهما، وكأن آخرة الفقرتين صدى صوت أولاهما المُجيبُ، وَصْلًا للمتلقي بمجرى رسالتيهما؛ عسى أن يتأمل أجزاءهما، ويطابق بعضها ببعض، تحصيلًا لمقصديها.

واجتمعا كذلك على زيادة نصيب فقرة تعظيم كل منهما لما هو عليه من الأبيات على قرينتها، ترويجا لقوة ما هما عليه (الصوت الداعي) وضعف ما خصيماهما عليه (الصدى المجيب). ولكنهما افترقا فيما وراء ذلك:

مَنازِلُ الْفِقَرِ

[٢٠] فعلى حين قدم الأعشى فقرة تحقير ما عليه خصيمه على فقرة تعظيم ما هو عليه؛ فدل على أن حقارة ما عليه يزيد هي التي حملته على تعظيم ما هو عليه، ولولا تلك ما كان هذا ـ قدم جرير فقرة تعظيم ما هو عليه على فقرة تحقير ما عليه خصيمه؛ فدل على أن عظمة ما هو عليه هي التي حملته على تحقير ما عليه خصيمه، ولولا تلك ما كان هذا!

لقد أراد الأعشى لنفسه ولخصيمه السلامة؛ فنفث في روعه أخيرًا ألا قدرة له عليه، وأراد جرير لخصيمه الندامة؛ فقذف في أذنه أخيرًا ألا خير له في نفسه!

مِحْوَرا فِقْرَتَيِ الْأَعْشى

[٢١] ثم أقسم الأعشى في جملة محور فقرته الأولى، على ما لا يملك من خذلان يزيد، مثلما أقسم في جملة محور فقرته الآخرة، على ما يملك من الانتصاف منه، وأخرج المقسم عليه فيهما جميعًا جملتين منسلكتين في جملة قسمية واحدة على النحو التالي:

أما الجملتان في الفقرة الأولى [«لَأَعْرِفَنَّكَ (...)» و«لَأَعْرِفَنَّكَ (...)»]، فقد كانتا جميعًا جوابين متعاطفين بعاطف محذوف موضعه قبل «لَأَعْرِفَنَّكَ (...)» الآخرة، لقسم واحد محذوف، وكادت الآخرة منهما تكون توكيدا لفظيا للأولى لولا بعض مكملاتهما، والتوكيد اللفظي بمنزلة الصدى الحاكي والمؤكد قبله بمنزلة الصوت المحكي.

وأما الجملتان في الفقرة الآخرة [«لَتَقْتُلُنَّ (...)» و«لَمْ تُلْفِنا (...)»]، فقد كانتا جميعًا جوابين متعاطفين بعاطفٍ محذوفٍ مَوْضِعُهُ قَبْلَ «لَئِنْ مُنيتَ (...)»، لِقَسَمٍ واحِدٍ مذكورٍ «لَعَمْرُ الَّذي (...)» في خبر اسم إن في «إِنّي (...)» المحيطة بالجملة القسمية كلها مهما تعددت أجوبتها.

ثم علق الأعشى أجوبة جملتيه القسميتين جميعًا بشروط وقوعها؛ فاعترض جملته القسمية في الفقرة الأولى بقوله: «إِنْ جَدَّ النَّفيرُ (...)»، في أثناء جوابها الأول، وقوله: «إِنْ جَدَّتْ عَداوَتُنا (...)» في أثناء جوابها الآخر، واعترض جملته القسمية في الفقرة الآخرة بقوله: «إِنْ قَتَلْتُمْ عَميدًا (...)»، في أثناء جوابها الأول، وقوله: «إِنْ مُنيتَ بِنا (...)» في أثناء جوابها الآخر، وجعل اعتراضاته كلها بجمل شرطية فعلية ماضوية لا أداة لها غير «إِنْ».

ولا اعتراض على هذا التخريج بامتناع نفي المضارع بلم في جواب القسم «لأنهم ينفونه بها يجوز حذفه للاختصار (...)، والعامل الحرفي لا يحذف مع بقاء عمله، وإن أبطلوا العمل لم يتعين النافي المحذوف»[١٧] ـــ الذي يقتضي جَعْلَ جواب القسم «لَمْ تُلْفِنا...»، جواب الشرط قبله «لَئِنْ مُنيتَ بِنا (...)»؛ فمراعاة واقع اتساق الشعر على ما تبين آنفا أهم من مراعاة جواز حذف النافي من جواب القسم، ثم قد يكون هذا التركيب مما وقع شاذا في هذا الباب[١٨].

ثم لا اعتراض على هذا التخريج أيضًا برواية البيت على النحو التالي:

لَــئِنْ مُنِيــتَ بِنــا عَــنْ غِــبِّ مَعْرَكَــةٍ   لا تُلْفِنــا مِــنْ دِمــاءِ الْقَــوْمِ نَنْتَفِــلُ

شاهدًا ((على أنه يجوز بقلة في الشعر أن يكون الجواب للشرط مع تأخره عن القسم؛ فإن لام (لَئِنْ) موطئة للقسم، وقوله: (لا تلفنا) جواب الشرط دون القسم، بدليل الجزم))[39]؛ ففضلا عن أنَّ من أصول اللغة ألّا تُسْقِطَ رِوايَةٌ رِوايَةً، ينبغي أن تحمل هذه الرواية متى صحت، على أنها من تقصير ياء المد الطويلة[40]، وألا جزم ثَمَّ ولا جواب للشرط إلا المحذوف المدلول عليه بجواب القسم؛ هذا ما يقتضيه اتساق الشعر كذلك.

ولقد أحاط الأعشى جملته القسمية في الفقرة الأولى ببيتين كأنهما من تشابههما ظاهرا وباطنا بيت واحد، هما قوله:

تُغْــرِي بِنــا رَهْــطَ مَسْــعودٍ وَإِخْوَتِــهِ   عِنْــدَ اللِّقــاءِ فَــتُرْدِي ثُــمَّ تَعْتَــزِلُ
تُلْــزِمُ أَرْمــاحَ ذي الجَــدَّيْنِ سَــوْرَتَنا   عِنْــدَ اللِّقــاءِ فَــتُرْديهِمْ وَتَعْتَــزِلُ

ففعل إلزامه سورتهم في اللاحق مجاز عن فعل إغرائه بهم في السابق، وأرماح ذي الجدين في اللاحق مجاز عن رهط مسعود وإخوته في السابق، والظرف ومضافه ((عِنْدَ اللِّقاءِ)) هما هما فيهما، وأداة العطف ((الفاء)) هي هي فيهما، وفعل إرْدائه هو هو فيهما، وضمير المُرْدَيْنَ في اللاحق محذوف من السابق مفهوم سريعًا برجوعه إلى رهط مسعود، والعاطف ((الواو)) في اللاحق بمنزلة العاطف ((ثم)) في اللاحق، وفعل اعتزاله هو هو فيها ـ فأغرق جملته القسمية الأولى في دُوّامة التكرار، على حين لم يفعل مثل ذلك بجملته القسمية الآخرة.

ولكن مع ذلك كله تظل جملة الأعشى القسمية الأولى فعليةً قطبُ حركتها فعله المتصدر فيها تقديرا ((أُقْسِمُ)) حتى إنه لما حُذِفَ تَصَدَّرَ جملتي جوابها فعلاه ((أَعْرِف (...) أَعْرِف)) كذلك، إيهاما بأن فعل خصيمه هو أصل كل تحقير عسى أن يُغَيَّرَ، على حين جملتُهُ القسميةُ الآخرة اسمية قطبُ حركتها اسمه (ضميره) المتصدر فيها ((إني))، إيهاما بأنه هو أصل كل تعظيم عسى أن يُتَمَسَّكَ به!

ثم إن الأعشى بالغ في تقصير جملة القسم من الجملة القسمية الأولى، حتى حذفها مكتفيا بلام القسم في [((لَأَعْرِفَنَّكَ (...)))، و((لَأَعْرِفَنَّكَ (...)))]، على حين بالغ في ذكر

جملة القسم من الجملة القسمية الأخرى ((لَعَمْرُ الَّذي (...))، حتى شغلت بيتا كاملا، مستبدلا بالمقسمِ به البيتِ الحرام اسمًا موصولا ذَكَرَ في صِلَتِهِ طَرَفًا من مناسك الحج إليه.

ثم مَيَّزَ الأعشى جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الأولى بما أطال من بيان المقسم عليه فيها بأنه ((كَناطِحٍ صَخْرَةً (...)) حتى شغل بيتًا كاملًا صار به مثلًا شرودًا، على حين اكتفى في جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الآخرة بأن المقسم عليه سيكون ((مِثْلَهُ مِنكُمْ)).

ثم رمى الأعشى الاعتراض في الجملة القسمية الأولى بين أجزاء جملتي جوابها [((لَأَعْرِفَنَّكَ - إِنْ جَدَّ (...) - كَناطِحٍ (...))، و((لَأَعْرِفَنَّكَ - إِنْ جَدَّتْ (...) - تَحْتَمِلُ))]؛ فكان اعتراضًا لها من خلال اعتراض جملتي جوابها، على حين جعل الاعتراض في الجملة القسمية الآخرة قبل كلٍّ من جملتي جوابها [((إِنْ قَتَلْتُمْ (...) - لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ))، ((إِنْ مُنيتَ بِنا (...) - لَمْ تُلْفِنا (...))]؛ فكان اعتراضًا لها هي لا لجملتي جوابها.

ثم جعل الأعشى اعتراضه في الجملة القسمية الأولى، بخمس جمل: ثلاث [((جَدَّ النَّفيرُ بِنا))، ((شُبَّتِ الْحَرْبُ))، ((احْتَمَلوا))]، ثم اثنتان [((جَدَّتْ عَداوَتُنا))، ((الْتُمِسَ النَّصْرُ مِنكُمْ))]، على حين جعل اعتراضه في الجملة القسمية الآخرة، بجملتين: واحدة ((قَتَلْتُمْ عَميدًا لَمْ يَكُنْ صَدَدًا))، ثم واحدة ((مُنيتَ بِنا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ)).

مِحْوَرا فِقْرَتَيْ جَرير

[٢٢] ثم أقبل جرير يميز جملتي محوري فقرتيه بعضهما من بعض على النحو التالي:

أولًا: أسند جرير أولاهما إلى ضمير تكلمه ((إِنّي (...))) والآخرة إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه ((لَنْ تُدْرِكوا (...))) على غير ما فعل الأعشى؛ فلم تكن به رغبة في تغيير حال خصيمه وقومه إلى أحسن منها، بل في كبتهم بسوئها فلا تقوم له منهم قائمة أبدًا، ثم في جعل نفسه بضمير تكلمه خصيمهم بضمير خطابهم دلالة للمتلقي على أنه وحده كفاؤهم جميعًا معًا.

ثانيًا: قدم جرير المسند إليه في جملة الفقرة الأولى على المسند وجعلها اسميةً قطبُ حركتها اسمه (ضميره)، إيهاما بأنه هو أصل كل تعظيم وحَرِيٌّ بأن يقدر قدره، على حين صَدَّرَ الفعل في جملة الفقرة الآخرة وجعلها فعليةً قطبُ حركتها فعل خصيمه وقومه المنفي عنهم، إيهاما بأن أفعالهم هي أصل كل تحقير وحرية بأن تُغَيَّرَ! ولما كان قد عَكَسَ ترتيب الأعشى لفقرتيه، كان في هذا الوجه من التمييز جاريا مجراه.

ثالثًا: زاد جرير جملة الفقرة الأولى تركيبًا دون جملة الفقرة الآخرة، وحسبي أن أجد الجملة الأولى مبسوطة على بيتين والأخرى مقبوضة في بيت واحد، على حين بسط الأعشى قرينتيها عنده كلا منهما على ثلاثة أبيات.

لقد أسند في جملة فقرته الأولى إلى ضمير تكلمه نكرةً مشهورةً بالتمهيد للكلام «امْرُؤٌ»، تتيح له أن يضيف إليها ما يتيسر له شيئًا فشيئا، ثم نعتها بجملة أسند فيها إلى ضمير تكلمه معنى العدل والشجاعة «لَمْ أُرِدْ (...)»، ثم بجملة أسند فيها إلى ضمير تكلمه كذلك معنى الحماية والمجد «أَحْمِي (...)»، تحتمل أن تكون حالًا من أحد ضميري تكلمه اللذين في جملة النعت السابقة [«لَمْ أُرِدْ (...)»، و«أُناوِئُهُ (...)»] ولا سيما الآخر، وجعل فيها جارًا ومجرورًا «بِأَعْلى الْمَجْدِ» يحتمل أن يكون حالًا من المضاف في «حِمايَ» قبله، وأن يكون خبرًا مقدمًا على مبتدئه والمعطوف عليه «مَنْزِلَتي (...) وَالذُّرا (...)» في جملة حال من فاعل «أَحْمي» أو المضاف إليه في «حِمايَ» الذي مضافه بمنزلة جزئه، وهو الأرجح لإلحاحه على التقديم والتأخير في جملة هذه الفقرة كلها:

١ «ظُلْمًا لِلنّاسِ = لِلنّاسِ ظُلْمًا»،

٢ «إِذْهانًا لِلْحَرْبِ = لِلْحَرْبِ إِذْهانا»،

٣ «مَنْزِلَتي (...) بِأَعْلى الْمَجْدِ = بِأَعْلى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي (...)»،

بتقديم معمولي المصدرين عليهما أولًا وثانيًا، وخبر المبتدأ عليه ثالثًا، تمسكًا بما وراء التقديم في المركبين الأولين من معنى الاحتراس الذي في قصر غايته على ما سيأتي من معنى الحماية، تصديقًا لقوله مرة في جواب من سأله عن شتمه الناس: «لا أَبْتَدي وَلكِنْ أَعْتَدي»[1] أي أجازي! أخذًا بمشاكلة اعتداء المنتصف لاعتداء الجائر في قول الحق - سبحانه، وتعالى! - : {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[2]، وتمسكا بما وراء التقديم في المركب الثالث من معنى التمدح الذي في قصر منزلته من أهله على أعلى المجد. وألح كذلك على عطف الأشباه على الأشباه في آخر البيتين:

١ «لِلنّاسِ ظُلْمًا = وَلا لِلْحَرْبِ إِذْهانا»،

٢ «مَنْزِلَتي مِنْ خِنْدِفٍ = وَالذُّرا مِنْ قَيْسِ عَيْلانا»،

إيغالا في معنى التمدح، ولاسيما في التعبير الأول بآخر البيت الأول الذي أضاف إلى العدلِ الشجاعةَ وهما مختلفان، على حين لم يضف التعبير الآخر - مهما كان - إلى المنزلة من أُمِّ قومه إلا المنزلةَ من أبيهم، وهما متكاملان!

فعل جرير ذلك كله بجملة الفقرة الأولى على حين أسند في جملة فقرته الأخرى تأبيد العجز عن إدراك المجد إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه، وإن استمر منه هنا كذلك عطف الشبيه على الشبيه في آخر البيت، وهو المظهر الوحيد الذي يمكن عده في وجوه الاتفاق، ولكن لا ظهور له مع وجوه الافتراق العديدة!

رابعًا: أَغْمَضَ جرير تركيب جملة الفقرة الآخرة دون تركيب جملة الفقرة الأولى من عدة جهات مختلفة، منها «أَوْ» الأولى التي يقتضي ظاهر سياقها أن تكون بمعنى «إِلى»،

ويقتضي باطن سياقها أن تكون بمعنى «إلّا»؛ فإن إدراك المجد الذي هو عند عامة الناس مما يحصل شيئًا فشيئا، كما في قول الملك الضليل الحاضِرِهِمْ سريعًا:

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنى فَما انقادَتِ الآمالُ إِلّا لِصابِرِ [٣٣]

يقتضي أن تكون «أو» في بيت جرير كما كانت في بيت الملك الضليل بمعنى «إلى» الملائم لما يحصل شيئًا فشيئا. ولكن الملائم لقصد جرير من رسالته بيان أن خصيمه وقومه لم يسمعوا بالمجد أصلًا بله أن يكونوا بسبيله، وألّا حيلةَ لهم إليه إذا خَطَرَ لهم مرة وتَمَنَّوْهُ تَمَنِّيًا إلّا أنْ تنشق لهم السماء عنه فجأة وهم في وَهْدَةِ الخبال كما انشقت لسلفهم عن المائدة، وفي تأويل «أو» هنا بمعنى «إلى» كما كانت في بيت الملك الضليل تضييع لحق هذا الشعر وقياس لما لا ينقاس وتشبيه لما لا يشتبه.

ومن جهات الإغماض أيضًا الفعل «تَشْروا» الذي يجوز أن يؤول بمعنى «تَبيعوا» فتكون الباء داخلة على المأخوذ، وبمعنى «تَبْتاعوا» فتكون الباء داخلة على المتروك، والأول أكثر كما في قول الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ : {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ}[٣٤]، أي لبئسما باعُوا به أنفسَهم[٣٥]، وهو ما يغري به تحكيم آخر البيت في أوله؛ فالفعل «تَجْعَلوا» بمعنى «تُصَيِّروا وتُحَوِّلوا»، و«التَّنوم» و«الضَّمْران» من صغار الشجر، أولهما يتفلق عن حب يستعمل في شؤون كثيرة ربما عيب على مستعمله بعضها، وآخرهما ذو خشب يُحْتَطَبُ ولا أراه بعيدا من «الضومران» أو الضيمران (ريحان البر)[٣٦]؛ فقد اشترط جرير بآخر بيته هذا «أَوْ تَجْعَلوا التَّنومَ ضَمْرانًا»، على خصيمه وقومه ليدركوا المجد ـ ولن يدركوه ـ أن يحولوا التنوم وهو المذكور أولًا، إلى ضمران وهو المذكور آخرًا؛ فيكون تأويل «تَشْروا» «بِتَبيعوا» على الأكثر فيه، من مناسبة أول البيت لآخره.

ولكن في ذلك تضييعًا لحق الشعر؛ فالعباءة من ألبسة العرب والخز من ألبسة العجم[٣٧]، ولم يرد جرير إلا تعيير خصيمه العربي وقومه وهم نصارى، بتشبههم بالعجم كراهةً للعرب المسلمين الغالبين عليهم؛ فمن ثم كان «تَشْروا» بمعنى «تَبْتاعوا» على غير الأكثر.

لقد أخرج جرير جملة فقرته الآخرة بيتًا عجيبًا غريبًا، في تأبيد النفي على طريقة بعض الأمثال التعبيرية[٣٨]، وكأنما أراده ليذهب مثلًا شرودًا لا يدع الناس السخرية به من خصيمه وقومه، كسائر أبياته التي أقض بها مضاجع مهجويه وأقلق راحتهم! ولما كان قد عَكَسَ ترتيب الأعشى لفقرتيه، كان في هذا الوجه من التمييز جاريًا مجراه.

خامسًا: وَسَّطَ جرير جملته الأولى في فقرتها على ما فعل الأعشى، بحيث صارت لها قلبا تدور حوله سائر جملها من قبلها ومن بعدها، على حين أخر جملته الآخرة في فقرتها على غير ما فعل الأعشى، بحيث صارت لها غاية تؤمها من قبلها سائرُ الجمل وتنتهي إليها.

ما وَراءَ تَرْكيبِ المُحاوِرِ

[٢٣] لقد أوشك الأعشى أن يدل بما سبق من وجوه اتفاق جملتيه القسميتين (محوري فقرتيه اللتين انقسمت عليهما أجزاء الرسالة) على أن ثقته بما سيكون من يزيد مثل ثقته بما سيكون منه هو، وهذا معنى جَسورٌ لا قُدْرَةَ له عَلَيْهِ ولا مَنْفَعَةَ له به؛ إذ لا يفضي إلا إلى تَنْفير المُتَوَعَّد وضياع المراد؛ فخلط بوجوه الاتفاق وجوه افتراق أخفت جسارته، وكفكفت استطالته، وكَفَلَتْ عطف المتلقي عليه وإنجاز مراده. ولقد أراد جرير أن يرفع نفسه إلى أعلى عليين ويخفض خصيمه وقومه إلى أسفل سافلين؛ فتحرى أن يستمر بين جملتي محوري فقرتيه الافتراق على النحو السابق، عسى أن يُظْهِرَ الضِّدَّ الضِّدُّ!

فُصولُ التَّأَتِّي

التَّأَتِّي بِتَحازُنِ الْعُشّاقِ

[٢٤] إن إنجاز فصل الرسالة نفسه ولا سيما إذا كان من بابة الهجاء كالوعيد والذمّ اللذين هنا، عَمَلٌ مُفْرِحٌ ربما كانت عاقبته الإنسانية النفسانية أن تَتَهَلَّلَ فصولُ التأتي إلى المتلقين بالفرح نفسِهِ قبل فصل الرسالة حتى تنتهي إليه، ولكن التَّحازُنَ الذي تَحَمَّلَتْهُ في شعرَيِ الأعشى وجرير ولا سيما في مادة هذا البحث، بَيِّنُ الدلالة على إيثارهما العناية بالمتلقين؛ فليس أعطف لهم عليهما من الحزن الذي يبديهما ضعيفين يبرآن من حولها وقوتها إلى حولهم وقوتهم.

وربما اقتضى التأتي بالتحازن إلى عطف المتلقين على رسالتين من بابة الهجاء، أن يكون على حَدَثان الزمان الذي يكرم اللئام ويهين الكرام، أو الذي يَسْمو بالجبناء ويَكْبو بالشجعان مثلًا، ولكن اقتصار التحازن في فصول التأتي إلى المتلقين بشعري الأعشى وجرير ولا سيما في مادة هذا البحث، على حَدَثان العشق الذي يَبْتَلي الأنفس الخالية الساكنة فيعذبها أكثر مما ينعمها، بَيِّنُ الدلالة على ميل المتلقين جميعًا دائمًا إلى ما ينشأ ويتطور بين الرجال والنساء.

تَفْصِيلُ مَعانِي الْأَعْشى وَتَوْصِيلُها

[٢٥] لقد تعلق الأعشى في فصل البين بالسفر ـ وإن حمل نفسه على توديع حبيبته ـ كِفاء ما تعلقتْ هي بالصدود في فصل الإعراض؛ فأرانا إياها مظلومةً حين بان عنها وظالمةً حين أعرضت عنه، لأن الأول على رغمها بيده والآخر على رغمه بيدها، كما كشف قوله في فصل البين: «إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ»، الذي قام فيه قائم السفر فآثره عليها، وقوله في فصل الإعراض: «رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ»، الذي حالت فيه حالُه فضَجِرَتْ به.

ثم أضاف فصلي نعوتها إلى ذين الفصلين على حَسَبِ كلٍّ منهما؛ فبعقب فصل البين أورد فصل الاستحسان الذي تجلت فيه بنعوت طيبة يتمناها الرجال لنسائهم، وبعقب فصل الإعراض أورد فصل الاستلذاذ الذي جلّاها فيه بنعوت خبيثة يتتبعها في النساء الرجال المُتَشَهّون، كما كشف قوله في فصل الاستحسان: «لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها»، الذي لم يملَّها فيه معاملوها المطلعون على أحوالها دائمًا، وقوله في فصل الاستلذاذ: «يَصْرَعُها لِلَذَّةِ الْمَرْءِ لا جافٍ وَلا تَفِلُ»، الذي لم تستعص فيه على طالب.

ثم أضاف في فصل الخيبة تفسيرًا لذلك التدابر؛ فقد أحبها عفوًا من دون قصد، وأحبت هي غيره عفوًا من دون قصد؛ فلم تستقم بينهما علاقة ولم تصلح زيارة. ولكنه انتصف منها بأنها أحبت رجلًا لم يحبها، ثم بأنه هو والرجل الآخر قد أحبتهما فتاتان لم يحباهما، كما كشف قوله: «كُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَحْبولٌ وَمُحْتَبِلُ»، الذي كان فيه ويلًا عليها كما كانت ويلًا عليه، على نحو عام لم ينج منه رجل ولا امرأة!

ثم حملته على الرحلة عنها هذه الخَيْبَة العامة التي أحاطت بأولئك المجاهيل المُتَدابِرينَ، فلم تختص بالرجال دون النساء، ولكنه لم ينشط لها حتى دل في فصل الطمأنينة على فُروسيَّتِهِ؛ فلم يرحل عنها حتى اطمأن عليها في غيث ونعمة، كما كشف قوله: «يَسْقي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زورًا تَجانَفَ عَنْها الْقَوْدُ وَالرَّسَلُ»، الذي بدا الغيث فيه مرسلًا منه لها على بعدها.

ثم أقبل في فصل الرحلة على الفلاة القائظة المهلكة يتحرى أن تكون حاله عكس حالها، متداويًا من حمى الحب الفادحة بصَيْهَد القيظ الآسي، ومن صحبة الحبيبة المخالفة بصحبة الناقة المواتية، كما كشف قوله: «جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ»، الذي كان بمثل تلك الفلاة وهذه الناقة شغله فيه عما سواهما.

ثم أقبل في فصل التلهي على الشراب والسماع والنساء، يوازي عبث الحبيبة وسخريتها بعبث وسخرية أشدَّ منهما، ظاهر الفرح بقدرته الآنفة على الفلاة المترامية، كما

كشف قوله: «فِي التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ»، الذي جعل التلهي فيه عن الحبيبة كالتعلق بها، تجاربَ من التجارب، لن تنقطع.

ثم أضاف أخيرًا فصل الوعيد (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقرة [٨ - ٢٣]، على سبيل الاستطالة التي تُسَوِّغُها للمتلقين قدرته السالفة على الرحلة وعلى التلهي جميعًا معًا، وكأن هذا الوعيد أُلْهِيَّةٌ من تلك الألاهيّ!

تَفْصيلُ مَعاني جَريرٍ وَتَوْصيلُها

[٢٦] وتعلق جرير في فصل البين بالبقاء لا السفر؛ فقد كان هو وحبيبته والدار التي عهدته وعهدتها، كائنًا واحدًا عجيبًا مُثَلَّثَ الأرواح منفصلًا مما حوله من الناس والزمان والمكان كما تنفصل السفينة المبحرة في أثباج البحار لا تَلْوي على شيء؛ فصار ببَيْنِ حبيبته شِلْوًا من شَمْلٍ مُمَزَّقٍ ولَوْحًا من سفينةٍ خَرِبَةٍ، كما كشف قوله: «لا نَبْتَغي بدلًا بِالدّارِ دارًا وَلا الْجيرانِ جيرانًا»، الذي تجلت فيه حقيقة معنى الوصل لديه.

ثم تَخَيَّلَ في فصل الرسول كلَّ راكِبٍ راحلًا إلى حيث حَبيبَتُهُ، قادِرًا على وَصْلِ الدارِ بالدار الذي عَجَزَ هو عنه؛ فحمَّله سلامه وسلام الدار القديمة التي عهدته وعهدتها عليها وعلى ديارها الحديثة، وتعلُّقه بها الذي لم يفهمه حتى افتقدها، كما كشف قوله: «هَيْهاتَ مِنْ مَلَحٍ بِالْغَوْرِ مُهْدانا»، الذي افتضح فيه تعلقه بالدار وتألمه لبعد القديمة من الحديثة.

ثم قَصَّ في فصل المكيدة كيف تَلَعَّبَتْ به حبيبته وآلَمَتْه قبل رحيلها، وكأنه استبعد أن تَعْطِفَها الرسالة الآنفة، كما كشف قوله: «ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ ظَمْآنا»، الذي قطعت فيه عليه وعلى نفسها طريق الريِّ الجامعة الشاملة.

ثم ردَّ فصلَ الوجد على فصل البين فاشتكى غرابة الأشياء من حوله بعد بين حبيبته، وبدا كأنه ذلك البحار المائلة سفينته قد أيقن بالغرق، كما كشف قوله: «لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا وَلا السُّلّانِ سُلّانا»، الذي أنكر فيه بَعْدَها كلَّ ما حوله.

ثم تخيل حبيبته في فصل الخيال قد أجابته وعطفت عليه وأمكنته من نفسها بعد إخلاصه لها الوجد بها، كما كشف قوله: «لا دُنْيا كَدُنْيانا»، الذي انبعث فيه ذلك الكائن الواحد العجيب المُثَلَّثُ الأرواح، ولكن خيالها تفلت منه وعاد إليها؛ فأضاف إلى البين بينًا وإلى الألم ألمًا.

ثم اضطر في فصل الرحلة إلى سنة التداوي بالرحيل الذي ليس من رأيه، فأخفاه في طيات رحيل حبيبته الذي من رأيها، حتى تكاد لا تنقطع للمتأمل ريبةٌ في أنه رحل على الحقيقة كما رحلت، إلا أن يكون رحيله كان في خلال رحيلها مُلازَمَةً لها وتَعَلُّقًا بها، حتى

يئس من ردها، كما كشف قوله: ((قَدْ قَطَعَتْ بَيْنَ السَّلَوْطَحِ وَالرَّوْحـان صَـوّانا))، الـذي عَلَّقَ فيه عينيه على الطريق، ولا سيما أنه تعلق بعدئذ في فصل الذكرى بصور من صورهما في الدار التي عهدته وعهدتها حتى أثارَتْهُ في ذيل الصـور صـورةٌ بعـض أقربائهـا يحـول دونها؛ فاحتقره غاضبًا عليه متمنيًا أن لو دار الزمان فانتصف منه، كما كشف قوله: ((كُنْتُ شَيْطانا))، الذي أسف فيه على سوء الحال وضيعة المآل.

ثم عَمَّمَ في فصل الوعيد غضبه حتى شمل به خصـومه مـن الشـعراء؛ ففخـر بـها في إفحامه لهم جميعًا من مآثر سالفة ومشاهد باقية مستمرة، كما كشف قوله: ((قَـدْ حَـذَوْتُهُمْ مَثْنى وَوُحْدانا))، الذي قدم فيه نفسه عليهم رائدا لهم.

ثم أضاف أخيرا فصل الذم (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقـرة [٨ ـ ٢٣]، من باب إضافة الخاص إلى العام، اصطفاءً لألد الخُصَماء الشعراء (الأخطل) الـذي لن يكون إلا واحدًا منهم؛ فتحرى إفحامه بكل ما يشينه ويؤذيه من خصاله ومعايبه هـو وقومه.

لقد اجتمع الشاعران على التأتي إلى المتلقين بتَحازن العُشـاق، وعـلى تقسيم فصـول التأتي على تسعة، ولكنْ كانت لكل منهما في توجيه التسعة الفصول وجهةٌ تَولّاها واعيًا أو غافلًا:

ما وَراءَ تَفْصيلِ الأَعْشى وَتَوْصيلِهِ

[٢٧] أما الأعشى فتَقاوى على حبيبته وتَعَزَّزَ وأدار على نفسه أكثر فصول التأتي؛ فلـم يُخلص لها إلا فصلي الاستحسان والإعراض اللذين بدت في أولهما كأنها تخيرت لنفسها ما شاءت من طيب الصفات وفي آخرهما كأنها اجترأت بها اتصفت من طيب تلك الصفات، وأما فصل الخيبة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والاستلذاذ والطمأنينة والرحلة والتلهي فقد أخلصها لنفسه يرى فيها ويفعل ما يبدو له.

تَفْصيلُ مَباني الأعشى وَتَوْصيلُها

[٢٨] لقد استهل قصيدتَه في فصل البين بإسناد فعل أمر توديع امرأة معينة إلى ضمير خطاب نفسه على التجريد ((وَدِّعْ هُرَيْرَةَ))، فدل على أنه هو المسافر عنها البائن منهـا، وأن بعضه يلوم فيها بعضًا. وتحرى في قوله الكاشـف ((إِنَّ الرَّكْـبَ مُرْتَحِـلُ)) أن يكـون جملـةً اسمية مؤكدة ((بإن)) مسندة فيهـا صـفة الارتحـال إلى معـرف بـأل العهديـة؛ فبـدا قولـه الكاشف قدره المقدور الذي لا حيلة فيه إلا أن يخضع له.

ثم قطع فصل البين، واستأنف في فصل الاستحسان إسنادَ طائفة من الصفات الطيبة مفردة ومركبة أولاها مفردة صفة مشبهة، إلى ضمير غيبة هريرة المبتدأ المحذوف المحذوف المفهوم ((هي) غَرَّاءُ (...))، على منهج عربي أصيل في ذلك[29]، أراد به الأعشى صرف المتلقين عن الموصوفة المحذوف اسمها إلى صفاتها المذكورة، ليتأملوها كأنها هي التي أمامهم. وتحرى في قوله الكاشف ((لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الجيرانُ طَلْعَتَها)) أن يكون جملة اسمية منسوخة ((بلَيْسَ)) مسندًا فيها شبه الجملة الحرفي التشبيهي إلى ضمير غيبة حبيبته؛ فبدا قوله الكاشف هديته إليها التي تحسدها النساء عليها!

ثم قطع فصل الاستحسان، واستأنف في فصل الإعراض إسنادَ فعل ماضي الصدود عنه إلى اسمها لا ضميرها ملتفتا عن ذلك الخطاب ((...) لا تَراها (...)) في آخر ذكر سابق لنفسه، إلى هذا التكلم ((صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا))، بَوْحًا بما يجد من مرارة صدودها وغرابة شأنها. وتحرى في قوله الكاشف ((رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ المَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل ماضي رؤية رجل ضرير بحدثان خطوب الزمان إلى ضمير غيبة هريرة؛ فبدا قوله الكاشف مَأْخَذَهُ عليها أَنْ أَضْجَرَها ظاهرُ عَجْزِه عنها!

ثم قطع فصل الإعراض، واستأنف في فصل الاستلذاذ إسنادَ طائفة من الصفات الخبيثة مفردة ومركبة أولاها مركبةٌ جملةُ المدح الفعليةُ، إلى ضمير غيبة هريرة المبتدأ المحذوف المفهوم ((هي) نِعْمَ الضَّجيعُ (...))، على المنهج العربي الأصيل السابق نفسه، وكأنما أراد أن تطابق الصفاتُ الصفاتِ؛ فَيَنْسَخَ بَعضُها بعضًا، ويَنْقَلِبَ الطَّيِّبُ خُبْثًا. وتحرى في قوله الكاشف ((يَصْرَعُها لِلَذَّةِ المَرْءِ (×) لا جافٍ وَلا تَفِلُ))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل مضارع قسرها على التمتع بها إلى شَيْئِهِ المحذوف وأن يحتمل المعرف بأل العهدية ((المَرْءِ)) أن يكون معرفًا بأل الجنسية؛ فبدا قوله الكاشف كيدًا لها بدوام قدرته عليها زمانًا طويلًا! وينبغي التنبيه على أن كلمة ((جافٍ)) غير صالحة للفاعلية؛ إذ لا ينتفي الفاعل ((بلا)) بعد فعله المثبت؛ فلا أقول مثلًا: ((جاءَ لا زَيْدٌ وَلا عَمْرٌو))، لتناقض آخر هذا الكلام المنفي وأوله المثبت، بل ينتفي الفعل قبل فاعله؛ فأقول مثلًا: ((لا جاءَ زَيْدٌ وَلا عَمْرٌو)) في مثالي، و((لا يَصْرَعُها جافٍ وَلا تَفِلُ)) - فتكون كلمة ((جافٍ)) نعتًا للفاعل المحذوف على غير طريقته تَحَرُّجًا[30]، فَهِمًا له من الكلام قبله وبعده؛ ((فإذا كان الكلام إنما يصلحه ويفسده معناه، وكان هذا معنى صحيحًا مستقيمًا لم أر به بأسًا))[31].

ثم قطع فصل الاستلذاذ، واستأنف في فصل الخيبة إسنادَ فعل ماضي تعلق حبيبته المبني للمجهول، إلى ضميره ملتفتا عن احتمال غيبة ذلك التعريف بأل العهدية ((...)

المَرْءِ (...)) في آخر ذكر سابق لنفسه، إلى حضور هـذا الـتكلم ((عُلِّقْتُهـا عَرَضًـا))؛ فبـدا شَغَفُهُ بها صِفةً لها متولدة من صفاتها التي لم يملك لها دفعا حين تعرضت له بها. وتحـرى في قوله الكاشف ((كُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَحْبولٌ وَمُحْتَبِـلُ))، أن يكـون جملـة اسمية مُسْندةً فيها صـفاتُ إغـرام المُدَلَّهين وصـفاتُ تـدابرهم إلى العشـاق المـذكورين جميعهم؛ فبدا قوله الكاشف قضاءً مُنْتَصِفٍ للرِّجالِ مِنَ النِّساء!

ثم قطع فصل الخيبة، واستأنف في فصـل الطمأنينـة التنبيـه عـلى إسـناد جملـة تأمـل السحاب الفعلية المضارعية، إلى اسم استفهام ((يا مَنْ يَرى عارِضًا قَدْ بِتُّ أَرْقُبُـهُ (...)))، استثارة لصحبه إليه وإشـهادًا عليـه. وتحـرى في قولـه الكاشـف ((يَسْـقي دِيـارًا لَهـا قَـدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زورًا تَجانَفَ عَنْها القَوْدُ وَالرَّسَلُ))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيهـا فعـلُ مضارع سقيًا ديار الحبيبة البعيدة إلى ضمير غيبة ماء العارض؛ فبدا قولـه الكاشـف لـذة الشَّهْم الحدِب المطمئن.

ثم قطع فصل الطمأنينة، واستأنف في فصل الرحلة إسنادَ جملـة محذوفـة مفهومـة إلى نكرة مجرورة برُبَّ المحذوفة المستغنى عنها بواوها ((وَبَلْدَةٍ...))، فحيَّر حبيبته: أَهِـيَ بَلْـدَةٌ أَمْ بَلَداتٌ، وسَفْرَةٌ أَمْ سَفَراتٌ؟ ففي ((رُبَّ)) تقليـل متأصـل غـير أنـه أُهْمِـلَ حتـى صـار استعماله كالمجاز، وتكثير متفرع عن ذلك التقليل غـير أنـه أُعْمِـلَ حتـى صـار استعماله كالحقيقة[77]. ثم حيَّرها مرة أخرى: أهو سفر الراضي عنها المهموم بحـوادث شـؤونه، أم سفر الغاضب عليها الهـارب منهـا؟ فعامـل ((رُبَّ)) (جوابها) محـذوفٌ بعقـب نعـوتِ مجرورِها مُسْتَغْنًى عنه بها مُقَدَّرٌ بفعـل مـاض كالـذي في ((أَخَـذَتْني (...))) أو ((شَـغَلَتْني (...))) مثلًا، جوابًا لكلام قبل ((رُبَّ)) مقدرٍ بمثل ((ما أَخَذَتْكَ مِنْ حَبيبَتِكَ أَيَّةُ بَلْدَةٍ))، أو ((ما شَغَلَتْكَ عَنْ حَبيبَتِكَ أَيَّةُ بَلْدَةٍ)) مثلًا[78]، يمكن أن يكون قاله للأعشى صَـحْبُهُ. ولقـد جَرَّبْتُ أن أجعل عامل ((رُبَّ)) (جوابها) هو الفعل الماضي في ((جاوَزْتُهـا (...))) الجملـة المذكورة أخيرًا، ثم آثرت أن أقدره محذوفًا لَمَّا وجدت مثل هذا المذكور في كثير من الشعر القديم الذي قدر فيه علماؤه عامل ((رُبَّ)) محذوفًا، ولا سيما في فصل الرحلة كما في لاميَّـة الأعشى التي بين يدي؛ فهذا سيبويه يقول: ((سألت الخليل عن قوله ـ جل ذكره! ـ {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَـيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِـفُ الْمِيعَادَ}، أين جوابها؟ (...) فقال: إن العرب قد تترك في مثـل هـذا الخـبر [الجـواب] في كلامهم، لعلم المخبَر لأي شيء وضع هذا الكلام. وزعـم أنـه وجـد في أشـعار العـرب (رُبَّ) لا جواب لها. من ذلك قول الشَّمّاخ:

وَدَوِيَّـــةٍ قَفْـــرٍ تُمَشّي نَعامُهـــا كَمَشْيِ النَّصارى في خِفافِ الأَرَنْـدَجِ

وهذه القصيدة التي فيها هذا البيت لم يجئ فيها جواب (لرُبَّ)، لعلم المخاطب أنه يريد (قَطَعْتُها)، وما فيه هذا المعنى»(٣١). ثم راجعت ديوان الشماخ؛ فوجدت هذين البيتين من القصيدة الثانية:

وداويَّـــةٍ قَفْـــرٍ تَمَشّـــى نِعاجُهـــا كَمَشْيِ النَّصـارى في خِفـافِ الْيَرَنْـدَجِ
قَطَعْـــتُ إلى مَعْروفِهـــا مُنْكَراتِهـــا إذا خَـــبَّ آلُ الأَمْعَـــزِ المُتَـــوَهِّجِ(٣٢).

وفي رواية أولها أربع مخالفات لرواية سيبويه، وفي أول آخرهما ما يغري بجعله عامل «رُبَّ» (جوابها) الذي قدره سيبويه. وقد كان محقق الكتاب العلامة عَلَّقَ على بيت الشماخ في نص سيبويه قَوْلَه: «الشاهد فيه حذف جواب (رُبَّ) لعلم السامع. والمعنى (رُبَّ دَوِيَّةٍ قَطَعْتُ) أو نحو ذلك. وقد رُدَّ على ما نقله سيبويه عن الخليل من تأوله من حذف الجواب بأن بعد البيت:

قَطَعْـــتُ إلى مَعْروفِهـــا مُنْكَراتِهـــا وَقَـــدْ خَـــبَّ آلُ الأَمْعَـــزِ المُتَـــوَهِّجِ(٣٣).

وفي روايته مخالفة واحدة لرواية الديوان. وكان محقق ديوان الشماخ عَلَّقَ على البيت الآخِرِ قَوْلَهُ: «قَطَعْتُ: هو جواب (رُبَّ) المقدرة في البيت السابق»(٣٤)، أخذا لا ريب فيه بما سبق من تعليق محقق الكتاب العلامة. ولقد كان تحرير الخليل أحرى بالتأمل من كلمة سيبويه التي حَمَلَهُ عليها عَدَمُ روايته للبيت الآخر؛ فلو قد رواه لعرف أن عامل (رب) (جوابها) شيءٌ وَراءَ (قَطَعْتُ) وما في معناه، يتبين بطول تأمل سياق الكلام، اجتهدت أن أتبينه فيما سبق. ولقد تحرى الأعشى في قوله الكاشف «جاوَزْتُها بِطَلِيحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ»، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل ماضي مجاوزة البلدة بناقة شديدة إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف علامة بهجة البريء بنهضة العافية!

ثم قطع فصل الرحلة، واستأنف في فصل التلهي ترتيبَ توكيد إسناد ثبات الأخلاق في أثناء التقلب بين حالي البؤس والنعمة إلى ضمير تكلمه، على إسناد رؤيته بائسا إلى ضمير خطاب حبيبته «إمّا تَرَيْنا حُفاةً لا نِعالَ لَنا إنّا كَذَلِكَ ما نَحْفى وَنَنْتَعِلُ»، سخرية من غفلتها بالظاهر عن الباطن الخصلة النسائية الأزلية الأبدية. لقد زاد «ما» على «إن»

في ((إمّا)) مؤكدا حال ابتسامه التي رأته عليها غير متبرئ منها، ولكنه زادها على ((نَخْفى وَنَنْتَعِلْ)) مرة أخرى في جواب الشرط بعد أن كان حذف فاء ربط الجواب بالشرط والأداة، مؤكدا أنه هو هو على رغم التقلب بين البؤس والنعيم، ولكنها لا ترى ما ينبغي أن ترى[38]. وتحرى في قوله الكاشف ((في التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ))، أن يكون جملة اسمية مسندًا فيها شبه جملة حرفي مقدم يحتمل حرفُه ((في)) طُروءَ معنى ((من)) التبعيضية على أصل معنى الظرفية فيها[39]، إلى مضاف إلى معرف بأل الجنسية مؤخر؛ فبدا قوله الكاشف نصيحة المستغني.

ثم قطع فصل التلهي، واستأنف أخيرا فصل الوعيد (الرسالة).

ما وَراءَ تَفْصيلِ جَريرٍ وَتَوْصيلِهِ

[٢٩] وأما جرير فتَضاعَفَ لحبيبته وتَذَلَّلَ وأدار عليها أكثر فصول التأتي؛ فلم يخلص لنفسه غير فصلي الرسول والذكرى اللذين بدا في أولهما حريصًا على حاضر علاقته بحبيبته وفي الآخر حريصًا على ماضيها، وأما فصل الرحلة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والمكيدة والوجد والخيال فقد أخلصها لحبيبته ترى فيها وتفعل ما يبدو لها، وأما فصل الوعيد فلم يكن من بابة تحازن العشاق الذي استولى على فصول التأتي، بل من بابة الهجاء الذي استولى على فصل الرسالة، ولكن ما يأتي من دلالته على استواء التمكن من الحبيبة وصدارة الشعراء، يميز قصيدته بوقوع هذا الفصل منها في منزلةٍ بين منزلتي التأتي والرسالة.

تَفْصيلُ مَباني جَريرٍ وَتَوْصيلُها

[٣٠] لقد استهل قصيدته في فصل البين بإسناد فعل ماضي البَيْن إلى معرفٍ بأل العهدية صفةٍ على فَعيلٍ بمعنى مُفاعِلٍ أو مُفاعَلٍ مستغنى بها عن الموصوف (الحبيبة) المفهوم ((بانَ الخَليطُ))؛ فإنه ((إذا كانت المفاعلة بين اثنين جاء كل واحد منهما على (فَعيل) كما جاء على مُفاعل))[40]، دلالة على المُمازَجَةِ السابقة بين حبيبته وبين الدار وبينهما وبينه، ثم على مبلغ الضرر الحادث بتعطيل البين لطبائع الأحياء. وتحرى في قوله الكاشف ((لا نَبْتَغي بدلًا بِالدّارِ دارًا وَلا الجيرانِ جيرانًا))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل مضارع إرادة بَديلَي الدار والجار المنفي إلى ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهرة يسميها النحاة ((العطف على معمولي عاملين مختلفين))؛ فقد كان ينبغي في التركيب أن يكون ((لا نَبْتَغي بدلًا بِالدّارِ دارًا وَلا بالجيرانِ جيرانًا)) بحيث يكون ((بالجيران)) معطوفا على ((بالدار))

و((جيرانًا)) معطوفًا على ((دارًا))، وكلا المعطوف عليها عندئذ من معمولات ((نَبْتَغي)) المنفي؛ فلما حذف الباء من ((الجيران)) المجرور كان هو وحده معطوفًا على معمول الباء ((الدار))، و((جيرانًا)) على حاله؛ فكان الكلام ملتبسًا ممتنعًا على العموم عند طائفة من النحويين، وملتبسًا غير ممتنع على العموم عند طائفة أخرى، وغير ملتبس ولا ممتنع متى كان على النحو الواقع في عبارة جرير الآنفة عند طائفة ثالثة من النحويين، لتساوي الكلام وتوازنه وجري آخره على أوله"[1]؛ فبدا قوله الكاشف شهادة حاله الصادقة على حقيقة إيمانه بمعنى امتزاج الأرواح الثلاثة امتزاجَ الصور وراء الحقيقة الواحدة!

ثم قطع فصل البين، واستأنف في فصل الرسول بعد دعوة من لم يعبأ بتعريفه لنا إلا بصفتين معينتين ((يا أيُّها الرّاكِبُ المُزْجي مَطيَّتَهُ)) حِرْصًا على ألا يُعَنِّتَه، إسناد فعل أمر التبليغ على جهة الرجاء إلى ضمير خطاب المدعوّ ((بَلِّغْ تَحِيَّتَنا))، موقعًا الرجاء على تَحِيَّةٍ مضافةٍ إلى ضمير تكلمه، تنبيها له على أنه لن يضره جوابها؛ فما على الرسول إلا البلاغ. وتحرى في قوله الكاشف ((هَيْهاتَ مِنْ مَلَحٍ بِالْغَوْرِ مُهْدانًا))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها اسم فعل البعد عن دار الحبيبة الحديثة إلى اسم مكان الإهداء دارها القديمة التي عهدته وعهدتها، المضاف إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف بَوْحًا من مصدَّع عاجز عن رأب صُدوعِهِ!

ثم قطع فصل الرسول، واستأنف في فصل المكيدة إسناد فعل ماضي قول الإغراء باللقاء إلى ضمير غيبة حبيبته ((قالَتْ أَلِمَّ بِنا (...)))، مباعدة لها منه قليلًا حتى يثبت عليها علامات المكر به. وتحرى في قوله الكاشف ((ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ ظَمْآنا))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل ماضي الضن بالطريق المشترك إلى ماء الحياة، إلى ضمير غيبة حبيبته"[2]؛ فبدا قوله الكاشف استنكارًا شديدًا لجهلها حقيقة معنى الامتزاج الذي آمن به.

ثم قطع فصل المكيدة، واستأنف في فصل الوجد إسناد اسم الاستفهام عن الهيئة إلى معرف بأل العهدية: ((كَيْفَ التَّلاقي (...)))، اعتذارا عن كمده اللاحق؛ فقد امتنعت عليه في السفر ببينها وفي الحضر بمكرها. وتحرى في قوله الكاشف ((لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا وَلا السُّلّانِ سُلّانا))، أن يكون جملة فعلية مضارعية مسندًا فيها فعل مضارعٍ لُقيا شبيه الدار المنفي ((بلم)) إلى ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهرة ((العطف على معمولَي عاملين مختلفين)) السابقة ودلالاتها نفسها؛ فبدا قوله الكاشف نُدْبَةً نَدَبَ بها أحد عناصر ذلك المزاج المركب الثلاثة!

ثم قطع فصل الوجد، واستأنف في فصل الخيال إسناد فعل ماضي الطيران مع خيال الحبيبة إلى معرف بأل العهدية ((طارَ الْفُؤادُ مَعَ الْخَوْدِ الَّتي طَرَقَتْ في النَّوْمِ (...)))، دلالة

على شدة تعلقه بها وضَيْعَةِ نصيبه منها. وتحرى في قوله الكاشف ((لا دُنْيا كَدُنْيانا))، أن يكون جملة اسمية منسوخة ((بلا)) النافية للجنس، مسندًا فيها شبه جملة حرفي تشبيهي إلى اسم نكرة؛ فبدا قوله الكاشف علامة انبعاث ذلك الكائن الواحد العجيب المُثَلَّثِ الأرواح!

ثم قطع فصل الخيال، واستأنف في فصل الرحلة إسناد فعلٍ ماضي لقيا أي شيء من الحبيبة مجهول مستفهم عنه نَفْيًا له، إلى ضمير خطابه على التجريد تفجعًا وتوجعًا ((ماذا لَقيتَ مِنَ الأَظْعانِ (...)))، دلالة على سوء رأيه في الرحلة المضطر إليها. وتحرى في قوله الكاشف ((قَدْ قَطَعَتْ بَيْنَ السَّلَوْطَحِ وَالرَّوْحان صَوّانا))، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل ماضي قَطْعِ الأرض بين الدار التي عهدته وعهدت حبيبته وبين غيرها إلى ضمير غيبة النوق الراحلة به وبصحبه؛ فبدا قوله الكاشف بَوْحًا آخر من مصدَّع عاجز عن رأب صُدوعِهِ بعد قوله الكاشف السابق في فصل الرسول؛ فلم يزدد بالرحيل الذي لم يكن من رأيه إلا صدوعًا؛ فبوحه في السفر كبوحه في الحضر! ولقد ينبغي أن يكون ثَمَّ نعت محذوف دل عليه سياق الكلام من قبل ومن بعد ولا سيما إذا أُحْسِنَ إلقاؤُهُ على مُتَلَقّيه[23]، تقديره ((صَوّانًا لَمْ يَكُنْ يَنْبَغي أَنْ يَنْقَطِعَ)) أو ((صَوّانًا في قَطْعِهِ قَطْعُ رَجِنا الْواشِجَةِ)) أو ما إليهما مما يناسب المراد المفهوم، ولا سيما أن الصَّوّان حِجارةٌ يُقْدَحُ بها أو حِجارَةٌ سُود ليست بصُلْبَةٍ[24]، ولا غناء بهذا وحده في هذا المقام.

ثم قطع فصل الرحلة، واستأنف في فصل الذكرى إسناد جملة المدح الفعلية الماضوية المقدمة إلى مضاف إلى عَلَمٍ مؤخر ((يا حَبَّذا جَبَلُ الرَّيّانِ مِنْ جَبَلٍ))، شوقًا واضحًا إلى معهد الصبا الذي مُكِّنَ في حماه من حبيبته، واهتزازًا ظاهرًا للذكرى الحبيبة بأداة التنبيه ((يا)) التي تحتمل نداء محذوف مفهوم، عمومُ حَذْفِهِ أَنْفَعُ في الدلالة على المعنى المراد مِنْ خصوص ذِكْرِه. وتحرى في قوله الكاشف ((كُنْتُ شَيْطانا))، أن يكون جملة اسمية منسوخة ((بكان)) مسندة فيها صفة مفردة نكرة إلى ضمير تكلمه أسفا على سوء الحال وضيعة المآل، مشهورًا في العرب عن الشيوخ حتى سموا الشيخ ((كُنْتِيًّا)) بكثرة قوله: كُنْتُ كذا[25]!

ثم وصل غضبه؛ فعطف في فصل الوعيد إسناد فعل مضارعِ ادِّراءِ أيِّ شيء منه (اخْتِيالِهِ) مجهولٍ مستفهم عنه استنكارًا له إلى مضاف إلى معرف بأل الجنسية ((ما يَدَّري شُعَراءُ النّاسِ (...)))، على شبيهه في فصل الذكرى ((مَنْ ذا الَّذي ظَلَّ يَغْلي أَنْ أَزورَكُمُ)) - وإن اعترض بينهما بالدعاء - بأداة عطف محذوفة مفهومة؛ فدل على أن شعراء الناس الحائلين دون التسليم له بالصدارة هم وقريبَ حبيبته الحائل دون تمكينه من لقائها سَواءٌ لديه في الخصومة، وتسليمهم له بالصدارة وتمكينه له من حبيبته سواء لديه في القصد؛

فقصيدته وحبيبته والدار التي عهدته وعهدتها صُوَرٌ سَواءٌ تَثوبُ كما سبق إلى حقيقة واحدة! وتحرى في قوله الكاشف «قَدْ حَدَوْتُهُمْ مَثْنى وَوُحْدانا»، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل ماضي سَوْق الشعراء مجتمعين متقويًا كل واحد منهم بغيره ومنفردين مكتفيًا كل واحد منهم بنفسه، إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف وصمة العار التي لن تزول عنهم تشنيعًا عليهم وتسميعًا بهم!

ثم قطع فصل الوعيد، واستأنف أخيرا فصل الذم (الرسالة).

اقْتِضابُ مَفاصِلِ الْفُصولِ

[٣١] لقد فَصَّلَ الشاعران فصول التأتي بقطع تركيب أولِ لاحقها من تركيب آخرِ سابقها واستئناف تركيب أولِ لاحقِها بعد تركيب آخرِ سابِقِها، وهو الإقْتِضابُ عند القدماء، «وَذاكَ أَنْ يَقْطَعَ الشّاعِرُ كَلامَهُ الَّذي هُوَ فيهِ، وَيَسْتَأْنِفَ كلامًا آخَرَ غَيْرَهُ مِنْ مَديحٍ أَوْ هِجاءٍ أَوْ غَيْرِ ذلِكَ، وَلا يَكونَ للثّاني عَلاقَةٌ بِالأَوَّلِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْعَرَبِ وَمَنْ يَليهِمْ مِنَ الْمُخَضْرَمينَ»[١١٦]، ولا ريب في أن اقتضاب التراكيب يعين الشاعر على تفصيل الفصول، ولكن الريب في زعم انقطاع علاقة آخر الكلامين فيه بالأول من أجل تجاور آخر تراكيب السابق وأول تراكيب اللاحق بالاستئناف وعدم تداخلها بالعطف وما أشبهه؛ فإنها لا تنقطع، بل تخفى صلتُها على الْمُتَعَجِّل، ثم الريب في وقوفه عند الجاهليين (العرب) والمخضرمين؛ فإنه لم يقف عندهم، بل «الإقْتِضابُ الْوارِدُ في الشِّعْرِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصى»[١١٧]، وهذا جَريرٌ الإسلامي الأموي قد جرى منه مجرى الأعشى الجاهلي.

وينبغي ألا يُخَرَّجَ من ذلك الاقتضاب إلى التَّخَلُّص ما كان وصلًا وعطفًا على مثل ما فعل جرير بتركيبَي آخِرِ فصل الذكرى وأوَّلِ فصل الوعيد من عطف هذا على ذاك؛ فإنه قد أخرج الوصل والعطف مخرج القطع والاستئناف بحذف العاطف والاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه حتى ليكاد المتأمل يذهل عنه، ثم إن التَّخَلُّصَ عند القدماء إضافَةُ بعض ما يخص الفصل اللاحق إلى طرف الفصل السابق؛ «أَنْ يَأْخُذَ مُؤَلِّفُ الْكَلامِ في مَعْنًى مِنَ الْمَعاني، فَبَيْنَما هُوَ فيهِ إِذْ أَخَذَ في مَعْنًى آخَرَ غَيْرِهِ، وَجَعَلَ الْأَوَّلَ سَبَبًا إِلَيْهِ؛ فَيَكونَ بَعْضُهُ آخِذًا بِرِقابِ بَعْضٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْطَعَ كَلامَهُ وَيَسْتَأْنِفَ كلامًا آخَرَ، بَلْ يَكونُ جَميعُ كَلامِهِ كَأَنَّما أُفْرِغَ إِفْراغًا واحِدًا، وَذلِكَ مِمّا يَدُلُّ عَلى حِذْقِ الشّاعِرِ وَقُوَّةِ تَصَرُّفِهِ»[١١٨].

ولقد أحسن الشاعران إذ اقتضبا ولم يتخلصا؛ فخَلَّصا قصيدتيهما من إضافات تُقَطِّعُ أكثر مما تُوَصِّل؛ فلم يبد لي في كثير من عبارات التخلص المعروفة، غير كثير من علامات التكلف المنكرة!

ما وَراءَ الْأَقْوالِ الْكاشِفَةِ

[٣٢] ثم قد أَكْمَنَ الشاعران للمتلقين وراء مفاصل فصول التأتي كما سبق في الفقر [٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٠]، أقوالا معينة مختلفة، تَرَدَّدَتْ في أنفسهما من قبل تكوين أي فصل حتى استقرت في مواضعها، ثم انبنت عليها فصولها حتى صارت محاور نفسية دارت عليها، كَفيلة كلما تأمَّلوها أن تكشف لهم طَرَفًا جديدا من مَسيرَتَيْ تَفْكيرَيْهما، أوازن بعضها ببعض فيما يلي:

ف	الأَعْشى	جَريرٌ
١	إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ	لا تَبْتَغي بدلًا بِالدّارِ دارًا وَلا الْجيرانِ جيرانًا
٢	لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها	هَيْهاتَ مِنْ مَلْحٍ بِالْغَوْرِ مُهْدانًا
٣	رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ	ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ صَدْيانًا
٤	يَصْرَعُها لِلَذَّةِ الْمَرْءِ لا جافٍ وَلا تَفِلُ	لَمْ تَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا وَلا السُّلّانِ سُلّانًا
٥	كُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَخْبولٌ وَمُخْتَبِلُ	لا دُنْيا كَدُنْيانا
٦	يَسْقي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زورًا تَجانَفَ عَنْها الْقَوْدُ وَالرَّسَلُ	قَدْ قَطَعَتْ بَيْنَ السُّلَّوْطَحِ وَالرَّوْحانِ صَوّانًا
٧	جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ	كُنْتُ شَيْطانًا
٨	في التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ	قَدْ حَدَوْتُهُمُ مَثْنى وَوُحْدانًا

ينبغي التنبيه أولًا على خفة وطأة العمل بفصول التأتي على الشاعرين؛ فعلى حين انقسمت أجزاء الفصل على فقرتين في فصلي الرسالة، التأمت على فقرة واحدة في فصول التأتي، ثم على حين انكشف في فصل الرسالة مراد الأعشى بقولين كاشفين في ستة أبيات ومراد جرير بقولين كاشفين في ثلاثة أبيات، انكشف في كل فصل من فصول التأتي مراد الأعشى بقول واحد في بيت واحد مرتين اثنتين (سادسًا وسابعًا)، وفيما يجوز بيتًا مخرومًا عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الفاء إلى أوله مرة واحدة (خامسًا)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانيًا)، وفيما يجوز شطرًا مخرومًا عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الواو إلى أوله مرة واحدة (ثامنًا)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت مرتين اثنتين (ثالثًا ورابعًا)، وفي أقصر من شطر مرة واحدة

(أولًا) ـ ومراد جرير بقول واحد في بيت واحد مرة واحدة (ثالثًا)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانيًا)، وفيها يجوز شطرًا مخروما عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الفاء إلى أوله مرة واحدة (ثامنًا)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت ثلاث مرات (أولًا ورابعًا وسادسًا)، وفي أقصر من شطر مرتين اثنتين (خامسًا وسابعًا). ولا تخلو زيادة أقوال الأعشى الموزونة بيتًا وشطر بيت جميعًا معًا وهي خمسة(١)، على أقوال جرير الموزونة بيتًا وشطر بيت جميعًا معًا وهي ثلاثة ـ من دلالة على غنائية الأعشى السابق ذكرها في الفقرة [٥]؛ فقد كان أكثر انجذابًا في محاور بناء فصوله إلى الأقوال الموزونة، فأما جرير فقد كان أكثر تعويلًا على روافد السياق الذي سيضع فيه تلك المحاور.

ثم ينبغي التنبيه آخرًا على دوران أقل أقوال الأعشى الكاشفة عليه هو حتى إذا ما استقرت في مواضعها وانبنت عليها فصولها دار أكثرها عليه هو، والتنبيه على دوران أكثر أقوال جرير الكاشفة عليه هو بصور مختلفة حتى إذا ما استقرت في مواضعها وانبنت عليها فصولها لم يدر عليه غيرُ أقلها!

أما الأعشى فقد كان قوله الأول مثلًا مطلقًا من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى «وَدِّعْ هُرَيْرَةَ» انصرف إلى الاستئناف عنه وصار المعرف بأل فيه «الرَّكْبَ» إلى العهدية التي تنوب فيها أل عن ضميره؛ فإن «الرَّكْبَ» ركبه(٢) ـ وكان قوله السادس متجها إلى ضمير غيبة الغيث، حتى إذا ما إضيف إلى قوله «حَتَّى تَحَمَّلَ مِنْهُ الْمَاءَ» انصرف إلى الحال من الماء المستفاد من الغيث المنعوت في جواب صَحْبِ الأعشى طَلَبَهُ ـ وكان قوله الثامن مطلقًا من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى «مِنْ كُلِّ ذلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ» انصرف إلى الحال من ضمير تكلمه وصار المعرفات بأل فيه «التِّجارِبِ، اللَّهْوِ، الْغَـزَلْ» إلى العهدية التي تنوب فيها أل كذلك عن ضميره.

وأما جرير فقد كان قوله الأول مثلًا متجها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى «حَيِّ الْمَنازِلَ» انصرف إلى الاستئناف عنه خضوعًا لسطوة دار الحبيبة البائنة التي عهدته وعهدتها ـ وكان قوله الرابع متجها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى «تَهْوى ثَرى الْعِرْقِ» انصرف إلى الاستئناف عنه خضوعًا كذلك لسطوة دار الحبيبة البائنة التي عهدته وعهدتها ـ وكان قوله الخامس متجها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى «طارَ الْفُؤادُ مَعَ الْخَوْدِ الَّتي طَرَقَتْ في النَّوْمِ (...) انصرف إلى الاستئناف عنه انخداعا بوهم الوصال».

لقد استأنف الشاعران مثلًا قوليهما الكاشفين الأولين استئناف تعليل عن جملتين طلبيتين:

الجملة السابقة	أداة التعليل	القول الكاشف اللاحق
وَدِّعْ هُرَيْرَةَ	إذْ	إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ
حَيِّ المَنازِلَ	إذْ	لا تَبْتَغي بدلًا بالدّارِ دارًا وَلا الجيرانِ جيرانًا

وكان قول الأعشي منهما مطلقًا من الاتجاه إليه، وقول جرير مقيدًا بالاتجاه إليه، ولكن لما كان الأعشي بادئًا بائنًا مستغنيًا بالسفر، وجرير مبدوءًا مبينًا عنه متمسكًا بالبقاء، وجَرَتْ حال كل منهما على ما يؤثره لأقواله الكاشفة عن وَعْيٍ منه أو غَفْلَةٍ ـ تَقَيَّدَ مُطْلَقُ الأعشي وأُطْلِقَ مُقَيَّدُ جرير!

ولا ريب لدي الآن في علاقة ما انتهجه كلًا الشاعرين في فصول التأتي، بما انتهجه في فصل الرسالة؛ فإنه لما لان الأعشى بِوَعيده في فصل الرسالة قَسا بتَحازُنِهِ في فصول التأتي، ولما قسا جرير بذَمِّه في فصل الرسالة لان بتَحازُنه في فصول التأتي؛ عسى أن تعتدل عند متلقي كلتا قصيدتيهما جميعًا كِفَّتَا ميزانها؛ فتفوز بقبولهم الذي يكفل لصاحبها بُلوغَها مَبْلَغَها!

خاتمةٌ

[٣٣] لم يخل اشتغالي بمقتضى مقالة أبي عمرو بن العلاء ـ رضي الله عنه! ـ هذه النفيسة: ((نَظيرُهُ (الأعشى) في الإِسْلام جَريرٌ، وَنَظيرُ النّابِغَةِ الأَخْطَلُ، وَنَظيرُ زُهَيْرٍ الْفَرَزْدَقُ))(١١)، من إجلال لما في موازنة الكلام العربي بعضه ببعضه من دعوة خالدة إلى بحث نحوي راسخ شامخ، لا يتناهى في أية الجهتين إلى غاية، بل يتراحب كلما سار فيه النحويون، نافيًا عنهم خوفهم من نَفاد مسائل البحث وتكرارها الذي يؤرقهم، واقفًا غيرهم على جَلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية الإسلامية المُشَرَّفة المضيَّعة؛ فاخترت لهذا البحث شعر أول أزواج الشعراء المذكورين بمقالته (الأعشى وجرير).

ثم لما وجدت كلا الشاعرين قد فَصَّلَ قصيدته إلى فصلٍ للرسالة صنعه أولًا ووضعه آخرًا وفصول للتأتّي صنعها آخرًا ووضعها أولًا، قدمت النظر في فصلي رسالتهما؛ فانتبهت إلى اجتماعهما عليها، ثم إلى افتراقهما في مقدارها، ثم إلى اجتماعهما على إطار أجزائها، ثم إلى افتراقهما في ذكر خَصيمَيْهِا، ثم إلى اختصاص الأعشى بتقديم اسم رسالته قبل أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على أقسام أجزائها، ثم إلى افتراقهما في أنصبة أصحابها، ثم إلى افتراقهما في تَتابُع أقسامها، ثم إلى افتراقهما في أزمان أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على ما تَصَدَّرَ فيه ضمير تكلمهما من أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على تَفْقير فَصْلَيها، ثم إلى اجتماعهما على أعداد الفقر ومقاديرها، ثم إلى افتراقهما في منازل الفقر، ثم إلى افتراقهما في تراكيب محاور الفقر ـ وأخرت النظر في فصول التأتّي؛ فانتبهت إلى اجتماعهما على التأتّي بتحازن العشاق، ثم إلى افتراقهما في تفصيل المعاني وتوصيلها، ثم إلى افتراقهما في تفصيل المباني وتوصيلها، ثم إلى اجتماعهما على اقتضاب مفاصل الفصول، ذلك كله على النحو التالي في الجدول:

م	مسائل الاجتماع	مسائل الافتراق
١	تفصيل القصيدة	مقدار الرسالة
٢	إحاطة الرسالة	ذكر الخصيم
٣	تقسيم أجزاء الرسالة	تقديم اسم الرسالة
٤	تصدر المتكلم	أصحاب الأقسام
٥	تفقير فصل الرسالة	تتابع الأقسام
٦	الفقر وأبياتها	أزمان الأجزاء
٧	التأتي بتحازن العشاق	منازل الفقر
٨	اقتضاب مفاصل الفصول	محاور الفقر
٩		تفصيل المعاني وتوصيلها

١٠		تفصيل المباني وتوصيلها

لقد ظَهَرَتْ بين الشاعرين مسائلُ جامعةٌ، ربما كانت وراء مقالة أبي عمرو بن العلاء، رضي الله عنه! ولكنّ ثَمَّ مَسائلَ أخرى فارقةً ظَهَرَتْ على تلك المسائل الجامعة، ربما كانت وراء بقائهما جميعًا معًا في العربية شاعرين كبيرين، حتى قال يحيى بن الجون العبدي راويةُ بشّار: «نَحْنُ حاكَةُ الشِّعْرِ في الجاهِلِيَّةِ وَالإِسْلام، وَنَحْنُ أَعْلَمُ النّاسِ بِهِ. أَعْشى قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ أُسْتاذُ الشُّعَراءِ في الجاهِلِيَّةِ، وَجَريرُ بْنُ الخَطَفى أُسْتاذُهُمْ في الإِسْلامِ»[١٠٣]!

حَواشي الْفَصْلِ الثّالِثِ

١ ابن سلام: ١/ ٦٦.

٢ السابق: ١/ ٦٥؛ فقد نقل عن أصحاب الأعشى احتجاجهم له بأنه «أَكْثَرُهُمْ عَروضًا»، وهو ما فسره في حاشية الصفحة نفسها أستاذنا محمود محمد شاكر ـ رحمه الله! ـ بقوله: «يَعْني كَثْرَةَ أَوْزانِهِ وَاخْتِلافَها، وَكَذلِكَ تَجِدُ شِعْرَ الْأَعْشى».

٣ ضيف: ٣١٧ ـ ٣٢٤.

٤ الأصفهاني: ٩/ ٣٢٢٩، وابن منظور: صنج.

٥ وفي ذلك قوله ـ الأعشى: ٥٩ ـ:

«وَمُسْتَجيبٍ تَخالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ إِذا تُرَجِّعُ فيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ
مِنْ كُلِّ ذلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ وَفي التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ».

٦ وفي ذلك قوله ـ جرير: ١/ ١٦٥ ـ:

«هَلْ يَرْجِعَنَّ وَلَيْسَ الدَّهْرُ مُرْتَجِعًا عَيْشٌ بِها طالَما احْلَوْلى وَما لانا
أَزْمانَ يَدْعونَني الشَّيْطانَ مِنْ غَزَلي فَكُنَّ يَهْوَيْنَني إِذْ كُنْتُ شَيْطانًا».

٧ البحراوي: ٥٦.

٨ الأعشى: ٥٥ ـ ٦٣، وربما ظُنَّ حسنًا أن أقدم لهذه القصيدة بشرح بعض مفرداتها، ولكنني استحسنت ألا أفعل؛ فربما أفسدها تقديم مثل هذا الشرح، ولا سيما أن سياق البحث كفيل به.

٩ أكتب الأبيات متصلة الأشطار بلا بياض بين صدورها وأعجازها، إلا الأبيات المصرعة أو المقفاة الواضح قصد الشاعر فيها إلى الوقف على أعاريضها تشبيها لها بضروبها ـ أخذا بما رأيته من أصالة اتصالها في عمل الشاعر وحداثة انفصالها في عمل العَروضيّ، على ما أغرانا أستاذنا محمود محمد شاكر ـ رحمه الله! ـ بمثل قوله ـ شاكر: ٦٥ ـ ٦٦ ـ: «جريت في هذه المقالات (نمط صعب ونمط مخيف) على كتابة بيت الشعر سطرًا واحدًا، ليس بين المصراعين بياض، كما ألفنا فيما ننشره من الشعر. هذا، والقدماء كانوا يكتبون الشعر كذلك سطرًا واحدًا متصلًا في جميع المخطوطات القديمة»، وإن لم يجر هو نفسه على ذلك في كثير مما أخرج، فربما خالفه الطابع إلى ما نهاه عنه، ولا سيما أنني سمعته يشكو كثرة أخطاء طباعة كتبه على رغم شدة عنايته بتدقيقها!

١٠ قسمت هذا الفصل على فقرتيه وجملها، ورقمتها، تمهيدًا لبحثها فيما يأتي، تجنبا للتطويل بإعادة ذكرها:

١١ جرير: ١/ ١٦٠ ـ ١٦٧، وكذلك استحسنت ألا أفسد هذه القصيدة بتقديم شرح بعض مفرداتها.

١٢ وكذلك قسمت هذا الفصل تمهيدًا وتجنبًا.

١٣ ابن يعيش: ١/ ٤٤ ـ ٤٥.

١٤ ابن دريد: ٣٣٨ ـ ٣٣٩، وكذلك ١٠٦.

١٥ الجملة في هذا البحث مُرَكَّبٌ لُغَوِيٌّ مِنْ عُنْصُرَيْنِ مُؤَسِّسَيْنِ بينهما علاقة إسناد، ربما انضافت إليهما أو إلى أحدهما عناصر مُكَمِّلَةٌ (مُتَعَلِّقات)، وربما انضافت إلى تلك العناصر كلها أو إلى بعضها عناصر أخرى مُلَوِّنَةٌ (أدوات).

١٦ يدل على ذلك تأمل ديوانه، ولا سيما عينيته ـ الأعشى: ١٠١ ـ:

«بانَتْ سُعادُ وَأَمسى حَبْلُها انْقَطَعا وَاحْتَلَّتِ الْغَمْرَ فَالْجُدَّيْنِ فَالْفَرَعا»،

وداليته ـ الأعشى: ٢٢٧ ـ:

«أَثوى وَأَقْصَرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدا وَمَضى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا».

١٧ الرضي: ٢/ ٣٣٩.

١٨ حسن: ٤/ ٤٨٤.

١٩ البغدادي: ١١/ ٣٢٧، وحسن: ٤/ ٤٨٧.

٢٠ ابن عصفور: ١١٩ وما بعدها.

٢١ ابن قتيبة: ١/ ٤٦٦، وقد نبه محققه العلامة في حاشية الصفحة، على علاقة كلمة جرير بآية سورة البقرة.

٢٢ البقرة: من الآية ١٩٤.

٢٣ ابن هشام: ١/ ٦٤.

٢٤ البقرة: من الآية ١٠٢.

٢٥ ابن منظور: شرى.

٢٦ السابق: تنم، وضمر.

٢٧ السابق: خزز.

٢٨ صقر: ١٠٥ ـ ١٠٦.

٢٩ الجرجاني: ١٧١ ـ ١٧٢.

٣٠ حسن: ٣/ ٤٩٤، ومن ثم جعلوا من شروط حذف المنعوت صلاح نعته لمباشرة عامله إلا إذا كان المنعوت بعض كُلٍّ سابق مجرور «بمن» أو «في»، وليس منه منعوت الأعشى!

٣١ ابن جني: ٢/ ٤٣٥، على رغم بيانه شدة القول بحذف الفاعل عند كثير من النحويين.

٣٢ الرضي: ٢/ ٣٣٠.

٣٣ ابن يعيش: ٨/ ٢٩.

٣٤ سيبويه: ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

٣٥ الشماخ: ٨٣ ـ ٨٤.

٣٦ سيبويه: ٣/ حاشية ص ١٠٤.

٣٧ الشماخ: حاشية ص ٨٤.
٣٨ ابن هشام: ٢/ ١١، فقد انتبه إلى زيادة «ما» في هذا البيت مرتين.
٣٩ ابن هشام: ١/ ١٤٤ ـ ١٤٦.
٤٠ البغدادي: ٧/ ١٥٧.
٤١ ابن الحاجب: ١/ ١٣٤، وابن هشام: ٢/ ١٠٢.
٤٢ ابن منظور: ورد، شرع؛ فقد أشار إلى معنى الطريق إلى الماء الذي في «مَوْرِدَة»، ومعنى التساوي في الحق الذي في «شَرَع».
٤٣ ابن جني: ٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.
٤٤ ابن منظور: صون.
٤٥ السابق: كون.
٤٦ ابن الأثير: ٣/ ١٢١.
٤٧ السابق: ٣/ ١٤١.
٤٨ السابق: ٣/ ١٢١.
٤٩ الفارابي: ١٠٨٨، ١٠٨٩؛ فقد نبه على أن أقصر الأقوال الموزونة هو الشطر (المصراع)، وأن أطولها لا حد له، ولكنه يكون بمضاعفة ذلك الشطر (المصراع).
٥٠ ابن هشام: ١/ ٥٢؛ فقد نبه على مسألة نيابة أل عن الضمير عند الكوفيين وبعض البصريين وكثير من المتأخرين، وهي في أمثلتهم ملتبسة بالعهدية.
٥١ ابن سلام: ١/ ٦٦.
٥٢ الأصفهاني: ٩/ ٣٢٣٢. ومن أعجب ما اجتمع عليه الأعشى وجرير، أن تَسَمّى ابنُ بِنْتِ جَرير مِسْحَلًا كاسم رَئِيّ الأعشى (شيطانه) القائل هو فيه:
«إذا مِسْحَلٌ سَدّى لِيَ القَوْلَ أَنْطِقُ»
ـ وأن دُفِنَ جَرِيرٌ باليمامة حيث قبر الأعشى!

كُتُبُ الْفَصْلِ الثَّالِثِ

- ابن الأثير (أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم الجزري): «المثل السائر»، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتوران أحمد الحوفي وبدوي طبانة، وطبعته ونشرته دارُ نهضة مصر بفجالة القاهرة.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان): «الخصائص»، حققه محمد علي النجار، وطبعته الطبعةَ الثالثة في ١٩٨٧م الهيئةُ المصرية العامة للكتاب.
- ابن الحاجب (أبو عمر عثمان): «أماليه»،حققه الدكتور فخر صالح سليمان قدارة، وطبعته في ١٩٨٩م دارُ الجيل ببيروت.
- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن): «الاشتقاق»، حققه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعةَ الأولى في ١٤١١هـ=١٩٩١م ونشرته دارُ الجيل ببيروت.
- ابن سلام (محمد الجمحي): «طبقات فحول الشعراء»، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، وطبعته مطبعةُ المدني بالقاهرة.
- ابن عصفور (أبو الحسن علي بن عبد المؤمن الإشبيلي): «ضرائر الشعر»، حقه السيد إبراهيم محمد، وطبعته الطبعةَ الثانية في ١٩٨٢م ونشرته دارُ الأندلس ببيروت.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الكوفي الدينوري): «الشعر والشعراء»، حققه وشرحه أحمد محمد شاكر، وطبعته ونشرته دارُ المعارف بالقاهرة.
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): «لسان العرب»، طبعته دارُ المعارف بالقاهرة.
- ابن هشام (جمال الدين الأنصاري): «مغني اللبيب»، طبعته ونشرته دارُ إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) بالقاهرة.
- ابن يعيش (موفق الدين بن يعيش): «شرح المفصل»، نشرته مكتبةُ المتنبي بالقاهرة.
- الأصفهاني (علي بن الحسين القرشي): «الأغاني»، حققه إبراهيم الإبياري، وطبعته في ١٩٦٩م ونشرته دارُ الشعب بالقاهرة.
- الأعشى (ميمون بن قيس): «ديوانه»، شرحه وعلق عليه الدكتور محمد محمد حسين، وطبعته المطبعة النموذجية بالقاهرة، ونشرته مكتبة الآداب بجماميز القاهرة.
- البحراوي (الدكتور سيد): «العروض وإيقاع الشعر»، طبعته في ١٩٩٣م الهيئةُ المصرية العامة للكتاب.
- البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب»، حققه وشرحه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعةَ الثانية في ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م مطبعةُ المدني بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد): «دلائل الإعجاز»، طبعته في ١٩٨٤م مطبعة المدني بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- جرير (ابن عطية بن حذيفةَ الخَطَفى): «ديوانه»، حققه الدكتور نعمان محمد أمين طه، وطبعته الطبعةَ الرابعة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- حسن (عباس): «النحو الوافي»، طبعته الطبعةَ السادسة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- الرضي (محمد بن الحسن الاستراباذي): «شرح الكافية»، طبعته في ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م ونشرته دارُ الكتب العلمية ببيروت.
- سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر): «الكتاب»، حققه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعةَ الثالثة في ١٩٨٨م مطبعةُ المدني بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- شاكر (محمود محمد): «كتاب الشعر»، نسخة مصورة عن أصل لدى أستاذنا لم أجده منشورًا بعد.
- الشماخ (ابن ضرار الذبياني): «ديوانه»، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، وطبعته في ١٩٧٧م ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- صقر (الدكتور محمد جمال): «الأمثال العربية القديمة: دراسة نحوية»، طبعته الطبعةَ الأولى في ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م مطبعة المدني بالقاهرة.
- ضيف (الدكتور شوقي): «الشعر والغناء في مكة والمدينة»، طبعته الطبعةَ الرابعة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- الفارابي (أبو نصر محمد بن طرخان): «كتاب الموسيقا الكبير»، حققه وشرحه غطاس عبد الملك خشبة، وراجعه وصدَّره الدكتور محمود أحمد الحفني، وطبعته دار الكاتب بالقاهرة.

الْفَصْلُ الرّابِعُ

بَيْنَ الرّافِعـــيِّ وَشــاكِرٍ

مُوازَنَةٌ نَصّيَّةٌ نَحْويَّةٌ

مُقَدِّمَةٌ

التَّثْقِيفُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلَامِيُّ

[١] إذا هَجَرَ الْمُثَقَّفون ثَقافَتَهم جَهِلوها؛ فضاع إيمانهم بها، وزَهِدوا فيها، واختلفوا؛ فمِنْ مُتَشاغِلٍ عنها ببادِّيات حضارته وكأنها لُغْزٌ يُعَنِّتُه النَّظَرُ فيه، ومِنْ مُدْبِرٍ عنها إلى غيرها من الثقافات وكأنها عارٌ يَنْبَغي أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ، ومِنْ مُقْبِلٍ عليها بالتحريف وكأنها قَرْزَمَةٌ يَنْبَغي أَنْ يُهَذِّبَها ـ حتى إذا ما تَيَسَّرَ لبعضهم أن يَسْتَوْعِبَها حتى تَمْلأَ عليه أقطارَ نفسه، فَيُؤْمِنَ بها حتى يَصيرَ هو نَفْسُه مَظْهَرَ كُنْهِها، ويَحْرِصَ عليها حتى يَصيرَ هو نَفْسُه لِسانَ حالِها ـ أقبل يتأتى إلى تعليمها، ويغري المثقفين بمراجعتها.

ويبدو لي أن حَيَواتِ الثقافات الكبيرة حيواتٌ مستديرة، تتوالى فيها من قديمها إلى حديث، أحوالُ الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف؛ فقد ابتليت الثقافة العربية الإسلامية في القرن الهجري الرابع عشر (الميلادي العشرين)، بطوائف من أولئك الجاهلين الشاكين الزاهدين، تَشاغَلوا، وأَدْبَروا، وحَرَّفوا، وتَمَكَّنوا[١]، حتى نشأ مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧م)، ثم تلميذه محمود محمد شاكر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٧م) ـ رحمهما الله! ـ فلم يكونا إلا مُثَقَّفَيْنِ أوتيا من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، ما أقبلا يَتَأَتَّيان به إلى تعليمها والإغراء بمراجعتها[٢]، حتى استحدثا أساليب أدبية متعددة مختلفة، أثرت في المتلقين تأثيرًا شديدًا.

أَشَدُّ الْأَساليبِ التَّثْقيفيَّةِ تَأْثيرًا

[٢] ولكن ثَمَّ أسلوبين مَجازِيَّيْنِ، كانا أشد أساليبهما تأثيرًا[٣]:

١ تَكْمِلَةُ الْكُتُبِ الْقَديمَةِ: فيه يكتبان نصوصهما فيما يريدان أن يبيناه لمعاصريهما من معالم الثقافة التي استوعباها، على منهج كتاب قديم أثيرٍ لَدَيْهِما مَعْروفٍ مَشْهورٍ لَدى المتلقين، ثم ينسبان نصوصهما تلك إلى هذا الكتاب، مُتَقَوِّيَيْنِ بأثره الراسخ في نفوس المتلقين، مُدَّعِيَيْنِ أنه وقعت لكل منهما نسخة منه لم تقع لغيره حتى صاحب الكتاب نفسه، موقِنَيْنِ أنه لن يغفل أحد من المتلقين عن مَجاز عملهما!

أما الرافعي فنسب نصوصًا في مخاصمة بعض الأدباء، إلى كتاب «كليلة ودمنة»، ثم ضمنها كتابه «تحت راية القرآن». وأما شاكر فنسب نصوصًا في مخاصمة بعض الأدباء كذلك، إلى الكتاب نفسه، على أَثَرِ أستاذه، ثم ضَمَّنَها كتابه «أباطيل وأسمار»، ونسب نصوصًا أخرى في استشراف مستقبل الوطن العربي، إلى كتاب «تاريخ الطبري»، ثم تَضَمَّنَها كتابُ «جمهرة مقالات محمود محمد شاكر»، الصادر بعد وفاته.

٢ تَكْمِلَةُ الْمَجالِسِ الْقَديمَةِ: فيه يكتب الكاتبان نصوصهما فيما يريدان أن يبيناه لمعاصريهما من معالم الثقافة التي استوعباها، على منهج مجالس أعلام حملة ثقافتهما القدماء التي يرويها الأخباريّون، ثم ينسبان نصوصهما تلك إلى هؤلاء الأعلام، مُتَقَوِّيَيْنِ بأثرهم الراسخ في نفوس المتلقين، مُدَّعِيَيْنِ أنهما سمعا وشاهدا ما لم يسمعه أو يشاهده غيرهما حتى الأخباريّون السابقون أنفسهم، موقِنَيْنِ أنه لن يغفل أحد من المتلقين عن مجاز عملهما هذا كذلك!

أما الرافعي فروى نصوصًا في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية، عن بعض العلماء والزهاد، ثم ضمنها كتابه ((وحي القلم)). وأما شاكر فروى نصوصًا في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية كذلك، وفي تنبيه الوعي السياسي، عن أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغَزِل المشهور، ثم تَضَمَّنَها كتاب ((جمهرة مقالات محمود محمد شاكر)) نفسه. وعلى رغم وضع شاكر فوق عناوين نصوص هذا الأسلوب، عبارة ((من مذكرات عمر بن أبي ربيعة))، يَمْنَعُ من إضافتها إلى الأسلوب الأول، ألّا وجود في الكتب القديمة، لما تشير إليه العبارة!

جَوامِعُ الْأُسْلوبَيْنِ وَفَوارِقُهما

[٣] وعلى رغم تجلي آيتين من اتصال الحاضر الذليل بالماضي العزيز (هَمِّ الكاتبين) في نصوص الأسلوبين: استدعاء الماضي إلى الحاضر في نصوص الأسلوب الأول، ورحيل الحاضر إلى الماضي في نصوص الأسلوب الأخير - مَيَّزَ هذين الأسلوبين الاثنين في خلال ذلك الاتصال الواحد:

١ أن الأسلوب الأول أميل إلى العِلْمِيَّة - وإن عُدَّ كتاب ((كليلة ودمنة)) في الكتب الفنية - من حيث يجري مجرى عمل المُحَقِّقين، والأخير أميل إلى الفَنِّيَّة، من حيث يجري مجرى عمل القَصّاصين؛ فكأنما حرص الكاتبان على أن يسلكا إلى المتلقين، كل سبيل!

٢ أن أحداث نصوص الأسلوب الأول مُدَّعاةٌ على الكتب المنسوبة إليها، وأحداث نصوص الأسلوب الأخير مُحَقَّقَةٌ على أصحابها، وإن شابَتْها زيادات لا تؤثر فيها.

٣ أن افتراق الأسلوبين بما سبق، أفضى إلى كثرة نصوص الكاتبين في الأسلوب الأخير عنها في الأسلوب الأول، وإن كانت نصوص شاكر على وجه العموم أقل كثيرًا من نصوص أستاذه، شأنَ المُعارَضَةِ؛ فمهما أحبَّ التلميذُ المعارِضُ أستاذَه المعارَضَ، وكان مُوَفَّقًا في مُعارَضَتِه، فَسَيَظَلُّ أكبرُ إخلاصه لما يستنبطه هو نفسه، ما دام فنانًا مبدعًا!

نُصوصُ الْأُسْلوبِ الْأَخيرِ

[٤] ولقد كان في جلال الغاية التي أَمَّها الكاتبان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أسلوبهما الأخير الواضح في زيادة نصوصه على نصوص الأسلوب الأول - ما يستغرق تأمل النحوي، حتى يوازن بينهما موازنة نصية نحوية؛ فيشرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

- فانطلقت من نصوص شاكر هذه القليلة، في الأسلوب الأخير:

١ «ذات النطاقين»[٤]، في الشدائد التي عانتها حتى ماتت.

٢ «الحقيقة المؤمنة»[٥]، فيما ابتلي به عروة بن الزبير.

٣ «أيام حزينة»[٦]، فيما ابتلي به ابن أبي عتيق.

٤ «جريرة ميعاد»[٧]، في بعض المواقف الغزلية.

٥ «صديق إبليس»[٨]، في بعض المواقف الغزلية.

٦ «صديق إبليس»[٩]، في بقية ذلك.

٧ «حديث غد»[١٠]، في إجلاء يهود عن بلاد العرب.

- إلى نصوص الرافعي هذه الكثيرة في الأسلوب الأخير نفسه:

١ «سمو الحب»[١١]، في الحب بين الرجل والمرأة.

٢ «قصة زواج وفلسفة مهر»[١٢]، في حسن اختيار الزوج.

٣ «ذيل القصة وفلسفة المال»[١٣]، في بقية ذلك.

٤ «زوجة إمام»[١٤]، في مكانة المرأة.

٥ «زوجة إمام: بقية الخبر»[١٥]، في بقية ذلك.

٦ «قبح جميل»[١٦]، في حسن اختيار الزوجة.

٧ «رؤيا في السماء»[١٧]، في حسن علاقة الزوج بزوجته.

٨ «بنته الصغيرة»[١٨]، في الفوز بالأبناء.

٩ «بنته الصغيرة»[١٩]، في بقية ذلك.

١٠ «الانتحار»[٢٠]، في علاج اليأس من الدنيا.

١١ «الانتحار»[٢١]، في بقية ذلك.

١٢ «الانتحار»[٢٢]، في بقية ذلك.

١٣ «الانتحار»[٢٣]، في بقية ذلك.

١٤ «الانتحار»[٢٤]، في بقية ذلك.

١٥ «الانتحار»[٢٥]، في بقية ذلك.

١٦ «السمكة»[٢٦]، في الإيثار على النفس.

١٧ «الزاهدان»[٢٧]، في بقية ذلك.

١٨ «إبليس يعلم»[٢٨]، في بقية ذلك.

١٩ «الدنيا والدرهم»[٢٩]، في بقية ذلك.

٢٠ «الشيطان»[٣٠]، في معنى الصلاح والفساد.

٢١ «الأسد»[٣١]، في ثبات العلماء وكراماتهم.

٢٢ «أمراء للبيع»[٣٢]، في جلال العلماء وسطوتهم.

مادَّةُ المُوازَنَةِ

[٥] تَلَمَّسْتُ كُلَّ زَوْجَيْنِ مُتَشابِهَيْنِ مِقْدارًا وَرِسالَةً، حتى عثرت لنص شاكر الثاني «الحقيقة المؤمنة»، على نص الرافعي الحادي والعشرين «الأسد»؛ فَفَصَّلْتُهما بما اسْتَوْعَبْتُها، وعَنْوَنْتُ فُصولَها، ورَقَّمْتُها، وشَكَّلْتُها، على النحو التالي:

«الأَسَدُ»، لِلرّافِعِيِّ[٣٣]:

[١: مَشْهَدُ وَفاةِ الْبَطَلِ]

«جَلَسَ أَبو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرّوذَباديُّ الْبَغْداديُّ في مَجْلِسِ وَعْظِهِ بِمِصْرَ بَعْدَ وَفاةِ شَيْخِهِ أَبي الْحَسَنِ بُنانٍ الْحَمّالِ الزّاهِدِ الْواسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَكانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِعِبادَتِهِ وَزُهْدِهِ، وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ في جِنازَتِهِ، فَكانَ يَوْمُهُ يَوْمًا كَالْبُرْهانِ مِنَ الْعالَمِ الْآخَرِ لِأَهْلِ هذِهِ الدُّنْيا: ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا اقْتَنَعَ أَنَّهُ في شَهَواتِ الْحَياةِ وَأَباطيلِها كَالْأَعْمى في سوءِ تَمْييزِهِ بَيْنَ لَوْنِ التُّرابِ وَلَوْنِ الدَّقيقِ؛ إِذْ يَنْظُرُ كُلُّ امْرِئٍ في مَصالِحِهِ وَمَنافِعِهِ مِثْلَ هذِهِ النَّظْرَةِ، بِاللَّمْسِ لا بِالْبَصَرِ، وَبِالتَّوَهُّمِ لا بِالتَّحْقيقِ، وَعَلى دَليلِ نَفْسِهِ في الشَّيْءِ لا عَلى دَليلِ الشَّيْءِ في نَفْسِهِ، وَبِالْإِدْراكِ مِنْ جِهَةٍ واحِدَةٍ دونَ الْإِدْراكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ثُمَّ يَأْتي الْمَوْتُ، فَيَكونُ كَالْماءِ صُبَّ عَلى الدَّقيقِ وَالتُّرابِ جَميعًا، فَلا يَرْتابُ مُبْصِرٌ وَلا أَعْمى؛ وَيَبْطُلُ ما هُوَ باطِلٌ، وَيَحِقُّ الَّذي هُوَ حَقٌّ.

[٢: التَّطَلُّعُ إِلى لِقاءِ الْبَطَلِ]

وَتَكَلَّمَ أَبو عَلِيٍّ، فَقالَ: كُنْتُ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنا الْجُنَيْدِ في بَغْدادَ، فَجاءَهُ كِتابٌ مِنْ يوسُفَ بْنِ الْحَسَنِ شَيْخِ الرَّيِّ وَالْجِبالِ في وَقْتِهِ، يَقولُ فيهِ:

لا أَذاقَكَ اللهُ طَعْمَ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَها لَمْ تَذُقْ بَعْدَها خَيْرًا أَبَدًا!

قالَ: فَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ في طَعْمِ النَّفْسِ: ما هُوَ، وَجاءَني ما لَمْ أَرْضَهُ مِنَ الرَّأْيِ، حَتّى سَمِعْتُ بِخَبَرِ بُنانٍ - رَحِمَهُ اللهُ! - مَعَ أَحْمَدَ بْنِ طولونَ أَميرِ مِصْرَ، فَهُوَ الَّذي كانَ سَبَبَ قُدومي إِلى هُنا لِأَرى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَأَنْتَفِعَ بِهِ.

[٣: مَكانَةُ أَمْثالِ الْبَطَلِ]

وَالْبَلَدُ الَّذي لَيْسَ فيهِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الدّينِ الصَّحيحِ وَالنَّفْسِ الْكامِلَةِ وَالْأَخْلاقِ الْإِلٰهِيَّةِ، هُوَ فِي الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذي لَيْسَ فيهِ كِتابٌ مِنَ الْكُتُبِ أَلْبَتَّةَ، وَإِنْ كانَ كُلُّ أَهْلِهِ عُلَماءَ، وَإِنْ كانَ في كُلِّ مَحَلَّةٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ، وَفي كُلِّ دارٍ مِنْ دورِهِ خِزانَةُ كُتُبٍ؛ فَلا تُغْني هٰذِهِ الْكُتُبُ عَنِ الرِّجالِ؛ فَإِنَّما هِيَ صَوابٌ أَوْ خَطَأٌ يَنْتَهي إِلَى الْعَقْلِ، وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ الْكامِلَ صَوابٌ يَنْتَهي إِلَى الرّوحِ، وَهُوَ في تَأْثيرِهِ عَلَى النّاسِ أَقْوى مِنَ الْعِلْمِ، إِذْ هُوَ تَفْسيرُ الْحَقائِقِ فِي الْعَمَلِ وَحَياتُها عامِلَةً مَرْئِيَّةً داعِيَةً إِلى نَفْسِها. وَلَوْ أَقامَ النّاسُ عَشْرَ سِنينَ يَتَناظَرونَ في مَعاني الْفَضائِلِ وَوَسائِلِها، وَوَضَعوا في ذٰلِكَ مِئَةَ كِتابٍ، ثُمَّ رَأَوْا رَجُلًا فاضِلًا بِأَصْدَقِ مَعاني الْفَضيلَةِ، وَخالَطوهُ وَصَحِبوهُ ـ لَكانَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَكْبَرَ فائِدَةً مِنْ تِلْكَ الْمُناظَرَةِ، وَأَجْدى عَلَى النّاسِ مِنْها، وَأَدَلَّ عَلَى الْفَضيلَةِ مِنْ مِئَةِ كِتابٍ وَمِنْ أَلْفِ كِتابٍ؛ وَلِهٰذا يُرْسِلُ اللهُ النَّبِيَّ مَعَ كُلِّ كِتابٍ مُنَزَّلٍ لِيُعْطِيَ الْكَلِمَةَ قُوَّةَ وُجودِها، وَيُخْرِجَ الْحالَةَ النَّفْسِيَّةَ مِنَ الْمَعْنَى الْمَعْقولِ، وَيُنْشِئَ الْفَضائِلَ الْإِنْسانِيَّةَ عَلى طَريقَةِ النَّسْلِ مِنْ إِنْسانِها الْكَبيرِ.

وَما مَثَلُ الْكِتابِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْءُ مِنْهُ حَقائِقَ الْأَخْلاقِ الْعالِيَةِ، إِلّا كَوَضْعِ الْإِنْسانِ يَدَهُ تَحْتَ إِبْطِهِ لِيَرْفَعَ جِسْمَهُ عَنِ الْأَرْضِ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْمَلُ، وَلٰكِنَّهُ لَنْ يَرْتَفِعَ؛ وَمِنْ ذٰلِكَ كانَ شَرُّ النّاسِ هُمُ الْعُلَماءَ وَالْمُعَلِّمينَ إِذا لَمْ تَكُنْ أَخْلاقُهُمْ دُروسًا أُخْرى تَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَ الْكَلامِ؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَجْلِسُ مَجْلِسَ الْمُعَلِّمِ، ثُمَّ تَكونُ حَوْلَهُ رَذائِلُهُ تُعَلِّمُ تَعْليمًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ يَدْري وَلا يَدْري، وَيَكونُ كِتابُ اللهِ مَعَ الْإِنْسانِ الظّاهِرِ مِنْهُ، وَكِتابُ الشَّيْطانِ مَعَ الْإِنْسانِ الْخَفِيِّ فيهِ.

[٤: صِفَةُ الْبَطَلِ عِنْدَ اللِّقاءِ]

قالَ أَبو عَلِيٍّ: وَقَدِمْتُ إِلى مِصْرَ لِأَرى أَبا الْحَسَنِ وَآخُذَ عَنْهُ وَأُحَقِّقَ ما سَمِعْتُ مِنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طولونَ؛ فَلَمّا لَقيتُهُ لَقيتُ رَجُلًا مِنْ تَلاميذِ شَيْخِنا الْجُنَيْدِ، يَتَلَأْلَأُ فيهِ نورُهُ، وَيَعْمَلُ فيهِ سِرُّهُ؛ وَهُما كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ فِي الضَّوْءِ وَإِنْ صَغُرَتْ واحِدَةٌ وَكَبُرَتْ واحِدَةٌ؛ وَعَلامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هٰؤُلاءِ أَنْ يَعْمَلَ وُجودُهُ فيمَنْ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ، كَأَنَّ بَيْنَ الْأَرْواحِ وَبَيْنَهُ نَسَبًا شابِكًا، فَلَهُ مَعْنى أُبُوَّةِ الْأَبِ في أَبْنائِهِ: لا يَراهُ مَنْ يَراهُ مِنْهُمْ إِلّا أَحَسَّ أَنَّهُ شَخْصُهُ الْأَكْبَرُ؛ فَهٰذا هُوَ الَّذي تَكونُ فيهِ التَّكْمِلَةُ الْإِنْسانِيَّةُ لِلنّاسِ، وَكَأَنَّهُ مَخْلوقٌ خاصَّةً لِإِثْباتِ أَنَّ غَيْرَ الْمُسْتَطاعِ مُسْتَطاعٌ.

وَمِنْ عَجيبِ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّ الْأَمْراضَ الشَّديدَةَ تَعْمَلُ بِالْعَدْوى فيمَنْ قارَبَها أَوْ لامَسَها، وَأَنَّ الْقُوى الشَّديدَةَ تَعْمَلُ كَذٰلِكَ بِالْعَدْوى فيمَنِ اتَّصَلَ بِها أَوْ صاحَبَها؛ وَلِهٰذا يَخْلُقُ اللهُ الصّالِحينَ، وَيَجْعَلُ التَّقْوى فيهِمْ إِصابَةً كَإِصابَةِ الْمَرَضِ، تَصْرِفُ عَنْ شَهَواتِ الدُّنْيا كَما يَصْرِفُ الْمَرَضُ عَنْها، وَتَكْسِرُ النَّفْسَ كَما يَكْسِرُها ذاكَ، وَتُفْقِدُ الشَّيْءَ ما هُوَ بِهِ

شَيْءٌ، فَتَتَحَوَّلُ قيمَتُه، فَلا يَكونُ بِما فيهِ مِنَ الْوَهْمِ، بَلْ بِما فيهِ مِنَ الْحَقِّ. وَإذا عَدِمَ النّاسُ هذا الرَّجُلَ الَّذي يُعْديهِمْ بِقُوَّتِهِ الْعَجيبَةِ، فَقَلَّما يَصْلُحونَ لِلْقُوَّةِ، فَكِبارُ الصّالِحينَ وَكِبارُ الزُّعَماءِ وَكِبارُ الْقُوّادِ وَكِبارُ الشُّجْعانِ وَكِبارُ الْعُلَماءِ وَأَمْثالُهُمْ، كُلُّ هؤُلاءِ مِنْ بابٍ واحِدٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الْحِكْمَةِ كَكِبارِ الْمَرْضى.

[٥: شُهودُ كَرامَةِ الْبَطَلِ]

قالَ أَبو عَلِيٍّ: وَهَمَمْتُ مَرَّةً أَنْ أَسْأَلَ الشَّيْخَ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طولونَ، فَقَطَعَتْني هَيْبَتُهُ، فَقُلْتُ أَحْتالُ بِسُؤالِهِ عَنْ كَلِمَةِ شَيْخِ الرَّيِّ: «لا أَذاقَكَ اللهُ طَعْمَ نَفْسِكَ». وَبَيْنَما أُهَيِّئُ في نَفْسي كَلامًا أُجْري فيهِ هذِهِ الْعِبارَةَ، جاءَ رَجُلٌ، فَقالَ لِلشَّيْخِ:

لي عَلى فُلانٍ مِئَةُ دينارٍ، وَقَدْ ذَهَبَتِ الْوَثيقَةُ الَّتي كُتِبَ فيها الدَّيْنُ، وَأَخْشى أَنْ يُنْكِرَ إذا هُوَ عَلِمَ بِضَياعِها؛ فَادْعُ اللهَ لي وَلَه أَنْ يُظْفِرَني بِدَيْني وَأَنْ يُثَبِّتَه عَلى الْحَقِّ.

فَقالَ الشَّيْخُ: إِنّي رَجُلٌ قَدْ كَبِرْتُ، وَأَنا أُحِبُّ الْحَلْوى؛ فَاذْهَبْ، فَاشْتَرِ رِطْلًا مِنْها، وَائْتِني بِه حَتّى أَدْعُوَ لَكَ!

فَذَهَبَ الرَّجُلُ، فَاشْتَرى الْحَلْوى، وَوَضَعَها لَهُ الْبائِعُ في وَرَقَةٍ، فَإِذا هِيَ الْوَثيقَةُ الضّائِعَةُ! وَجاءَ إِلى الشَّيْخِ، فَأَخْبَرَه، فَقالَ لَه:

خُذِ الْحَلْوى، فَأَطْعِمْها صِبْيانَكَ، لا أَذاقَنا اللهُ طَعْمَ أَنْفُسِنا فيما نَشْتَهي!

ثُمَّ إِنَّه الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقالَ:

لَوْ أَنَّ شَجَرَةً اشْتَهَتْ غَيْرَ ما بِه صِحَّةُ وُجودِها وَكَمالُ مَنْفَعَتِها، فَأُذيقَتْ طَعْمَ نَفْسِها، لَأَكَلَتْ نَفْسَها، وَذَوَتْ!

قالَ أَبو عَلِيٍّ: وَالْمُعْجِزاتُ الَّتي تَحْدُثُ لِلْأَنْبِياءِ، وَالْكَراماتُ الَّتي تَكونُ لِلْأَتْقِياءِ، وَما يَخْرِقُ الْعادَةَ وَيَخْرُجُ عَنِ النَّسَقِ - كُلُّ ذلِكَ كَقَوْلِ الْقُدْرَةِ عَنِ الرَّجُلِ الشّاذِّ: هُوَ هذا. فَلَمْ تَبْقَ بي حاجَةٌ إِلى سُؤالِ الشَّيْخِ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طولونَ، وَكُنْتُ كَأَنّي أَرى بِعَيْنَيْ رَأْسي كُلَّ ما سَمِعْتُ، بَيْدَ أَنّي لَمْ أَنْصَرِفْ، حَتّى لَقيتُ أَبا جَعْفَرٍ الْقاضِيَ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ قُتَيْبَةَ الدّينَوَرِيَّ، ذاكَ الَّذي يُحَدِّثُ بِكُتُبِ أَبيهِ كُلِّها مِنْ حِفْظِهِ، وَهِيَ واحِدٌ وَعِشْرونَ مُصَنَّفًا، فيها الْكَبيرُ وَالصَّغيرُ؛ فَقالَ لي:

لَعَلَّكَ اشْتَفَيْتَ مِنْ خَبَرِ بُنانٍ مَعَ ابْنِ طولونَ، فَمِنْ أَجْلِه - زَعَمْتَ - جِئْتَ إِلى مِصْرَ؟

قُلْتُ: إِنَّه تَواضَعَ؛ فَلَمْ يُخْبِرْني، وَهِبْتُه؛ فَلَمْ أَسْأَلْهُ.

قالَ: تَعالَ أُحَدِّثْكَ الْحَديثَ:

[٦: صِفَةُ خَصيمِ الْبَطَلِ]

كانَ أَحْمَدُ بْنُ طولونَ مِنْ جارِيَةٍ تُرْكِيَّةٍ، وَكانَ طولونُ أَبوهُ مَمْلوكًا حَمَلَهُ نوحُ بْنُ أَسَدٍ عامِلُ بُخارى إِلى الْمَأْمونِ فيما كانَ مُوَظَّفًا عَلَيْهِ مِنَ الْمالِ وَالرَّقيقِ وَالْبَراذينِ وَغَيْرِ ذلِكَ؛

فَوُلِدَ أَحْمَدُ في مَنْصِبِ ذِلَّةٍ تَسْتَظْهِرُ بِالطُّغْيانِ، وَكانَتْ هاتانِ طَبيعَتَيْهِ إِلى آخِرِ عُمُرِه، فَذَهَبَ بِهِمَّتِهِ مَذْهَبًا بَعيدًا، وَنَشَأَ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِه عَلى أَنْ يُتِمَّ هذا النَّقْصَ وَيَكونَ أَكْبَرَ مِنْ أَصْلِه؛ فَطَلَبَ الْفُروسِيَّةَ وَالْعِلْمَ وَالْحَديثَ، وَصَحِبَ الزُّهّادَ وَأَهْلَ الْوَرَعِ، وَتَمَيَّزَ عَلى الأَتْراكِ وَطَمَحَ إِلى الْمَعالي، وَظَلَّ يَرْمي بِنَفْسِه، وَهُوَ في ذلِكَ يَكْبُرُ وَلا يَزالُ يَكْبُرُ، كَأَنَّما يُريدُ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْ أَصْلِه وَيَلْتَحِقَ بِالأُمَراءِ، فَلَمّا الْتَحَقَ بِهِمْ ظَلَّ يَكْبُرُ لِيَلْتَحِقَ بِالْمُلوكِ، فَلَمّا بَلَغَ هؤُلاءِ كانَتْ نِيَّتُه عَلى ما يَعْلَمُ اللهُ!

قالَ: وَكانَ عَقْلُه مِنْ أَثَرِ طَبيعَتَيْهِ كَالْعَقْلَيْنِ لِرَجُلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: فَلَه يَدٌ مَعَ الْمَلائِكَةِ، وَيَدُه الأُخْرى مَعَ الشَّياطينِ:

فَهُوَ الَّذي بَنى الْمارِسْتانَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ وَأَقامَ فيهِ الأَطِبّاءَ، وَشَرَطَ إِذا(١) جيءَ بِالْعَليلِ أَنْ تُنْزَعَ ثِيابُه وَتُحْفَظَ عِنْدَ أَمينِ الْمارِسْتانِ، ثُمَّ يُلْبَسَ ثِيابًا وَيُفْرَشَ لَه وَيُغْدى عَلَيْه وَيُراحَ بِالأَدْوِيَةِ وَالأَغْذِيَةِ وَالأَطِبّاءِ حَتّى يَبْرَأَ، وَلَمْ يَكُنْ هذا قَبْلَ إِمارَتِه.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَظَرَ في الْمَظالِمِ مِنْ أُمَراءِ مِصْرَ.

وَهُوَ صاحِبُ يَوْمِ الصَّدَقَةِ، يُكْثِرُ مِنْ صَدَقاتِه كُلَّما كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَمَراتِبُه لِذلِكَ في كُلِّ أُسْبوعٍ ثَلاثَةُ آلافِ دينارٍ سِوى مَطابِخِه الَّتي أُقيمَتْ في كُلِّ يَوْمٍ في دارِه وَغَيْرِها، يَذْبَحُ فيها الْبَقَرَ وَالْكِباشَ وَيَغْرِفُ لِلنّاسِ، وَلِكُلِّ مِسْكينٍ أَرْبَعَةُ أَرْغِفَةٍ يَكونُ في اثْنَيْنِ مِنْها فالوذَجُ وَفي الآخَرَيْنِ مِنَ الْقُدورِ، وَيُنادي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ دارَ الأَميرِ فَلْيَحْضُرْ! وَتُفْتَحُ الأَبْوابُ، وَيَدْخُلُ النّاسُ وَهُوَ في الْمَجْلِسِ يَنْظُرُ إِلى الْمَساكينِ وَيَتَأَمَّلُ فَرَحَهُمْ بِما يَأْكُلونَ وَيَحْمِلونَ؛ فَيَسُرُّه ذلِكَ، وَيَحْمَدُ اللهَ عَلى نِعْمَتِه. وَكانَ راتِبُ مَطْبَخِه في كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دينارٍ، وَاقْتَدى بِه ابْنُه خُمارَوَيْه، فَأَنْشَأَ بَعْدَه مَطْبَخَ الْعامَّةِ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ثَلاثَةً وَعِشْرينَ أَلْفَ دينارٍ كُلَّ شَهْرٍ. وَقَدْ بَلَغَ ما أَرْسَلَه ابْنُ طولونَ إِلى فُقَراءِ بَغْدادَ وَعُلَمائِها في مُدَّةِ وِلايَتِه، أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِئَتَيْ أَلْفِ دينارٍ.

وَكانَ كَثيرَ التِّلاوَةِ لِلْقُرْآنِ، وَقَدِ اتَّخَذَ حُجْرَةً بِقُرْبِه في الْقَصْرِ وَضَعَ فيها رِجالًا سَمّاهُمْ بِالْمُكَبِّرينَ، يَتَعاقَبونَ اللَّيْلَ نُوَبًا يُكَبِّرونَ، وَيُسَبِّحونَ، وَيَحْمَدونَ، وَيُهَلِّلونَ، وَيَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ تَطْريبًا، وَيُنْشِدونَ قَصائِدَ الزُّهْدِ، وَيُؤَذِّنونَ أَوْقاتَ الأَذانِ.

وَهُوَ الَّذي فَتَحَ أَنْطاكِيَّةَ في سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتّينَ وَمِئَتَيْنِ، ثُمَّ مَضى إِلى طَرْسوسَ كَأَنَّه يُريدُ فَتْحَها، فَلَمّا نابَذَه أَهْلُها وَقاتَلَهُمْ أَمَرَ أَصْحابَه أَنْ يَنْهَزِموا عَنْها، لِيَبْلُغَ ذلِكَ طاغِيَةَ الرّومِ فَيَعْلَمَ أَنَّ جُيوشَ ابْنِ طولونَ عَلى كَثْرَتِها وَشِدَّتِها لَمْ تَقُمْ لِأَهْلِ طَرْسوسَ، فَيَكونَ بِهذا كَأَنَّه قاتَلَه وَصَدَّه عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلادِ الإِسْلامِ، وَيَجْعَلَ هذا الْخَبَرَ كَالْجَيْشِ في تِلْكَ النّاحِيَةِ!

وَمَعَ كُلِّ ذلِكَ فَإِنَّه كانَ رَجُلًا طائِشَ السَّيْفِ، يَجورُ وَيَعْسِفُ، وَقَدْ أُحْصِيَ مَنْ قَتَلَهُمْ صَبْرًا أَوْ ماتوا في سِجْنِه، فَكانوا ثَمانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا.

وَأَمَرَ بِسَجْنِ قاضيهِ بَكّارِ بْنِ قُتَيْبَةَ في حادِثَةٍ مَعْروفَةٍ، وَقالَ لَهُ:
غَرَّكَ قَوْلُ النّاسِ ما في الدُّنْيا مِثْلُ بَكّارٍ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرِفْتَ!
ثُمَّ حَبَسَه، وَقَيَّدَه، وَأَخَذَ مِنْهُ جَميعَ عَطاياهُ مُدَّةَ وِلايَتِه القَضاءَ، فَكانَتْ عَشَرَةَ آلافِ دينارٍ، قيلَ إِنَّها وُجِدَتْ في بَيْتِ بَكّارٍ بِخَتْمِها لَمْ يَمَسَّها زُهْدًا وَتَوَرُّعًا.
وَلَمّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبو الحَسَنِ يُعَنِّفُه وَيَأْمُرُه بِالمَعْروفِ وَيَنْهاهُ عَنِ المُنْكَرِ، طاشَ عَقْلُه؛ فَأَمَرَ بِإِلْقائِهِ إِلى الأَسَدِ، وَهُوَ الخَبَرُ الَّذي طارَ في الدُّنْيا حَتّى بَلَغَكَ في بَغْدادَ!

[٧: تَعْريضُ البَطَلِ لِلافْتِراسِ]

[٧ = ١: صِفَةُ الأَسَدِ]

قالَ: وَكُنْتُ حاضِرَ أَمْرِهِمْ ذلِكَ اليَوْمَ، فَجِيءَ بِالأَسَدِ مِنْ قَصْرِ ابْنِه خُمارَوَيْهِ. وَكانَ خُمارَوَيْهِ هذا مَشْغوفًا بِالصَّيْدِ، لا يَكادُ يَسْمَعُ بِسَبُعٍ في غَيْضَةٍ أَوْ بَطْنِ وادٍ إِلّا قَصَدَه وَمَعَه رِجالٌ عَلَيْهِمْ لُبودٌ، فَيَدْخُلونَ إِلى الأَسَدِ، وَيَتَناوَلونَه بِأَيْديهِمْ مِنْ غابِه عَنْوَةً وَهُوَ سَليمٌ، فَيَضَعونَه في أَقْفاصٍ مِنْ خَشَبٍ مُحْكَمَةِ الصَّنْعَةِ يَسَعُ الواحِدُ مِنْها السَّبُعَ وَهُوَ قائِمٌ. وَكانَ الأَسَدُ الَّذي اخْتاروهُ لِلشَّيْخِ، أَغْلَظَ ما عِنْدَهُمْ، جَسيمًا، ضارِيًا، عارِمَ الوَحْشِيَّةِ، مُتَرَبِّلَ العَضَلِ، شَديدَ عَصَبِ الخَلْقِ، هَرّاسًا، فَرّاسًا، أَهْرَتَ الشِّدْقِ، يَلوحُ شِدْقُه مِنْ سَعَتِه وَرَوْعَتِه كَفَتْحَةِ القَبْرِ، يُنْبِئُ أَنَّ جَوْفَه مَقْبَرَةٌ، وَيَظْهَرُ وَجْهُه خارِجًا مِنْ لِبْدَتِه، يَهُمُّ أَنْ يَنْقَذِفَ عَلى مَنْ يَراهُ فَيَأْكُلَه!

[٧ = ٢: هَجْمَةُ الأَسَدِ]

وَأَجْلَسوا الشَّيْخَ في قاعَةٍ، وَأَشْرَفوا عَلَيْهِ يَنْظُرونَ، ثُمَّ فَتَحوا بابَ القَفَصِ مِنْ أَعْلاهُ، فَجَذَبوهُ؛ فارْتَفَعَ، وَهَجْهَجوا بِالأَسَدِ يَزْجُرونَه؛ فَانْطَلَقَ يُزَمْجِرُ وَيَزْأَرُ زَئيرًا تَنْشَقُّ لَه المَرائِرُ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُه أَنَّه الرَّعْدُ وَراءَه الصّاعِقَةُ! ثُمَّ اجْتَمَعَ الوَحْشُ في نَفْسِه، وَاقْشَعَرَّ، ثُمَّ تَمَطّى كَالمَنْجَنيقِ يَقْذِفُ الصَّخْرَةَ، فَما بَقِيَ مِنْ أَجَلِ الشَّيْخِ إِلّا طَرْفَةُ عَيْنٍ.

[٧ = ٣: ذُهولُ الأَسَدِ]

وَرَأَيْناهُ عَلى ذلِكَ ساكِنًا مُطْرِقًا لا يَنْظُرُ إِلى الأَسَدِ وَلا يَحْفِلُ بِه، وَما مِنّا إِلّا مَنْ كادَ يَنْهَتِكُ حِجابُ قَلْبِه مِنَ الفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَالإِشْفاقِ عَلى الرَّجُلِ./ ١ وَلَمْ يَرُعْنا إِلّا ذُهولُ الأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِه: / ٢ فَأَقْعى عَلى ذَنَبِه،/ ٣ ثُمَّ لَصِقَ بِالأَرْضِ هُنَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِراعَيْه،/ ٤ ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرى كَأَنَّه غَيْرُ الأَسَدِ،/ ٥ فَمَشى مُتَرَفِّقًا ثَقيلَ الخَطْوِ تُسْمَعُ لِمَفاصِلِه فَرْقَعَةٌ مِنْ شِدَّتِه وَجَسامَتِه،/ ٦ وَأَقْبَلَ عَلى الشَّيْخِ،/ ٧ وَطَفِقَ يَحْتَكُّ بِه وَيَلْحَظُه وَيَشَمُّه كَما يَصْنَعُ الكَلْبُ مَعَ صاحِبِه الَّذي يَأْنَسُ بِه، وَكَأَنَّه يُعْلِنُ أَنَّ هذِه لَيْسَتْ مُصاوَلَةً بَيْنَ الرَّجُلِ التَّقِيِّ وَالأَسَدِ، وَلكِنَّها مُبارَزَةٌ بَيْنَ إِرادَةِ ابْنِ طولونَ وَإِرادَةِ اللهِ!/ ٨

[٧ = ٤: يَقينُ البَطَلِ]

وَضَرَبَتْهُ روحُ الشَّيْخِ؛ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَه وَبَيْنَ الْآدَمِيِّ عَمَلٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِإِزاءِ لَحْمٍ وَدَمٍ، فَلَوْ أَكَلَ الضَّوْءَ وَالْهَواءَ وَالْحَجَرَ وَالْحَديدَ، كانَ ذلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هذا الرَّجُلَ الْمُتَمَثِّلَ في روحانِيَّتِه، لا يُحِسُّ لِصورَةِ الْأَسَدِ مَعْنًى مِنْ مَعانيها الْفاتِكَةِ، وَلا يَرى فيه إِلّا حَياةً خاضِعَةً مُسَخَّرَةً لِلْقُوَّةِ الْعُظْمى الَّتي هُوَ مُؤْمِنٌ بِها وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْها، كَحَياةِ الدّودَةِ وَالنَّمْلَةِ وَما دونَها مِنَ الْهَوامِّ وَالذَّرِّ! وَوَرَدَ النّورُ عَلى هذا الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَه عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ ـ سُبْحانَه، وَتَعالى! ـ: فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلكِنَّه هُوَ وَالْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ. وَكانَ مُنْدَمِجًا في يَقينِ هذِه الْآيَةِ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}. وَرَأى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللهِ، فَخافَ مِنْهُ، وَكَما خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذاتِه وَمَعانيها النّاقِصَةِ، خَرَجَ الْوَحْشُ مِنْ ذاتِه وَمَعانيها الْوَحْشِيَّةِ: فَلَيْسَ في الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلا هَمٌّ وَلا جَزَعٌ وَلا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ، وَمِنْ ذلِكَ لَيْسَ في الْأَسَدِ فَتْكٌ وَلا ضَراوَةٌ وَلا جوعٌ وَلا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ. وَنَسِيَ الشَّيْخُ نَفْسَه، فَكَأَنَّما رآهُ الْأَسَدُ مَيْتًا وَلَمْ يَجِدْ فيهِ (أَنا) الَّتي يَأْكُلُها، وَلَوْ أَنَّ خَطْرَةً مِنْ هَمِّ الدُّنْيا خَطَرَتْ عَلى قَلْبِه في تِلْكَ السّاعَةِ أَوِ اخْتَلَجَتْ في نَفْسِه خالِجَةٌ مِنَ الشَّكِّ، لَفاحَتْ رائِحَةُ لَحْمِه في خَياشيمِ الْأَسَدِ؛ فَتَمَزَّقَ في أَنْيابِه وَمَخالِبِه.

[٧ = ٥: دَهْشَةُ الشُّهودِ]

قالَ: وَانْصَرَفْنا عَنِ النَّظَرِ في السَّبُعِ إِلى النَّظَرِ في وَجْهِ الشَّيْخِ، فَإِذا هُوَ ساهِمٌ مُفَكِّرٌ. ثُمَّ رَفَعوه، وَجَعَلَ كُلٌّ مِنّا يَظُنُّ ظَنًّا في تَفْكيرِه:

فَمِنْ قائِلٍ: إِنَّه الْخَوْفُ أَذْهَلَه عَنْ نَفْسِه!

وَقائِلٍ: إِنَّه الِانْصِرافُ بِعَقْلِه إِلى الْمَوْتِ.

وَثالِثٍ يَقولُ: إِنَّه سُكونُ الْفِكْرَةِ لِمَنْعِ الْحَرَكَةِ عَنِ الْجِسْمِ؛ فَلا يَضْطَرِبُ.

وَزَعَمَ جَماعَةٌ أَنَّ هذِه حالَةٌ مِنَ الِاسْتِغْراقِ يَسْحَرُ بِها الْأَسَدَ!

وَأَكْثَرْنا في ذلِكَ وَتَجارَيْنا فيه، حَتّى سَأَلَه ابْنُ طولونَ:

ما الَّذي كانَ في قَلْبِكَ، وَفيمَ كُنْتَ تُفَكِّرُ؟

فَقالَ الشَّيْخُ: لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَإِنَّما كُنْتُ أُفَكِّرُ في لُعابِ الْأَسَدِ: أَهُوَ طاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ»!

«الْحَقيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ»، لِشاكِرٍ:

[١: مُصيبَةُ مَوْتِ شابٍّ نَبيلٍ]

«قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ: ... فَبادَرْتُ أَعْدو يَكادُ يَنْشَقُّ عَلَيَّ جِلْدي مِنْ شِدَّةِ الْعَدْوِ؛ فَقَدْ أَكَلَتْ مِنّي السِّنُّ وَتَعَرَّقَتْني أَنْيابُ الْكِبَرِ، فَما جاوَزْتُ رَوْضَةَ قَصْرِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ[٣١]، حَتّى تَقَطَّعَتْ أَنْفاسي مِنَ الْجَهْدِ، وَتَلَقّاني الْآذِنُ:

ما عَدا بِكَ يا أَبا الْخَطّابِ؟.

فَقُلْتُ: ائْذَنْ لي عَلى أميرِ المُؤْمِنينَ؛ فَقَدْ نَزَلَ بِنا ما لا رَدَّ لَه.

وَتَبِعْتُه وَاللهِ إنَّ فَرائِصي لَتُرْعَدُ وَكَأَنّي مَحْمومٌ قَدْ جَرَتْ عَلَيْه هَبَّةُ ريحٍ بارِدَةٍ! وَغابَ الآذِنُ، فَما هُوَ إلّا أميرُ المُؤْمِنينَ يَسْتَقْبِلُني كَالفَزِعِ، وَقَدْ خَرَجَ إلَيَّ، فَقالَ:

أَيُّ شَيْءٍ هُوَ، يا ابْنَ أبي رَبيعَةَ؟.

قُلْتُ: وَاللهِ ما أدْري ـ يا أميرَ المُؤْمِنينَ ـ فَما كانَ إلّا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ تَحْتَ سَنابِكِها، فَما زالَتْ تَضْرِبُه بِقَوائِمِها، وَما أدْرَكْناهُ إلّا وَقَدْ تَهَشَّمَ وَجْهُه، وَتَحَطَّمَتْ أضْلاعُه!

وَكَأَنَّما فارَقَتْني الرّوحُ، فَما أَشْعُرُ إلّا وَأَميرُ المُؤْمِنينَ قائِمٌ عَلى رَأْسي يَنْضَحُ الماءَ عَلى وَجْهي، وَقَدْ قُرِّبَتْ إلَيَّ مِجْمَرَةٌ يَسْطَعُ مِنْها ريحُ المَنْدَلِ الرَّطْبِ، فَلَمّا أفَقْتُ وَرَجَعَتْ إلَيَّ روحي سَأَلَني أميرُ المُؤْمِنينَ أنْ أقُصَّ عَلَيْه الخَبَرَ.

[٢: صورَةُ مَوْتِ الشّابِّ النَّبيلِ]

قُلْتُ: خَرَجْنا أنا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ وَهِشامٌ أخوهُ نُريدُ مَنْزِلَنا مِنْ قَصْرِ أميرِ المُؤْمِنينَ، نَرْجو أنْ نَتَخَفَّفَ مِنْ بَعْضِ ثِيابِنا؛ فَقَدْ أنْهَكَنا الحَرُّ، فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إلى مِرْآةٍ مِنْ فِضَّةٍ مَجْلُوَّةٍ مُعَلَّقَةٍ في البَيْتِ، ثُمَّ قالَ:

أَتَذْكُرُ يا أبا الخَطّابِ حَجَّتَنا تِلْكَ؟.

قُلْتُ: أيَّتُهُنَّ؛ فَقَدْ أكْثَرْتَ وَعَمُّكَ الحَجَّ؟.

فَقالَ: سُرْعانَ ما نَسِيَ الشَّيْخُ! لَقَدْ كَبِرْتَ، وَاللهِ، يا أبا الخَطّابِ! وَقَدْ حَدَّثَني أبي بِالَّذي كانَ مِنْكَ، فَقَدْ كُنْتَ تُسايِرُه وَتُحادِثُه، فَلَمْ تَلْبَثْ أنْ سَأَلْتَه:

وَأَيْنَ زَيْنُ المَواكِبِ، يا أبا عَبْدِ اللهِ؟

فَقالَ لَكَ: أمامَكَ.

فَأَرَدْتَ تَرْكُضُ راحِلَتَكَ تَطْلُبُني، فَقالَ لَكَ:

يا أبا الخَطّابِ، أوَلَسْنا أكْفاءَ كِرامًا لِمُحادَثَتِكَ، وَنَحْنُ أوْلى أنْ تُسايِرَنا!

فَقُلْتَ لَه: بَلى، بِأَبي أنْتَ وَأُمّي، يا أبا عَبْدِ اللهِ! وَلكِنّي مُغْرًى بِهذا الجَمالِ، أتْبَعُه حَيْثُ كانَ!

ثُمَّ عَدَلْتَ بِراحِلَتِكَ، وَضَرَبْتَها، وَأَقْبَلْتَ إلَيَّ، وَجَعَلَ أبي يَتَعَجَّبُ مِنْكَ وَيَضْحَكُ، وَقَدِ اسْتَنارَ وَجْهُه! إحْدى سَوْآتِكَ هِيَ، وَاللهِ، يا أبا الخَطّابِ!

فَضَحِكْتُ لِقَوْلِه، وَتَناقَلْنا الحَديثَ، وَإذا هُوَ ساكِنٌ ساجٍ كَأَنَّما غَشِيَتْهُ غاشِيَةُ هَمٍّ، فَقُلْتُ:

ما بِكَ؟

فَزَفَرَ ـ واللهِ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ ـ زَفْرَةً كَأَنَّما انْشَقَّتْ لَها كَبِدي، ثُمَّ قالَ:

أَرَأَيْتَ هذا الجَمالَ الَّذي تَبِعْتَه، يا أَبا الخَطّابِ، يوشِكُ أَنْ يَكونَ طَعامًا يَلْحَسُه تُرابُ القَبْرِ؛ فَما تَرى إِلّا عَظْمًا أَغْبَرَ مِنْ جُمْجُمَةٍ تَقْذِفُ الرُّعْبَ مِنْ مَحْجِرَيْها!

لَقَدْ رَوَّعَني - وَاللهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ - حَتّى تَطَيَّرْتُ وَما بِيَ الطِّيَرَةُ؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَصْرِفَه عَنْ بَعْضِ وَهْمِه، أَنْ يَكونَ الصَّيْفُ قَدْ أَوْقَدَ عَلَيْهِ حَرَّه، فَحَيَّرَه؛ فَانْطَلَقْنا جميعًا إِلى سَطْحِ البَيْتِ نَسْتَظِلُّ بِظُلَّتِه، وَنَسْتَرْوِحُ النَّسَماتِ، وَأَقْبَلْنا نَضْحَكُ وَنَعْبَثُ وَنَلْهو مِنْ بَعْضِ اللَّهْوِ، وَإِذا طائِرٌ يَحومُ يُصَفِّقُ بِجَناحَيْهِ، ثُمَّ رَنَّقَ فَكَسَرَهُما مِنَ الإِعْياءِ، ثُمَّ سَقَطَ، ثُمَّ دَرَجَ، ثُمَّ اضْطَرَبَ قَدْ كادَ يَقْتُلُه الظَّمَأُ؛ فَجَرى إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ لِيَأْخُذَه فَيَبُلَّ ظَمَأَه؛ فَخَفَّ الطّائِرُ؛ فَهَوى إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ لِيُدْرِكَه؛ فَما نَرى - وَاللهِ - مُحَمَّدًا: قَدِ اخْتَطَفَه أَجَلُه، فَجَذَبَه، فَهَوى بِه إِلى إِسْطَبْلِ الدَّوابِّ، فَيَقَعُ بَيْنَها، فَيُثيرُها، فَتَهيجُ، وَإِذا زَيْنُ المَواكِبِ تَحْتَ سَنابِكِها تَضْرِبُه، فَما أَدْرَكْناهُ - وَاللهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ - إِلّا جُثَّةً قَدْ ذَهَبَ رَأْسُها، وَما نَرى إِلّا الدَّمَ! رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ! لَقَدْ...

[٣: مُصيبَةُ فَسادِ رِجْلِ البَطَلِ أَبي الشّابِّ النَّبيلِ]

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ[٣٧] ! إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ! فَكَيْفَ نَحْتالُ لِهذا الأَمْرِ، يا ابْنَ أَبي رَبيعَةَ؟.

قُلْتُ: فيمَ الحيلَةُ - يا أَميرَ المُؤْمِنينَ - وَقَدْ ذَهَبَ القَدَرُ بِما يُحْتالُ لَه!

فَقالَ: أَها هُنا أَنْتَ، يا عُمَرُ! نِمْتَ وَسارَ الرَّكْبُ! هذا أَبوهُ أَبو عَبْدِ اللهِ شَيْخٌ كَبيرٌ يوشِكُ أَنْ يُصابَ في نَفْسِه!

قُلْتُ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، هذا مُصابُه في ابْنِه، فَما مُصابُه في نَفْسِه؟ إِلّا أَنْ يَكونَ الخَبَرُ إِذا يَبْلُغُه، وَسَأَحْتالُ لَه.

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: مَهْلًا يا عُمَرُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ أَبا عَبْدِ اللهِ كانَ قَدِ اشْتَكى رِجْلَه، وَما زالَ يَشْتَكي؛ فَبَيْنا نَحْنُ السّاعَةَ جُلوسٌ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنا أَبو الحَكَمِ الطَّبيبُ النَّصْرانِيُّ، فَاسْتَأْذَنْتُ أَبا عَبْدِ اللهِ أَنْ يَدَعَ أَبا الحَكَمِ حَتّى يَرى رِجْلَه، فَما راعَنا إِلّا أَبو الحَكَمِ يَقولُ إِنَّها الأُكْلَةُ، وَإِنَّها قَدِ ارْتَفَعَتْ تُريدُ الرُّكْبَةَ، وَإِنَّها إِذا بَلَغَتِ الرُّكْبَةَ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ جَسَدَه كُلَّه فَقَتَلَتْهُ، فَما بُدٌّ مِنْ أَنْ تُقْطَعَ رِجْلُه السّاعَةَ خَشْيَةَ أَنْ تَدِبَّ الأُكْلَةُ إِلى حَيْثُ لا يَنْفَعُ القَطْعُ وَلا البَتْرُ.

فَوَجَمْتُ وَاللهِ لِهذا البَلاءِ، وَقَدِ اخْتَلَفَ بِه القَدَرُ عَلى شَيْخٍ مِثْلِ أَبي عَبْدِ اللهِ في إِدْبارٍ مِنَ العُمُرِ. وَأَخَذَ أَميرُ المُؤْمِنينَ بِيَدي، وَقامَ، فَدَخَلْنا مَجْلِسَ الخِلافَةِ، وَإِذا وُجوهُ النّاسِ قَدْ جَلَسوا إِلى عُرْوَةَ أَبي عَبْدِ اللهِ يُواسونَه وَيُصَبِّرونَه وَيُذَكِّرونَه بِقَدَرِ اللهِ خَيْرِه وَشَرِّه، وَإِذا فيهِمْ سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ أَخو أَميرِ المُؤْمِنينَ، وَعُمَرُ ابْنُ عَبْدِ العَزيزِ، وَالقاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ، وَقَدْ حَضَرَه وَلَدُه هِشامٌ؛ فَأَرَمَّ قَدِ انْتُسِفَ لَوْنُه

مِنَ الحَزَنِ عَلى أَخيهِ وَالرَّحْمَةِ لِأَبيهِ. وَأَقْبَلَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ وَأَنا مَعَه عَلى عُرْوَةَ، فَتَفَرَّقَ النّاسُ إِلى مَجالِسِهِمْ، وَإِذا عُرْوَةُ كَأَنْ لَيْسَ بِه شَيْءٌ، يَرِفُّ وَجْهُه كَأَنَّه فِلْقَةُ قَمَرٍ وَهُوَ يَضْحَكُ، وَيَقولُ:

لَقَدْ كَرِهْتُ - يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ - أَنْ يَقْطَعوا مِنّي عُضْوًا يَحُطُّ عَنّي بَعْضَ ذُنوبي، فَقَدْ حُدِّثْنا أَنَّ أَبا بَكْرٍ قالَ:

يا رَسولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هذِه الْآيَةِ: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}، فَكُلُّ سوءٍ عَمِلْناهُ جُزينا بِه؟

فَقالَ رَسولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! - : غَفَرَ اللهُ لَكَ، يا أَبا بَكْرٍ! أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصيبُكَ اللَّأْواءُ؟.

قالَ: بَلى، يا رَسولَ اللهِ.

قالَ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! - : فَهُوَ ما تُجْزَوْنَ بِه؛ فَإِنَّ ذاكَ بِذاكَ.

لَوَدِدْتُ - يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ - أَنَّها بَقِيَتْ بِدائِها؛ فَهِيَ كَفّارَةٌ تَحُتُّ الذَّنْبَ.

قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ: غَفَرَ اللهُ لَكَ، غَفَرَ اللهُ لَكَ! وَما أَعْجَبَ لِصَبْرِكَ؛ فَأُمُّكَ أَسْماءُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ذاتُ النِّطاقَيْنِ، وَأَبوكَ حَوارِيُّ رَسولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! - وَابْنُ عَمَّتِه الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ، فَرَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَأَرْضاكَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ!

[٤: قَطْعُ رِجْلِ الْبَطَلِ]

[٤ = ١: صِفَةُ الطَّبيبِ]

فَما كِدْنا نَقومُ حَتّى أَقْبَلَ أَبو الحَكَمِ. وَهُوَ شَيْخٌ نَصْرانِيٌّ طَويلٌ فارِعٌ مَشْبوحُ الْعِظامِ، قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُه، أَحْمَرُ أَزْهَرُ أَصْلَعُ الرَّأْسِ إِلّا شَعَراتٍ بيضًا قَدْ بَقِيَتْ لَه، كَثُّ اللِّحْيَةِ طَويلُها، لَوْ ضَرَبَتْها الرّيحُ لَطارَتْ بِه.

[٤ = ٢: يَقينُ الْبَطَلِ]

وَدَخَلَ أَبو الحَكَمِ وَراءَ لِحْيَتِه وَهِيَ تَسْعى بَيْنَ يَدَيْهِ، حَتّى وَقَفَ عَلى عُرْوَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقالَ:

لا بُدَّ مِمّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ - يا أَبا عَبْدِ اللهِ - وَإِنّي - وَاللهِ - لَأَرْحَمُكَ، وَأَخْشى أَنْ يَبْلُغَ مِنْكَ الْجَهْدُ، فَما أَرى لَكَ إِلّا أَنْ نَسْقِيَكَ الْخَمْرَ حَتّى لا تَجِدَ بِها أَلَمَ الْقَطْعِ.

قالَ عُرْوَةُ: أَبْعَدَكَ اللهُ مِنْ شَيْخٍ! وَبِئْسَ - وَاللهِ - ما رَأَيْتَ! إِنّا - وَاللهِ - ما نُحِبُّ أَنْ يَرانا اللهُ بِحَيْثُ نَسْتَعينُ بِحَرامِه عَلى ما نَرْجو مِنْ عافِيَتِه!

قالَ أَبو الحَكَمِ: فَنَسْقيكَ الْمُرْقِدَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ؟

قالَ عُرْوَةُ: ما أُحِبُّ أَنْ أُسْلَبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضائي وَأَنا لا أَجِدُ أَلَمَ ذلِكَ فَأَحْتَسِبَه عِنْدَ اللهِ.

قالَ أبو الحَكَم: وَقاكَ اللهُ، يا أبا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ ألَنْتَ مِنّا قُلوبًا كانَتْ قاسِيَةً.
ثُمَّ التَفَتَ أبو الحَكَمِ إلى رِجالٍ سودٍ غِلاظٍ شِدادٍ قَدْ وَقَفوا ناحِيَةً، فَقالَ:
أَقْبِلوا.
فَأَقْبَلوا؛ فَأَخَذَتْهُمْ عَيْنُ عُرْوَةَ؛ فَأَنْكَرَهُمْ، فَقالَ:
ما هؤُلاءِ؟
فَقالَ أبو الحَكَم: يُمْسِكونَكَ، فَإِنَّ الأَلَمَ رُبَّما عَزَبَ مَعَه الصَّبْرُ.
قالَ عُرْوَةُ: أما تُقْلِعُ - أيُّها الشَّيْخُ - عَنْ باطِلِكَ! انْصَرِفوا، يَرْحَمُكُمُ اللهُ! وَإِنّي لأَرْجو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذلِكَ مِنْ نَفْسي. وَلا - وَاللهِ - ما يَسْعُني أَنَّ هذا الحائِطَ وَقاني أذاها، فَاحْتَمَلَ عَنّي أَلَمَها. أَقْبِلْ يا - أبا الحَكَمِ - وَخُذْ فيما جِئْتَ لَه. {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}.

[٤ = ٣: مَجْلِسُ القَطْعِ]

فَرَأَيْتُ أبا الحَكَمِ وَقَدْ بَرَقَ وَجْهُه وَتَوَقَّدَ كَأَنَّما أَسْلَمَ بَعْدَ كُفْرٍ، ثُمَّ نَشَرَ دُرْجًا كانَ في يَدِه، وَأَخْرَجَ مِنْشارًا دَقيقًا طَويلًا صَقيلًا يَضْحَكُ فيهِ الشُّعاعُ، وَوَضَعَ الطَّسْتَ، وَمَدَّ أبو عَبْدِ اللهِ رِجْلَه عَلى الطَّسْتِ وَهُوَ يَقولُ:
بِاسْمِ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَسُبْحانَ اللهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ، {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}. تَقَدَّمْ - يا أبا الحَكَمِ - فَقَدِ احْتَسَبْتُها للهِ.
فَما بَقِيَ - وَاللهِ - أَحَدٌ في المَجْلِسِ إِلّا اسْتَدارَ، وَدَفَنَ وَجْهَه في كَفَّيْهِ، وَبَكى القَوْمُ؛ فَعَلا نَشيجُهُمْ، وَإِنَّ عُرْوَةَ لَساكِنٌ قارٌّ يَنْظُرُ إلى ما يُرادُ بِه، وَكَأَنَّما مَلَكٌ قَدْ جاءَ إلى الأَرْضِ يَسْتَقْبِلُ آلامَها بِروحٍ مِنَ السَّماءِ.

[٤ = ٤: عَمَلُ القَطْعِ]

وَوَضَعَ أبو الحَكَمِ مِنْشارَه في اللَّحْمِ إلى العَظْمِ وَإِنَّ عُرْوَةَ لَصائِمٌ يَوْمَه ذاكَ،/ ١ فَما تَضَوَّرَ وَجْهُه،/ ٢ وَلا تَقَبَّضَ وَالمِنْشارُ يَأْكُلُ في عَظْمِه الحَيِّ،/ ٣ وَما يَزيدُ عَلى أَنْ يُهَلِّلَ وَيُكَبِّرَ وَيُسَبِّحَ اللهَ، وَكَأَنَّ الدّارَ - وَاللهِ - / ٥ قَدْ أَضاءَ جَوُّها كَأَنَّه شُعاعٌ يَنْسَكِبُ مِنْ تَهْليلِه وَتَكْبيرِه./ ٤ وَدَخَلَ رِجالٌ يَحْمِلونَ مَغارِفَ مِنْ حَديدٍ يَفورُ مِنْها ريحُ الزَّيْتِ وَقَدْ غَلى فيها عَلى النّارِ،/ ٦ وَدَنَوْا،/ ٧ فَما هُوَ إِلّا أَنْ فَرَغَ أبو الحَكَمِ وَقَدْ فارَ الدَّمُ مِنْها وَتَفَجَّرَ مِثْلَ اليَنْبوعِ، فَأَخَذَها أبو الحَكَمِ يَغْمِسُها في الزَّيْتِ، فَيَسْمَعُ نَشيشَها فيهِ حَتّى حَسَمَ الدَّمَ،/ ٨ وَإِذا عُرْوَةُ قَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ،/ ٩ وَإِذا وَجْهُه قَدْ صَفِرَ مِنَ الدَّمِ، وَقَدْ نَجِدَ؛ فَنَضَحَ وَجْهَه بِالعَرَقِ، وَلكِنَّه بَقِيَ مُشْرِقًا نَيِّرًا يَرِفُّ كَأَنَّه عَرارَةٌ تَحْتَ النَّدى./ ١٠

[٤ = ٥: دَهْشَةُ الطَّبيبِ]

قالَ أبو الحَكَمِ:

ما رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ! إِنَّه رَجُلٌ، وَإِنَّما الحَقيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَإِنَّ إيمانَه لَيَحوطُه، وَيُثَبِّتُه، وَيُسَكِّنُه، وَيَنْفُضُ عَنْهُ الجَزَعَ!

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى عُرْوَةَ يَقولُ:

جَزاكَ اللهُ خَيْرًا، يا أَبا عَبْدِ اللهِ! لَأَنْتَ ـ وَاللهِ ـ تِمْثالُ الصَّبْرِ في إِهابِ رَجُلٍ.

[٥: انْتِباهُ الْبَطَلِ إِلى رِجْلِه الْمَقْطوعَةِ]

وَما لَبِثْنا، حَتّى إِذا أَفاقَ أَبو عَبْدِ اللهِ جَلَسَ يَقولُ:

لا إِلهَ إِلّا اللهُ، وَالحَمْدُ للهِ!

وَيَمْسَحُ عَنْ وَجْهِه النَّوْمَ وَالْعَرَقَ بِكَفَّيْهِ، وَيَنْظُرُ، فَيَرى قَدَمَه في يَدِ رَجُلٍ يَهُمُّ أَنْ يَخْرُجَ بِها؛ فَيُناديه:

عَلى رِسْلِكَ، أَيُّها الرَّجُلُ! أَرِني ما تَحْمِلُ!

فَيَأْخُذُ قَدَمَه في يَدِه، فَيَرْنو إِلَيْها وَقَدْ سَكَنَ وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، ثُمَّ يُقَلِّبُها في يَدَيْه، ثُمَّ يَقولُ لَها:

أَما وَالَّذي حَمَلَني عَلَيْكِ، لَقَدْ عَلِمْتُ أَنّي ما مَشَيْتُ بِكِ إِلى حَرامٍ وَلا مَعْصِيَةٍ. اللّهُمَّ، هذِه نِعْمَةٌ أَنْعَمْتَ بِها عَلَيَّ، ثُمَّ سَلَبْتَنيها، أَحْتَسِبُها عِنْدَكَ راضِيًا مُطْمَئِنًّا؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفورُ الرَّحيمُ. خُذْها، أَيُّها الرَّجُلُ.

ثُمَّ أَضاءَ وَجْهُه بِالإيمانِ وَالصَّبْرِ عَنْ مِثْلِ الدُّرَّةِ في شُعاعِ الشَّمْسِ. قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ:

غَفَرَ اللهُ لَكَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ! وَإِنَّ في النّاسِ لَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ بَلاءً مِنْكَ. يا عُمَرُ، نادِ الرَّجُلَ مِنْ أَخْوالي.

فَيُقْبِلُ عُمَرُ وَمَعَه رَجُلٌ ضَريرٌ مَحْطومُ الْوَجْهِ لا تُرى إِلّا دَمامَتُه، فَيَقولُ لَه أَميرُ الْمُؤْمِنينَ:

حَدِّثْ أَبا عَبْدِ اللهِ بِخَبَرِكَ، يا أَبا صَعْصَعَةَ.

[٦: تَخْفيفُ مُصيبَةِ الْبَطَلِ بِرِجْلِه]

فَيَلْتَفِتُ الرَّجُلُ إِلى عُرْوَةَ، وَيُقْبِلُ عَلَيْهِ، فَيَقولُ:

ابْنَ الزُّبَيْرِ، قَدْ ـ وَاللهِ ـ لَقيتُ الْبَلاءَ، يا فَقيهَ الْمَدينَةِ وَابْنَ حَوارِيِّ رَسولِ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! وَإِنّي ـ وَاللهِ ـ مُحَدِّثُكَ عَنّي بِخَبَري؛ عَسى أَنْ يَرْفَعَ عَنْكَ: فَقَدْ بِتُّ لَيْلَةً في بَطْنِ وادٍ، وَلا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا في الْأَرْضِ يَزيدُ مالُه عَلى مالي، فَطَرَقَنا سَيْلٌ جارِفٌ كَأَنَّه الطّوفانُ، يَتَقاذَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْجًا كَالْجِبالِ؛ فَذَهَبَ بِما كانَ لي مِنْ أَهْلٍ وَمالٍ وَوَلَدٍ، إِلّا صَبِيًّا مَوْلودًا وَبَعيرًا نِضْوًا ضَعيفًا. فَنَدَّ الْبَعيرُ يَوْمًا وَالصَّبِيُّ مَعي، فَوَضَعْتُه، وَاتَّبَعْتُ الْبَعيرَ

أَطْلُبُه، فَما جاوَزْتُ ابْني قَليلًا إِلّا وَرَأْسُ الذِّئْبِ في بَطْنِه، قَدْ بَعَجَها بِأَنْيابِه العُصْلِ، فَاسْتَلَّ أَحْشاءَه، وَإِنَّ الصَّغيرَ لَيَصْرُخُ، وَيَرْكُضُ بِرِجْلَيْهِ الأَرْضَ؛ فَكِدْتُ - وَاللهِ - أَسوخُ في الأَرْضِ مِمّا رَأَيْتُ، وَلكِنّي ذَكَرْتُ اللهَ، وَاسْتَعَنْتُه، وَاحْتَسَبْتُ الصَّغيرَ، فَتَرَكْتُه لِقَدَرِ اللهِ، وَاتَّبَعْتُ البَعيرَ، فَهَمَمْتُ آخُذُ بِذَنَبِه وَقَدْ أَدْرَكْتُه، فَرَمَحَني رَمْحَةً حَطَمَ بِها وَجْهي وَأَذْهَبَ عَيْني، فَأَصْبَحْتُ لا ذا مالٍ وَلا ذا وَلَدٍ وَلا ذا بَصَرٍ. وَإِنّي أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ، فَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ؛ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ.

قالَ عُرْوَةُ: لَقَدْ أَفْضَلَ اللهُ عَلَيْكَ، يا أَبا صَعْصَعَةَ، وَإِنّي لَأَرْجو لَكَ الجَنَّةَ.

قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ: وَأَلاحَ إِلَيَّ أَميرُ المُؤْمِنينَ أَنْ أَقْبِلْ، فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ: إِنْ أَرَدْتَ الحيلَةَ فَقَدْ أَمْكَنَتْكَ، فَاذْهَبْ إِلى أَبي عَبْدِ اللهِ، فَانْعَ إِلَيْهِ وَلَدَه زَيْنَ المَواكِبِ.

قُلْتُ: هُوَ - وَاللهِ - الرَّأْيُ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ.

[٧: إِطْلاعُ البَطَلِ عَلى مُصيبَةِ مَوْتِ ابْنِه]

ثُمَّ مَضَيْتُ إِلى عُرْوَةَ وَقَدْ غَلَبَتْني عَيْناي بِالبُكاءِ، فَلَمّا قارَبْتُه قُلْتُ: عَزاءَكَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ!

فَقالَ عُرْوَةُ: فيمَ تُعَزّيني، يا أَبا الخَطّابِ؟ إِنْ كُنْتَ تُعَزّيني بِرِجْلي فَقَدِ احْتَسَبْتُها للهِ.

قُلْتُ: رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي، بَلْ أُعَزّيكَ بِزَيْنِ المَواكِبِ.

فَدُهِشَ، وَتَلَفَّتَ، وَلَمْ يَرَ إِلّا هِشامًا وَلَدَه، فَرَأَيْتُ في وَجْهِه المَعْرِفَةَ، ثُمَّ هَدَأَ، فَقالَ: ما لَه، يا أَبا الخَطّابِ؟

فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، وَتَحَلَّقَ النّاسُ حَوالَيْنا، وَتَكَنَّفونا، وَأَخَذْتُ أُحَدِّثُه بِشَأْنِه، وَوَاللهِ ما يَزيدُ عَلى أَنْ يَقولَ:

لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ، وَإِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ!

فَلَمّا فَرَغْتُ مِنْ خَبَري ما زادَ عَلى أَنْ قالَ:

وَكُنْتُ إِذا الأَيّامُ أَحْدَثْنَ هالِكًا أَقولُ شَوًى ما لَمْ يُصِبْنَ حَميمي

ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَه إِلى السَّماءِ وَقَدْ تَنَدَّتْ عَيْناهُ، ثُمَّ قالَ:

اللّهُمَّ، إِنَّه كانَ لي أَطْرافٌ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتَ واحِدًا، وَأَبْقَيْتَ لي ثَلاثَةً؛ فَلَكَ الحَمْدُ فيما أَخَذْتَ وَأَبْقَيْتَ - اللّهُمَّ - أَخَذْتَ عُضْوًا، وَتَرَكْتَ أَعْضاءً، وَأَخَذْتَ ابْنًا، وَتَرَكْتَ أَبْناءً. وَايْمُ اللهِ لَئِنْ كُنْتَ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنِ ابْتَلَيْتَ لَطالَما عافَيْتَ؛ سُبْحانَكَ - رَبَّنا - إِلَيْكَ المَصيرُ. قوموا إِلى جِهازِ أَخيكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللهُ، وَانْظُروا، لا تَكونُ عَلَيْهِ نائِحَةٌ وَلا مُعْوِلَةٌ؛ فَإِنَّ رَسولَ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! - نَهى عَنِ النِّياحَةِ، وَمُروهُنَّ بِالصَّبْرِ لِلصَّدْمَةِ؛ فَإِنَّ رَسولَ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! - أَتى عَلى امْرَأَةٍ تَبْكي صَبِيًّا لَها، فَقالَ لَها:

اتَّقي اللهَ، وَاصْبِري!

فَقالَتْ: وَما تُبالي بِمُصيبَتي!
فَلَمّا ذَهَبَ قيلَ لَها:
إِنَّه رَسولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!
فَأَخَذَها مِثْلُ الْمَوْتِ؛ فَأَتَتْ بابَه، فَلَمْ تَجِدْ عَلى بابِهِ بَوّابينَ، فَقالَتْ:
يا رَسولَ اللهِ، لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! ـ :
إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ.
وَجَزاكَ اللهُ خَيْرًا عَنّي وَعَنْ وَلَدي، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ! {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

جَوامِعُ النَّصَّيْنِ

[٦] نص الرافعي إحدى وتسعون وثمانمئة وألف (١٨٩١) كلمة كتابية[٣٨]، ونص شاكر ثمانون وثمانمئة وألف (١٨٨٠)، يكادان يتطابقان؛ ففَرْقُ ما بَيْنَ مِقْدارَيْهِما مِنَ الضَّآلَة بحيث لا مُعْتَبَرَ له.

يبدو نصُّ الرافعي «مَوْعِظَةً» منسوبة إلى أبي علي الروذبادي الذي لم يتردد له علينا ذكر حتى نعرفه، ويبدو نصُّ شاكر «رِسالَةً» منسوبة أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل الشهير الذي صار اسمه رمزا فنيا شعريا، وفي الأمرين القصد نفسه:

أراد الرافعي أن ينبه المتلقين على أن من رجال الثقافة العربية الإسلامية الكبار مَغاميرَ كالمشاهير، بل أكثر، ليفتشوا عنهم، ويعرضوا نفوسهم على أقوالهم وأفعالهم وإقراراتهم وعلومهم ومعارفهم وخبراتهم، وينصتوا لهم، حتى إذا ما كشفوا لهم من أسرارها ما استغلق عليهم وعلى مشاهير من قصدوهم، رجعوا إليهم، وتعلقوا بهم، وتعجبوا كيف يخرج ذلك كله عمن أهملوا معرفتهم، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير مَجْهَلٍ، وشكوا في غير مَشَكٍّ، وزهدوا في غير مَزْهَدٍ!

كان الرافعي حريصا على معنى المدرسة الثقافية الواحدة؛ فقد أجلس التلميذ مجلس أستاذه، ثم رَوّاه عنه برًّا بذكراه، وكأنما يحذر المتلقين إذا أهملوا ذلك المعنى، أن ينقطع فيهم ما بين التلامذة والأساتذة (الحاضر والماضي)، حتى يقول بعضهم تيها وعقوقا وجهلا ونكرانا: نحن جيل لا أساتذة لنا!

واعتنى الرافعي بمعنى العلم كثيرًا، ولا سيما تلقيه كِفاحًا تَطْبيقًا؛ فجعل راويته التلميذ البار، يحار في علم مسألة عويصة؛ فيرحل في طلب علمها. وألح على ضرورة ملازمة الأستاذ العالم العامل، الذي يدل عمله بعلمه على صدق إيمانه به.

وأراد شاكر أن ينبه المتلقين على أن من صِفاتِ رجال ثقافتنا العربية الإسلامية الكبار، مَغاميرَ كالمشاهير، بل أرسخ، ليفتشوا عنها، ويعرضوا عليها تَصَوُّراتهم السابقة، وينصتوا لها، حتى إذا ما كشفت لهم من أسرار أصحابها ما استخفى عليهم، رجعوا إليهم، وتعلقوا بهم، وتعجبوا كيف جمعوا في نفوسهم ذلك كله الذي أهملوا معرفته، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير مَجْهَلٍ، وشكوا في غير مَشَكٍّ، وزهدوا في غير مَزْهَدٍ!

يظل متلقو نص شاكر كلما اختلفت أحداثه وأشخاصه ومواقفه، يعودون إلى راويته المنفرد بعلمها، الشاعر المنقطع عندهم للغزل الصريح، ليحكموا عليها حكمهم عليه؛ فربما قال بعضهم: إذا كان لمثل هذا الشاعر المنقطع للغزل الصريح، هذا الإحساس العالي بالثقافة العربية الإسلامية، فكيف بغيره من العلماء المنقطعين للبحث، والزهاد المنقطعين للعبادة، وغيرهم!

كان شاكر حريصًا على معنى انتماء الفنان الثقافي؛ فقد أشعر الشاعر العربي المسلم الكبير، المنقطع للغزل الصريح، بمشاعر عالية من الإيمان والإحسان، وكأنما يحذر فناني المتلقين، أن يتلمسوا أول طريق الفن العربي الإسلامي، عند أول طريق الكفر والفسوق والعصيان[٣٠]!

و معنى الانتماء الثقافي الذي حرص عليه شاكر، كمعنى المدرسة الثقافية الثقافية الواحدة الذي حرص عليه الرافعي، فإن كان معنى شاكر أشمل وأعمق وأعلى من معنى الرافعي، فإن معنى الرافعي من سبل بلوغ معنى شاكر.

فُصولُ الْأَحْداثِ

حُضورُ الْأَعْلامِ

[٧] أدار الرافعي أحداث نصه على ثمانية عشر علمًا من أعلام العقيدة والسلطان والزهد والعز والعلم والذل(١٠). وأدار شاكر أحداث نصه على سبعة عشر علمًا من أعلام العقيدة والزهد والسلطان والحرية والغزل والفتوة والعدل والهمة والعز(١١).

وإذا كان تعريفُ بعض النحويين للعَلَم بأنه ((ما وُضِعَ لِشَيْءٍ بِعَيْنِه غَيْرَ مُتَناوِلٍ غَيْرَه بِوَضْعٍ واحِدٍ))(١٢)، واضحَ العلاقة بمعنى ((العَلامَة)) المعجمي الوارد فيه ـ فمكانة العلم في نصي الرافعي وشاكر، أعلق بمعنييه هذين المعجميين(١٣):

١ ((شيء يُنْصَب في الفَلَوات تهتدي به الضالَّة)).

٢ ((الراية التي تجتمع إليها الجُنْد)).

فلم يرد الرافعي وشاكر حين أدارا على تلك الأعلام أحداث نصيهما، إلا أن ينصبا منارات على طرق المتلقين المسافرين، ورايات أمام جيوش المتلقين المجاهدين، ينتبهون بها، ويقيسون أنفسهم إليها، حتى يعيشوا هذه الحياة الواحدة، كِرامًا عِزازًا.

إننا إذا تأملنا بنيان الثقافة العربية الإسلامية ـ ومثلها سائر الثقافات ـ وجدنا العَقيدَة قلبه ـ فهي التي تحرك الإنسان العربي المسلم إلى علومه ومعارفه وخبراته وأفعاله وأقواله وإقراراته ـ ثم وجدنا السُّلْطان مظهر تلك العَقيدَة؛ فكل عقيدة لا سلطان لها على معتقديها وهم من الأوهام، حتى شاعت في الثقافة العربية الإسلامية عبارة ((إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطانِ ما لا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ))، ثم وجدنا الزُّهْد منهج الثقافة العربية الإسلامية في الجمع بين العَقيدَة والسُّلْطان، حتى شاعت عبارة السؤال والجواب ((قيلَ: مَنِ المُلوكُ؟ قالَ: الزُّهّادُ)).

ولقد اجتمع كاتبانا على ضرورة تثقيف المتلقين؛ فتحريا استعمال أعلام العقيدة والسلطان والزهد، تحريا واحدا؛ فكانت عند كل منهما ٧٥٪! وهو تطابق عجيب، لا يكون إلا عن مدرسة واحدة، فيها الإستاذ والتلميذ!

ولكن في خلال ذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي ٢٥٪، وأعلام السلطان ٢٥٪، وأعلام الزهد ٢٤٪ ـ على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر ٤٢٪، وأعلام السلطان ١٣٪، وأعلام الزهد ١٩٪؛ فعلى حين تطابقت عند الرافعي أولًا منزلتا أعلام العقيدة والسلطان، فَتَلَتْهما قريبًا منزلة أعلام الزهد ـ ظهرت عند شاكر أولًا منزلة أعلام العقيدة، ثم تلتها بعيدا منزلة أعلام الزهد، فتلتها منزلة أعلام السلطان.

ربما كانت في ذلك دلالة على تطور رأي التلميذ قليلا بعد اختبار رأي الأستاذ في مدرسة الحياة التي أمامه؛ فلقد كانت مجموعة مقالات الرافعي «وحي القلم»، في العقد التالي لسقوط الخلافة، وفيه بقي الناس متعلقين برجوعها، حتى عقدوا الآمال على من لا يستحق، من مثل كمال أتاتورك؛ فربما كان ذلك وراء تطابق منزلتي العقيدة والسلطان عند الرافعي، حتى إذا ما جاء شاكر بعد ذلك، وانكشف خداع أتاتورك الذي لم ينج منه كثير من العلماء الكبار، حتى الشيخ محمد وكيل الأزهر، أبو شاكر - لم يستثره ما استثار أستاذه، وارتاح إلى تصحيح العقيدة، وإلى منهج الجمع بين العقيدة والسلطان من قَبْلِ تولي السلطة.

وكذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي، اسما واحدا، وأعلام السلطان أربعة أسماء، وأعلام الزهد خمسة أسماء - على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر خمسة أسماء، وأعلام السلطان اسمين اثنين، وأعلام الزهد اسمين اثنين.

ربما كان أحد الأسماء أكثر استعمالا أو أغلب، ولكن لا ريب في أن إكثار الأسماء من سياسة الدعوة والحرص على المعنى؛ فلذا كانت أعلام العقيدة عند شاكر أكثر من أعلام غيرها؛ فربما احتاج الناس إلى قرآن يمشي على الأرض فكان رسول الله - صلى الله عليه، وسلم! - وكان صحابته - رضي الله عنهم! - على حين لم ينتبه الرافعي لذلك المعنى السياسي الدعوي.

ولكن في خلال ذلك غلبت أفكار الزهد (العفة والجلد والصبر) على رسالتي النصين، بعد ما طار في أرجائها نفس كريم من أخلاق الزاهدين العالية، فكان الرافعي أحفى في الأعلام بذلك من شاكر؛ إذ أدار أحداث نصه على خمسة من أعلام الزهاد، ولم يدرها شاكر إلا على علمين اثنين فقط.

صَوْتا الْكاتِبَيْنِ

[٨] إذا كان نص الرافعي موعظة قصصية نسبها إلى أبي علي، ونص شاكر رسالة قصصية نسبها إلى أبي الخطاب، وقمتُ في مقام المطلع على موعظة الواعظ ورسالة المرسل كلتيهما، رأيتُ نص شاكر أكثر ملاءمة لطبيعة الرسالة من ملاءمة نص الرافعي لطبيعة الموعظة.

لقد كان شاكر كأنه وقع على كتاب «مذكرات عمر بن أبي ربيعة» حقا؛ فأسرع ينقل منه دون أن يضيف إليه إلا عبارة «قال عمر بن أبي ربيعة» التي صَدَّرَ بها الرسالة - على حين خلط الرافعي طبيعة نصه بطبيعة نص شاكر؛ فتكلم هو من دون أن يشبه عمر بن أبي ربيعة اشتراكًا ولا استماعًا، حتى استولى على الفصلين الأول والثالث كليهما وعلى

نصف الفصل الرابع، فإذا أراد أن يُنْطِقَ الواعظ عاد بجملة ((قال أبو علي))، وإذا استطال كلام الواعظ نفسه زاد فعل القول الماضي ((قال)) على مثل ما نجد في مجلسيات الأصفهاني بـ((الأغاني)) مثلا؛ فبـ((قال)) هذا، كان القدماء ينبهون المتلقين على استمرار كلام الراوي.

لقد كتب الرافعي نصوص هذا الأسلوب التي منها نصنا، في عقده السادس الأخير (١٩٣٠ـ ١٩٣٧م)[١٧]، وكان في شيخوخته، وكتب شاكر نصوص الأسلوب نفسه التي منها نصنا، في عقده الرابع (١٩٣٩ـ ١٩٤٩)[١٨]، وكان في شبابه؛ فكأنما أراد شاكر أن يكفكف من شأو نفسه، ويُخْرِجَها من البَيْنِ؛ فقد ظهر الرافعي بصوته العالي، مظهر مُعَلِّمِ المتلقين الذي يشرح لهم رأيه هو ومذهبه، وكأنه صوت الحقيقة المطلقة، قد حضرت تشهد!

ثم لا ريب في ملاءمة شاكر لتيار الواقعية الغالب على عصره آنذاك، بتحري إخراج القصة من الحياة كما تكون فيها، ثم على طريقة المذكرات التي لا ينقضي عجبي من قبول شاكر أن يستعملها في تتويج أعماله، وليست مما رأيناه يحبه، ولو عُرِضَتْ عليه في أواخر عمره لجعلها من رقاعات المتأخرين!

تَفْصيلُ الفُصولِ

[٩] أفرد الكاتبان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، وكأنما حَرَصا على منهج التَّدْوير الجديد بشدة التأثير؛ فمهما تَشَعَّبت أفكار رسالة النص؛ وَتَفَصَّلَتْ بها الفصول، تَلاقَتْ في فصل يغلق دائرتها ويحكم رسالتها، يختلف المتلقون في تعيينه، ولكن يغلب أن يكون الأخير.

اتفق الكاتبان على أن يَتَأَتَّيا إلى المتلقين، بمفهوم الموت في الثقافة العربية الإسلامية؛ فمنذ أوصى سيدنا أبو بكر، سيدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنهما! ـ حين بعثه إلى المرتدين، وصيته الجليلة الخالدة: ((احْرِصْ عَلى المَوْتِ توهَبْ لَكَ الحَياةُ))، فَعَمِلَ بها، حتى قال في موته مقالته الجليلة الخالدة: ((لَقَدْ لَقيتُ كَذا وَكَذا زَحْفًا، وَما في جَسَدي مَوْضِعُ شِبْرٍ إلّا وَفيهِ ضَرْبَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمْيَةٌ، وَها أنا ذا أَموتُ حَتْفَ أَنْفي كَما يَموتُ العَيْرُ؛ فَلا نامَتْ أَعْيُنُ الجُبَناءِ)) ـ جرى مجراه القائد العربي المسلم، حتى كان يفتح عقول الملوك قبل فتح بلادهم، بمقالته الجليلة الخالدة: ((جِئْتُكُمْ بِجُنْدٍ يُحِبّونَ المَوْتَ كَما تُحِبّونَ أَنْتُمُ الحَياةَ))!

لقد تَلَبَّسَتِ الكاتبين حالُ القائد العربي المسلم، نَفْسُها؛ فأقبلا يحيطان نصيهما بدائرة من الموت محكمة:

أما الرافعي فقد عَرَّضَ بَطَلَه للافتراس في الفصل الأخير، ولم يُفْتَرَسْ، ولكنه أفاض في مقام موته في الفصل الأول؛ فجعل الفصل الأول نتيجة الفصل الأخير؛ فلو لم يفهم البطل حقيقة حياته ما فهم الناس حقيقة موته، ولبقي متلقو النص ينتظرون أن تؤديهم القصة إلى موته! ولقد اتفقت بين الفصلين الأول والأخير، عبارتا الكاتب عن دهشة الناس من حياة البطل ومن وفاته جميعا؛ فإذا تأملنا قوله من الفصل الأخير:

«جَعَلَ كُلٌّ مِنّا يَظُنُّ ظَنًّا في تَفْكيرِه: فَمِنْ قائِلٍ (...) وَقائِلٍ (...) وَثالِثٍ يَقولُ (...) وَزَعَمَ جَماعَةٌ (...)».

وقوله من الفصل الأول:

«كانَ يَوْمُه (...): ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا اقْتَنَعَ أنّه في شَهَواتِ الحَياةِ وَأَباطيلِها كَالأَعْمى في سوءِ تَمْييزِه بَيْنَ لَوْنِ التُّرابِ وَلَوْنِ الدَّقيقِ».

رأينا الشهود فيهما يفكرون في كل وجه إلا الحقيقة. وربما كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها، أن تكون عبارة الفصل الأول، من تفصيل إجمال ما قبلها، وعبارة الفصل الأخير، من إجمال تفصيل ما بعدها؛ فقد كان فصل القصة الأخير مبتدأ حياة البطل الحقيقية، وفصلها الأول منتهاها!

وأما شاكر فقد بدأ نصه بمصيبة موت ابن البطل، ثم لم يطلعه عليها إلا في الفصل الأخير؛ فكان مثل الرافعي في جعل الأول للمتلقين خاتمة الأخير. ولقد اتفقت كذلك بين الفصلين الأول والأخير، عبارتا الكاتب عن أثر مصيبة الموت؛ فإذا تأملنا قوله عن عمر بن أبي ربيعة، في الفصل الأخير:

«قَدْ غَلَبَتْني عَيْناي بِالْبُكاءِ».

وقوله عنه في الفصل الأول: «كَأَنَّما فارَقَتْني الرّوحُ».

رأيناه في الفصلين وهو من الشهود، مفعولًا به، مغلوبًا على أمره: تغلبه عيناه أخيرًا، وتغلبه روحه أولًا! وربما كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها، أن يكون فاعل عبارة الفصل الأول باطنيًا «الروح»، وفاعل عبارة الفصل الأخير ظاهريا «عيناي»؛ فقد كانت الوطأة في الفصل الأول على عمر بن أبي ربيعة الراوية نفسه، وفي الفصل الأخير على غيره!

تَرْتِيبُ الْفُصولِ

[١٠] ومن باب الحرص على منهج التدوير السابق، أن جعل الرافعي في فصل «تعريض البطل للافتراس»، أفدح الأحداث (الحَدَثان)، وأشدها تأثيرًا في المتلقين، ثم جعله سابعًا خاتمة الفصول وأكبرها، وصعد إليه بها قليلًا قليلًا:

الفصل الأول	١٢٤ كلمة كتابية	
الفصل الثاني	٧٦ كلمة كتابية	٣٠٦
الفصل الثالث	٢٣٠ كلمة كتابية	
الفصل الرابع	١٩٤ كلمة كتابية	٤٤٢
الفصل الخامس	٢٤٨ كلمة كتابية	
الفصل السادس	٤٩٨ كلمة كتابية	
الفصل السابع	٥٢١ كلمة كتابية	

فإن بدت أطوالها مضطربة، ففي كون ثالثها بمنزلة التعليق على ثانيها، ورابعها بمنزلة المقدمة لخامسها، ما يوضح تصاعدها.

وجعل شاكر في فصل «قطع رجل البطل»، أفدح الأحداث (الحَدَثان) كذلك، وأشدها تأثيرا في المتلقين، ثم جعله رابعا واسطة الفصول السبعة وأكبرها، من قبله ثلاثة ومن بعده ثلاثة، وصعد إليه بما قبله، ثم صعد مرة أخرى بما بعده إلى حدث آخر على جهة مضاعفة المصائب:

الفصل الأول	١٤٩ كلمة كتابية
الفصل الثاني	٣٠٤ كلمة كتابية
الفصل الثالث	٣٩٦ كلمة كتابية
الفصل الرابع	٤٠٨ كلمة كتابية
الفصل الخامس	١٤٨ كلمة كتابية
الفصل السادس	٢٠٩ كلمة كتابية
الفصل السابع	٢٦٦ كلمة كتابية

من دون أن يكون الفصل الأخير (فصل الحدث الزائد)، أطول من الفصل الرابع (فصل الحَدَثان)، على رغم ما فيه من مضاعفة المصائب؛ فإن مصيبة الموت أزلية أبدية. ثم إن المتلقين كانوا قد عرفوا مصيبة الموت في الفصل الرابع (فصل الحَدَثان)؛ فكان فيه المرادُ كلُّه، ولكن الكاتب تحرك على طبيعته؛ فصعد إلى مجتمع المصائب عند البطل، مثلما صعد له عند المتلقين.

نَسْجُ النَّصَّيْنِ

[١١] كان فصل الرافعي الأول نظرة خارجية كلية، ربط فيها المنتهى بالمبتدأ، لم يجد من شخوص قصته من ينظر هذه النظرة، فنظرها لهم، قائلًا:

«جَلَسَ أبو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرّوذَباديُّ الْبَغْداديُّ في مَجْلِسِ وَعْظِهِ بِمِصْرَ بَعْدَ وَفاةِ شَيْخِهِ أَبي الْحَسَنِ بُنانٍ الْحَمّالِ الزّاهِدِ الْواسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيارِ الْمِصْرِيَّةِ».

ثم كان فصل شاكر الأول كلمة داخلية مجملة، أنطق بها أحد شخوص قصته، قائلًا:

«... فَبادَرْتُ أَعْدو يَكادُ يَنْشَقُّ عَلَيَّ جِلْدي مِنْ شِدَّةِ الْعَدْوِ».

جملة أول فصل الرافعي الأول، فعلية ماضوية هادئة مطمئنة، مُفَصَّل نَسَبُ فاعلها تَفْصيلَ كُتُبِ الأنساب، محتاج قارئها إلى تمهل كثير، نبه بها المتلقي على معنى المدرسة السابق ذكره. وجملة أول فصل شاكر الأول، محذوفة في جمل كثيرة سَتُشْرَحُ في الفصل الثاني، مَدْلولٌ عليها بفاء عطف الجملة الثانية الفعلية الماضوية الثائرة القلقة، ألقى بحذفها المتلقي في مجرى الأحداث.

وإن في هذا وذاك، لعلامة أولية مهمة، على مَنْهَجَيْ نَسْجِ النَّصَّيْنِ:

١ الإِسْتِبْطانُ الْمِثاليُّ الصّوفيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، دَوالَيْك.

٢ الإِسْتِبْطانُ الْواقِعِيُّ الْفَنِّيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من وراء إلى أمام، ومن أمام إلى وراء، دَوالَيْك.

فعلى حين يَسْلُكُ الرافعي المنهج الأول؛ فيطول الجمل، ويثقلها، ويقللها، ويشغلها بِتَحْليلِ الأشخاص والأحداث ـ يَسْلُكُ شاكر المنهج الأخير؛ فيقصر الجمل، ويخففها، ويكثرها، ويشغلها بتحريك الأشخاص والأحداث.

تَوْصيلُ الْفُصولِ

[١٢] إذا تأملنا مفاصل الفصول، حيث يخيط كل من الكاتبين أطرافها، فيضم أول اللاحق إلى آخر السابق، وجدنا ما يلي:

١ جملة أول فصل الرافعي الثاني معطوفة على جملة أول نصه، كرر فيها اسم فاعلها بعد ما طال ما بين الموضعين من كلام الكاتب الطارئ بينهما:

«جَلَسَ أبو عَلِيٍّ (...) وَتَكَلَّمَ أبو عَلِيٍّ (...)».

وجملة أول فصل شاكر الثاني معطوفة على جملة آخر فصله الأول:

«سَأَلَني (...) قُلْتُ (...)».

فعلى حين عبر شاكر عن ثورة عمر بترتيب جملة قوله على جملة سؤاله من دون أن يتيح للفاء بينهما مكانا؛ إذ ليس أقدر على تحريك الأحداث من حذف العاطف، وليس أكثر حذفا بين الجمل من فاء العطف بين جمل الأقوال[١] ـ عبر الرافعي عن هدوء راويته أبي علي بعطف جملة تكلمه على جملة جلوسه بالواو دون ترتيب وكأن تكلمه كصمته، تمهيدًا للمعنى الذي سينطقه به في الفصل الرابع، قائلًا:

«عَلامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هؤُلاءِ أَنْ يَعْمَلَ وُجودُه فيمَنْ حَوْلَه أَكْثَرَ مِمّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِه».

٢ وجملة أول فصل الرافعي الثالث اسمية اعتراضية مقترنة بواو:

«وَالْبَلَدُ الَّذي لَيْسَ فيهِ (...) هُوَ في الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذي لَيْسَ فيهِ (...)».

وجملة أول فصل شاكر الثالث فعلية ماضوية معطوفة على جملة أول فصله الثاني:

«قُلْتُ (...) قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ (...)».

فعلى حين يستمر تعبير شاكر عن ثورة الأحداث، باستثقال فاء الترتيب والتعقيب نفسها، يعترض الرافعي بكلامه كلامَ راويته أبي علي، إمْعانًا في غَلْغَلَتِه فيه، تَوَسُّعًا في التَّحْليل.

٣ وجملة أول فصل الرافعي الرابع فعلية ماضوية زائدة:

«قالَ أَبو عَلِيٍّ (...)».

وجملة أول فصل شاكر الرابع اسمية منسوخة بـ«كاد»:

«فَما كِدْنا نَقومُ (...)».

فعلى حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة التي يصلون بها كلام المتحدث بعضه ببعضه على رغم الاستطراد، وكأن كلامه من كلام أبي علي، يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه ترتيبًا سريعًا، ولا يملك أن يحذف العاطف لعدم الدلالة عليه، كما كان يحذفه لدلالة كثرة الاستعمال عليه؛ فليست الجملتان المتعاطفتان هنا قوليتين، كما كانتا هناك.

٤ وجملة أول فصل الرافعي الخامس هي الفعلية الماضوية الزائدة نفسها:
«قالَ أبو عَليٍّ (...)».
وجملة أول فصل شاكر الخامس فعلية ماضوية:
«وَما لَبِثْنا (...)».

فعلى حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة نفسها، ولكن في أصل موضعها؛ إذ يصل كلام أبي علي بعضه ببعضه على رغم استطراده ـ يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه من دون الفاء ولا «ثم»؛ إذ هو مطمئن إلى فهم معنى الترتيب من منطق الأحداث، ثم هو لم يشأ أن يحدد زمان ما بين غَشْيَةِ البطل وإفاقته، وإن أوحى بالتركيب إلى أن حوار ما بين أبي الحكم وأمير المؤمنين، قد أمَرَّ الوقتَ من دون أن يَتَبَيَّنَ له تحديدًا.

٥ وجملة أول فصل الرافعي السادس اسمية منسوخة بـ«كان»:
«كانَ أَحْمَدُ بْنُ طولونَ مِنْ جارِيَةٍ تُرْكِيَّةٍ».
ابتدائية في أول تَفْصيل مفعول جملة آخر الفصل الخامس، المُجْمَلِ:
«قالَ: تَعالَ، أُحَدِّثْكَ الحَديثَ: كانَ أَحْمَدُ (...)».
وجملة أول فصل شاكر السادس فعلية مضارعية:
«فَيَلْتَفِتُ الرَّجُلُ إلى عُرْوَةَ».
معطوفة على جملة آخر الفصل الخامس:
«فيقول له (...) فيلتفت (...)».

فعلى حين يُفَصِّلُ الرافعي المفعول به، ويطول الجملة تطويلًا تحليليًا، يؤرخ به تطور خصيم البطل النفسي ـ يقصر شاكر الجملة، ويغير الأشخاص، ويحرك الأحداث.

٦ وجملة أول فصل الرافعي السابع، فعلية ماضوية زائدة بين أجزاء اعتراض كبير، بعضه في آخر الفصل السادس، وبعضه في أول الفصل السابع:
«فَأَمَرَ (...) ـ (...) قالَ (...) ـ فَجيءَ (...)».

وجملة أول فصل شاكر السابع فعلية ماضوية معطوفة بالفاء على جملة آخر فصله السادس الفعلية الماضوية:
«قُلْتُ: (...) ثُمَّ مَضَيْتُ (...)».

فعلى حين يغلغل الرافعي الفصل الأخير في الذي قبله، يحركه شاكر حركة جديدة واضحة، ويجدد ترتيبه.

لا ريب في أن غَلْغَلَةَ الفصل في الفصل تَوْسيعًا لِإطارِ السابق لِيَشْمَلَ اللاحق ـ أَثَرٌ واضح من آثار انتهاج الرافعي منهج الاستبطان المثالي الصوفي. ثم لا ريب في أن تَحْديدَ

حدود الفصول وإسراع الأحداث، أثر واضح كذلك من آثار انتهاج شاكر منهج الاستبطان الواقعي الفني.

رَبْطُ الأَقْوالِ

[١٣] إذا تَتَبَّعْنا عند الرافعي أواخر جمل ما قبل أفعال القول وأوائل جمل ما بعدها، وجدنا هذه العبارات:

١ «جاءَه كِتابٌ (...) قالَ: فَجَعَلْتُ (...)».

التي عَطَفَ فيها جُملةَ «جَعَلْتُ (...)» بالفاء، على جملة «جاءَه (...)»، وكلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٢ «هُوَ الَّذي كانَ (...) قالَ أبو عَلِيٌّ: وَقَدِمْتُ (...)».

التي عطف فيها جملة «قَدِمْتُ (...)» بالواو، على جملة «هُوَ الَّذي كانَ (...)»، وكلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٣ «لَمَّا لَقيتُه لَقيتُ رَجُلًا (...) قالَ أبو عَلِيٌّ: وَهَمَمْتُ (...)».

التي عطف فيها جملة «هَمَمْتُ (...)» بالواو، على جملة «لَمَّا لَقيتُه لَقيتُ رَجُلًا (...)»، وكلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٤ «قالَ: لَوْ (...) قالَ أبو عَلِيٌّ: وَالْمُعْجِزاتُ (...)».

التي استأنف فيها جملة «الْمُعْجِزاتُ (...)» بالواو، عن جملة «قالَ: لَوْ (...)»، وأولاهما من كلام البطل، والأخيرة من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٥ «لَمَّا بَلَغَ هؤُلاءِ كانَتْ نِيَّتُه (...) قالَ: وَكانَ عَقْلُه (...)».

التي عطف فيها جملة «كانَ عَقْلُه (...)» بالواو، على جملة «(...) كانَتْ نِيَّتُه (...)»، وكلتاهما من كلام الدينوري الراوي الصغير.

٦ «أَمَرَ (...) ـ قالَ: وَكُنْتُ (...) ـ فَجيءَ (...)».

التي عطف فيها جملة «جيءَ (...)» بالفاء، على جملة «أَمَرَ (...)»، واعترض بينهما بجملة «كنت (...)» المقترنة بالواو، وكلتاهما من كلام الدينوري الراوي الصغير.

٧ «لَوْ أَنَّ خَطْرَةً (...) قالَ: وَانْصَرَفْنا (...)».

التي عطف فيها جملة «انْصَرَفْنا (...)» بالواو، على جملة «لو أن خطرة (...)»، وكلتاهما من كلام الدينوري الراوي الصغير.

- وإذا تأملنا أشباهها عند شاكر كذلك، وجدنا هذه العبارات:

١ «قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ: (...) فَبادَرْتُ (...)».

التي عَطَفَ فيها جُمْلَةَ «بادَرْتُ (...)»، على جملة محذوفة، وكلتاهما من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٢ «قالَ: بَلى (...) قالَ (...): فَهُوَ (...)».

التي استأنف فيها جملة «هُوَ (...)» بالفاء، عن جملة «بَلى» الباقيةِ منها أداةُ الجواب، وأولاهما من كلام سيدنا أبي بكر ـ رضي الله عنه! ـ والأخيرة من كلام رسول الله، صلى الله عليه، وسلم!

٣ «قالَ عُرْوَةُ: (...) إنّا (...) قالَ أبو الحَكَمِ: فَنَسْقيكَ (...)».

التي اسْتَأْنَفَ فيها جملة «نَسْقيكَ (...)» بالفاء، عن جملة «إنّا»، ومصدراهما واضحان.

٤ «قالَ عُرْوَةُ: (...) قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ: وَألاحَ (...)».

التي عطف فيها جملة «ألاحَ (...)» بالواو، على جملة، قالَ عُرْوَةُ: (...)، وكلتاهما من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٥ «قالَ لَها: اتَّقي اللهَ وَاصْبِري! فَقالَتْ: وَما تُبالي (...)».

التي استأنف فيها جملة «ما تُبالي (...)» بالواو، عن جملة «اصْبِري»، وأولاهما من كلام رسول الله ـ صلى الله عليه، وسلم! ـ والأخيرة من كلام المرأة الباكية.

إن الاستئناف عن الجملة مثل العطف عليها، وجه من ربط أخيرتها بالأولى في نسيج النص الواحد، مهما يكن اختلاف المجاورة التي في الاستئناف والمداخلة التي في العطف[**].

ثم إن من طبيعة الحوار الحي، أن تتوالى الجمل فيه بما يلائمها من وجوه الربط وأدواته المختلفة (العطف وأدواته، والاستئناف وأدواته،...)، وسواء أتَوالَتْ تلك الجمل من طرف واحد من أطراف الحوار، أم من أكثر من طرف؛ فمن ثم كان حِرْصُ الكاتِبَيْنِ على تلك الأدوات، وَجْهًا مِنْ نَفْخِ روح الحياة الطبيعية في نصيهما، على حين يتناساها كثير من كتاب اللغة العربية إذا أقبلوا يسجلون ذلك الحوار الحي، وكأن كل طرف من أطرافه يُكَلِّمُ نفسه!

ثم إن لمنهج كل من الكاتبين في نسج نصه، لأثرًا؛ فعلى حين وقع العطف على ما تَقَدَّمَ، والاستئناف عنه، في كلام طرف رافعيٌّ واحد في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال الرافعي بتحليل الأشخاص والأحداث كما سبق ـ وقع العطف على ما تَقَدَّمَ، والاستئناف عنه في كلام أكثر من طرف شاكريٌّ في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال شاكر بتحريك الأشخاص والأحداث، كما سبق.

عَطْفُ المُتشابِهاتِ

[١٤] إذا تَتَبَّعْنا عند الرافعي تراكيب العطف، وجدنا هذه العبارات:

١ «خالَطوهُ، وَصَحِبوهُ».

٢ «قارَبَها، أَوْ لامَسَها».

٣ «اتَّصَلَ بِها، أَوْ صاحَبَها».

٤ «قَتَلَهُمْ صَبْرًا، أَوْ ماتوا في سِجْنِه».

التي عطف فيها جملًا فعلية ماضوية بالواو و«أو»، على مثلها.

٥ «يَخْرِقُ الْعادَةَ، وَيَخْرُجُ عَنِ النَّسَقِ».

٦ «يَجورُ، وَيَعْسِفُ».

٧ «يَزْمَجِرُ، وَيَزْأَرُ».

٨ «لا يَنْظُرُ إِلى الأَسَدِ، وَلا يَحْفِلُ بِه».

التي عطف فيها جملًا فعلية مضارعية بالواو، على مثلها.

٩ «بِعِبادَتِه، وَزُهْدِه».

١٠ «في شَهَواتِ الحَياةِ، وَأَباطيلِها».

١١ «مَصالِحِه، وَمَنافِعِه».

١٢ «صِحَّةُ وُجودِها، وَكَمالُ مَنْفَعَتِها».

التي عطف فيها مركبات إضافية بالواو، على مثلها.

١٣ «الزُّهّادَ، وَأَهْلَ الْوَرَعِ».

١٤ «غَيْضَةٍ، أَوْ بَطْنِ وادٍ».

اللتين عطف فيهما مركبين إضافيين بالواو و«أو»، على مفردين.

١٥ «كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ».

١٦ «زُهْدًا، وَتَوَرُّعًا».

١٧ «الْفَزَعِ، وَالرُّعْبِ، وَالإِشْفاقِ».

١٨ «أَقْرَبَ، وَأَيْسَرَ».

١٩ «الْهَوامِّ، وَالذَّرِّ».

التي عطف فيها المفردات بالواو، على أمثالها، حتى عطف المفرد على نفسه في ظاهر عبارته الأولى!

- وإذا تَتَبَّعْناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ «أَكَلَتْ مِنّي السِّنُّ وَتَعَرَّقَتْني أَنْيابُ الْكِبَرِ».

٢ ((بَرَقَ وَجْهُه وَتَوَقَّدَ)).
٣ ((ما تَضَوَّرَ وَجْهُه وَلا تَقَبَّضَ)).
٤ ((فارَ الدَّمُ مِنْها وَتَفَجَّرَ)).
٥ ((تَحَلَّقَ النّاسُ حَوالَيْنا وَتَكَنَّفونا)).
٦ ((قَدِ اخْتَطَفَه أَجَلُه فَجَذَبَه فَهَوى بِه)).
٧ ((وَقاني أَذاها فَاحْتَمَلَ عَنّي أَلَمَها)).
٨ ((قَدْ نَجِدَ فَنَضَحَ وَجْهُه بِالْعَرَقِ)).

التي عطف فيها جملًا فعلية ماضوية بالواو والفاء، على مثلها.

٩ ((نَعْبَثُ وَنَلْهو)).
١٠ ((يُواسونَه وَيُصَبِّرونَه)).
١١ ((يُثَبِّتُه وَيُسَكِّنُه وَيَنْفُضُ عَنْه الْجَزَعَ)).

التي عطف فيها جملا فعلية مضارعية بالواو، على مثلها.

١٢ ((لا يَنْفَعُ الْقَطْعُ وَلا الْبَتْرُ)).
١٣ ((لا تَكونُ عَلَيْهِ نائِحَةٌ وَلا مُعْوِلَةٌ)).

اللتين عطف فيهما مفردين بالواو، على مثليهما.

لن يستغني الصراع القصصي عن عطف الأحداث والأعيان والصفات، كل منها بعضه على بعض، على وجوه العطف المختلفة. ولقد جرى شاكر مجرى الرافعي، في عطف متشابهات الأحداث والأعيان والصفات، التي لا يَعْلَمُ فَرْقَ ما بَيْنَها كَثيرٌ مِنَ الْمُتَلَقّينَ، تَنْبيهًا على الفروق اللغوية التفكيرية، تحقيقًا للثقافة العربية الإسلامية في نفسها، ثم تمييزًا لها من غيرها من الثقافات.

ويزيد عطف المتشابهات سطوعا، مُوازَنَتُها أي أن تتفق أوزان المتشابهات -إن كانت مفردات- أو عناصرها -إن كانت مركبات- وسواء أكانت مسجوعة أم لا؛ فمن ثم كانت الموازنة ظاهرة بديعية أخص من السجع[٤٨]، مثلما في عبارات الرافعي السابقات (٢، ١١، ١٨)، و في مثل عبارتي شاكر السابقتين (١١، ١٢)[٤٩] -فإن المتشابهات إذا توازنت أغرت المتلقي بالإسراع إلى الحكم عليها بالاتحاد (أن المتعاطفين شيء واحد)، حتى إذا ما تأملها فاجأته باختلافها؛ فكانَتْ أشد تأثيرًا فيه.

ولقد احتفى بذلك الرافعي أكثر من شاكر، حتى استعمله في خمسة أنواع من التراكيب، وَضَّحْتُها بما سبق من تمييز وتَعْليق، ولم يستعمله شاكر إلا في ثلاثة فقط. ثم على حين اجتمع الرافعي وشاكر على استعمال الواو، افترقا في ((أو)) والفاء؛ فاستعمل الرافعي ((أو))، واستعمل شاكر الفاء، وجرى كل منهما على ما يلائم منهجه؛ فاستفاد

الرافعي مما في «أو» من إبهام في تحليل تلك المتشابهات، واستفاد شاكر مما في الفاء من ترتيب وتعقيب(**)، في تحريك تلك المتشابهات على حالها، فأما إبهامها فيزيدها تَشابُهًا، وأما إسراع تحريكها فلا يتيح للمتلقي أن يتأملها!

من ذلك مثلًا عبارة الرافعي الرابعة؛ فلقد أراد أن يحلل طبيعة البطش في أحمد بن طولون؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين قتله خصومه صبرا (قَصْدِه سَجْنهم حتى يهلكوا)، وموت خصومه في سجنه (إهمالِه لهم فيه حتى يهلكوا)، ومن عطف جملتيها بـ«أو» الإبهامية ـ وعبارة شاكر السادسة؛ فلقد أراد أن يصور حرص الموت على الشاب النبيل؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين اختطاف الشيء (أخذه سريعا)، وجذبه (مده)، والهوي به (إسقاطه)، ومن عطف جملها بالفاء الترتيبية التعقيبية.

وعبارة الرافعي الخامسة عشرة، دليل زيادة حفاوته بعطف المتشابهات؛ فقد حذف من كلا المعطوفين صفتيها: (الكبيرة)، و(الصغيرة) المفهومتين مما بعد(**)، وترك المتلقي يعجب لارتكابه هذا الحذف الذي أفضى إلى عطف كلمة على مثلها أي إلى إِفْرادِ ما يَنْبَغي تَثْنِيَتُه، حَفاوَةً منه بعطف المتشابهات كما سبق، وإمعانا في الموازنة.

تَرْكيبُ المُفاجَأَةِ

[١٥] إذا تَتَبَّعْنا عند الرافعي «إذا» الفجائية، عثرنا على هاتين العبارتين:

١ «فإذا هِيَ الْوَثيقَةُ الضّائِعَةُ».

٢ «فإذا هُوَ ساهِمٌ مُفَكِّرٌ».

اللتين اقترنت فيهما «إذا» بالفاء، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير غيبة.

- وإذا تَتَبَّعْناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ «وإذا هُوَ ساكِنٌ ساجٍ».

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير غيبة.

٢ «وإذا طائِرٌ يَحومُ».

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها نكرة.

٣ «وإذا زَيْنُ المُواكِبِ تَحْتَ سَنابِكِها».

٤ «وإذا فيهِمْ سُلَيْمانُ».

٥ «وإذا عُرْوَةُ كَأَنْ لَيْسَ بِه شَيْءٌ».

٦ «وإذا عُرْوَةُ قَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ».

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها علم.

٧ «وإذا وُجوهُ النّاسِ قَدْ جَلَسوا إلى عُرْوَةَ».

٨ «وإذا وَجْهُه قَدْ صَفِرَ مِنَ الدَّمِ».

اللتين اقترنت فيهما «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها مضاف إلى معرفة.

إن المفاجأة أسلوب مهم من أساليب تنمية صراع الأشخاص الذي لا تستغني عنه قصة، غير بعيد من أسلوب التعقيب السابق ذكره؛ ومن ثم مال إليه شاكر المولع بتحريك الأشخاص والأحداث، أكثر من الرافعي المولع بتحليلها، حتى استعمله في أربعة أنواع من التراكيب وَضَّحْتُها بما سبق من تَمْييز وتَعْليق، ولم يستعمله الرافعي إلا في نوع واحد فقط.

وأعجب ما في العبارات السابقة، اقتران «إذا» بالفاء في عبارتي الرافعي كلتيهما على قلتهما، واقترانها بالواو في عبارات شاكر الثماني كلها! ولكن إذا تأملنا سياق كل عبارة، وجدنا الواو هي المستعملة فيما قبل عبارتي الرافعي كلتيهما، والفاء هي المستعملة فيما قبل عبارات شاكر الأربع (٣، ٥، ٦، ٧)، وقبل الجملتين المقترنتين بـ«إذا» الفجائية نفسها، اللتين قبل عبارتيه (٤، ٨)؛ فمن ثم يكون كل من الكاتبين قد جَهَّزَ التركيب من قبل مجيء «إذا»؛ حتى تطمئن في مكانها، إحساسًا خاصًّا واحدًا، اجتمع عليه الأستاذ والتلميذ.

الإِجْمالُ ثُمَّ التَّفْصيلُ

[١٦] إذا تتبعنا عند الرافعي، أطراف الجمل المتوالية، وجدنا هذه العبارات:

١ «كانَ يَوْمُه كَالْبُرْهانِ (...): ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا (...)».

٢ «جَعَلْتُ أُفَكِّرُ في طَعْمِ النَّفْسِ: ما هُوَ».

٣ «لَه مَعْنى أُبُوَّةِ الْأَبِ في أَبْنائِه: لا يَراهُ مَنْ يَراهُ مِنْهُمْ (...)».

٤ «تَعالَ أُحَدِّثْكَ الْحَديثَ: كانَ أَحْمَدُ (...)».

٥ «كُنْتُ أُفَكِّرُ في لُعابِ الْأَسَدِ: أَهُوَ طاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ».

التي قدم فيها جُمَلًا إجْماليَّةً، ثم أَبْدَلَ منها جُمَلًا تَفْصيليَّةً.

٦ «كانَ عَقْلُه مِنْ أَثَرِ طَبيعَتِه (...): فَلَه يَدٌ مَعَ الْمَلائِكَةِ (...)».

٧ «لَمْ يَرُعْنا إِلّا ذُهولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِه: فَأَقْعى عَلى ذَنَبِه (...)».

٨ «يَكْشِفُ لَه عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ (...): فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ (...)».

٩ «كَما خَرَجَ الشَّيْخُ (...) خَرَجَ الْوَحْشُ (...): فَلَيْسَ في الرَّجُلِ (...)».

١٠ «جَعَلَ كُلٌّ مِنّا يَظُنُّ (...): فَمِنْ قائِلٍ (...)».

التي قدم فيها جملا إجمالية، ثم عَطَفَ عليها جملًا تفصيلية.

- وإذا تَتَبَّعْناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ «ما نَرى ـ وَاللهِ ـ مُحَمَّدًا: قَدِ اخْتَطَفَه أَجَلُه (...)».

التي قدم فيها جُمْلَةً إجماليَّةً، ثم أَبْدَلَ منها جُمْلَةً تَفْصيليَّةً.

٢ «إِنِّي ـ وَاللهِ ـ مُحَدِّثُكَ عَنِّي بِخَبَرِي (..): فَقَدْ بِتُّ (...)».

التي قدم فيها جُمْلَةً إجماليَّةً، ثم عَطَفَ عليها جُمْلَةً تَفْصيليَّةً.

في الإجمال إغماض، ثم في التفصيل إيضاح، ولكن لا سبيل إلى اكتشاف الإجمال وإغماضه إلا بعد الفراغ من التفصيل وإيضاحه؛ فإن المتلقي لا يستطيع أن يميز ذلك حتى يأتيه هذا، وعندئذ يحتاج إلى أن يعود مرة أخرى إلى الإجمال الذي لم ينتبه إلى أنه إجمال، ليحسن فهمه وربطه بتفصيله بعد أن انتبه إلى أنه تفصيل[٥٣]!

وإن عطف التفصيل بالفاء على الإجمال[٥٤]، لأشد ثقلًا على المتلقي من إبداله منه؛ فإنه يَظُنُّ في الجملة المقترنة بالفاء كُلَّ ظَنٍّ، حتى يَتَبَيَّنَ أنها تفصيلُ ذلك الإجمال، فأما الإبدال فأقرب وجوه التفصيل؛ فمن ثم يظهر وجه ميل الرافعي إلى الإجمال والتفصيل المناسبين لمنهجه أكثر من شاكر، وإن انقسمت العبارتان الواقعتان لشاكر منه، على وجهي الإبدال والعطف، كما انقسمت عبارات أستاذه.

فَصْلُ الحَدَثانِ

جَوامِعُ الذِّرْوَتَيْنِ

[١٧] هذا فصل الحدث الذي تتأزم به سائر الأحداث، بل الذي من أجله كان كثير منها؛ فهو الحدث الأكبر الحق (الحَدَثان)، الذي لم يستعظم معه أي من الكاتبين المحقِّقَيْن، أن يَخْتَرِعا فَيَزيدا ما يُمَهِّدُ له، ويُجَلِّيه. مثل ذلك مثل فصل المُداواة بالكَيِّ إذا تَخَيَّلْنا لَهَا فَصْلًا مَعيشيًّا، تكون فيه أحداث من التَّمْهيد والتَّجْلية، كاستفحال المرض، وظهور ضرورة الكي، والسفر إلى الطبيب، ومثول المريض أمامه، وتجهيز المياسم، وإحمائها، وحضور المساعدين، واضطراب الأصحاب في أثناء الكي، ودهان الموضع بعقب الكي، وصعوبة حركة المريض بعقبه ـ ولكن أهم ما فيه من أحداث هو الكي نفسه، الذي يجتمع فيه على المريض، المَرَضُ والطَّبيبُ والمَياسِمُ والمُساعِدونَ!

في هذا الفصل يُعَرِّضُ الرافعيُّ البَطَلَ للافتراس فلا يُفْتَرَسُ، ويُعَرِّضُه شاكرٌ لقطع رجله فتُقْطَعُ؛ فلم يكن تعريض البطل لقطع رجله من دون أن تقطع، بكفء لتعريضه للافتراس وإن لم يفترس؛ فقد تَمَثَّلَ بالأسد المفترس مِثالُ الموت، وَشَتّانَ التَّعَرُّضُ لِفَقْدِ النَّفْسِ وَالتَّعَرُّضُ لِفَقْدِ رِجْلٍ! ثم إن مكانة البطل التاريخية التي حملت كلا الكاتبين على

الكتابة عنه والتَّوَسُّلِ به إلى تَثْقيفِ المُتَلَقِّين، موكولة في كثير من شأنها، إلى بقائه على رغم الحَدَثان مِثالًا حَيًّا يُكْبِرُه الناس ويؤوبون إلى أقواله وأفعاله وأحواله.

تَفْقيرُ الفِقَرِ

[١٨] كما أفرد الكاتبان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، واجتمعا عليه، أفردا عدد فقر فصلي الحدثان (خمس فقر)، واجتمعا عليه، حِرْصًا على منهج التَّـدْوير نفسه، الجدير بشدة التأثير؛ فمهما تَشَعَّبت معاني فِكْرَةِ الفَصْل، وتَفَقَّرَتْ بها الفقر، تَلاقَتْ في فقرة تغلق دائرتها وتحكم رسالتها.

ولقد كانت فقرة «يقين البطل»، أطول فقر فصل الحدثان عند الكاتبين جميعا، هي الفقرةَ التي أغلقا بها للمتلقي دائرة الخصوصية التي تتيسر للمثقف المتحقق بهذه الثقافة العربية الإسلامية؛ فبمعرفة حدود الوجود وغايته وقدرة الموجد ومراده، يتكون مثل هذا اليقين الذي يكمل للمتلقي مواقف أمثال هؤلاء الأبطال وإن لم تبلغه كمالاتها.

صِفَةُ الطَّبيبِ كَصِفَةِ الأَسَدِ

[١٩] أخرج شاكر فقرته الأولى (صفة الطبيب)، مخرج فقرة الرافعي الأولى (صفة الأسد)؛ فكان الطبيب لديه بمنزلة الأسد لدى الرافعي. إن مقتضى الحال إذا لزم التشبيه، أن تكون «الأَكْلَةَ» هي التي تُشَبَّهُ بالأسد، لا الطبيب! ولكن لما كان الطبيب هو الذي عرفها وذكرها وعالجها بما يشبه الافتراس، نَزَّله شاكر منزلة الأسد. ثم هنا لطيفة فنية؛ فلقد حرك الرافعي الأسد إلى أعمال ومشاعر لم يستطع شاكر أن يحرك إلى مثلها «الأكلة»، وكان على أَثَرِ أستاذه عَفْوًا أو قَصْدًا؛ فاستفاد من وجود الطبيب!

ولقد تأنق كل منهما في وصف موصوفه؛ فأكثر من صفاته، وألبس بعضها ببعض على طريقة «عطف المتشابهات» السابقة نفسها ـ وكلا النعوت والمعطوفات توابع ـ ثم جعلها في عقب خبرِ جملةٍ اسمية: أما الرافعي فَنَسَخَها بـ«كان»، ثم أورد الأوصاف أخبارًا أخرى، مُعَدَّدَةً مُفَرَّقَةً. وأما شاكر فَجَرَّدَها من النواسخ، ثم أورد الأوصاف نعوتًا للخبر، مُعَدَّدة مُفَرَّقة:

	الرافعي	شاكر
	((كانَ الأَسَدُ الَّذي اختاروهُ لِلشَّيْخِ أَغْلَظَ ما عِنْدَهُمْ))	هُوَ شَيْخٌ
١	جَسِيًا	نَضْرانِيٌّ
٢	ضارِيًا	طَوِيلٌ
٣	عارِمَ الْوَحْشِيَّةِ	فارِعٌ
٤	مُتَزَيِّلَ الْعَضَلِ	مَشْبوحُ الْعِظامِ
٥	شَديدَ عَصَبِ الْخَلْقِ	قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ
٦	هَرَّاسًا	أَحْمَرُ
٧	فَرَّاسًا	أَزْهَرُ
٨	أَغْرَثَ الشِّدْقِ	أَصْلَعُ الرَّأْسِ إِلّا شَعَراتٍ بِيضًا قَدْ بَقِيَتْ لَهُ
٩	يَلوحُ شِدْقُهُ مِنْ سَعَتِهِ وَرَوْعَتِهِ كَفَتْحَةِ الْقَبْرِ يُنْبِئُ أَنَّ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ	كَثُّ اللِّحْيَةِ
١٠	وَيَظْهَرُ وَجْهُهُ خارِجًا مِنْ لِبْدَتِهِ يَهُمُّ أَنْ يَنْقَذِفَ عَلى مَنْ يَراهُ فَيَأْكُلَهُ.	طَوِيلُها
١١	×	لَوْ ضَرَبَتْها الرِّيحُ لَطارَتْ بِهِ.

وعلى رغم مُضِيِّ أحداث القصتين كلتيهما، وكون قصة شاكر المُتَوَفَّى رجالُها في أواخر القرن الهجري الأول، أَوْغَلَ في القدم من قصة الرافعي المُتَوَفَّى رجالُها في أواخر القرن الهجري الثالث - أَخْرَجَنا الرافعيُّ من إطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في المثالية، وكأنما خشي أن نُدَنِّسَه، وأحاطَنا شاكرٌ بإطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في الواقعية، وكأنما خشي ألا نَتَأَثَّرَه؛ فلم يكن غريبا ألا ينسخ شاكر جملته بـ((كان))، مثلما نسخها الرافعي.

ثم على حين جعل الرافعي أوصاف الأسد أخبارا طبيعتها النحوية التجاور لا التداخل، بيانا لوجه من قسوة مختاريه؛ إذ مَيَّزوا الأسود بعضها من بعض قليلا قليلا دون عجلة، بالصفة من صفاتها بعد الصفة، حتى اختاروه بحيث تتجمع فيه الصفات كلها؛ فإذا ما هاجم البطلَ، كان مِنْ صِفاتِهِ في قَطيعِ أُسودٍ تُهاجِمُه - جعل شاكر أوصاف الطبيب نعوتا طبيعتها النحوية التداخل لا التجاور، بيانا لغرابة شأن هذا الطبيب الذي قَرَّبَه أمراء المسلمين في ذلك الزمان العزيز، ومكنوه على رغم نصرانيته، كيف كان أزهر (نَيِّرًا) على

رغم شيخوخته، و أصلع على رغم كثاثة لحيته، حتى إذا مـا أَقْبَـلَ، أَقْبَـلَ مِـزاجٌ غَريـبٌ؛ فكأنه عَيْنٌ مُريبةٌ.

الْيَقِينُ الْيَقِينُ

[٢٠] ولقد جرى شاكر في فقرته الثانية (يقـين البطـل)، مجـرى الرافعـي في سَـمِيَّتِها الرابعة (يقين البطل)، فأنبت في بطله اليقين بكلام الحق ـ سـبحانه، وتعـالى! ـ كـما أنبتـه الرافعي:

فأما الرافعي فقد أنطق الراوي بقوله في البطـل: ((كـانَ مُنْـدَمِجًا في يَقـينِ هـذِهِ الآيَـةِ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا})))، الذي يعبر عن فهم الراوي لحال البطل مـن اليقـين، فهو يتكلم عنه، ولم يستطع أن يُنْطِقَ البَطَلَ نَفْسَه.

وأما شاكر فقد كان في مقام يتيح له أن يُنْطِقَ البَطَلَ بما يريد من أفكار التَّثْقيفِ الْعَـرَبِيِّ الْإِسْلاميِّ؛ فجعله يقـول: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَـا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُـلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}.

كلتا العبارتين من كلام الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ ولكن ثم فرقًا بين البطل الشـاكري المجتمع الناس حوله وفيهم الطبيب النصراني المعلقة به آمال الحاضرين على رغـم قسـوة عمله، والبطل الرافعي المفرد الصامت، الذي ذهب الناس في تخيل سره المذاهب.

إن العبارة القرآنية عند شاكر شعار إسلامي، يُثَبِّتُ به البطل نفسَه والمسلمين، ويدعو غيره من غير المسلمين إلى الإسلام الذي بنى في البطل مثل هذا اليقـين، ولـيس أدل مـن قول شاكر بعدئذ على لسان عمر بن أبي ربيعة:

((رَأَيْتُ أَبا الْحَكَمِ وَقَدْ بَرَقَ وَجْهُه وَتَوَقَّدَ كَأَنَّما أَسْلَمَ بَعْدَ كُفْرٍ))!

مَجْلِسُ الْقَطْعِ كَهَجْمَةِ الْأَسَدِ

[٢١] ثم أخرج شاكر فقرته الثالثة (مجلس القطع)، مخرج فقرة الرافعي الثانية (هجمة الأسد)، في وَشْك معمعة الحدثان، وتأنق في وصفها بقوله في الطبيب:

((نَشَرَ دُرْجًا كانَ في يَدِه، وَأَخْرَجَ مِنْشارًا دَقيقًا طَويلًا صَـقيلًا يَضْـحَكُ فيـهِ الشُّـعاعُ، وَوَضَعَ الطَّسْتَ)).

كما تأنق الرافعي في وصفها بقوله في الأسد:

«انْطَلَقَ يُزَمْجِرُ وَيَزْأَرُ زَئِيرًا تَنْشَقُّ لَـه المَرائِـرُ، وَيَتَـوَهَّمُ مَـنْ يَسْـمَعُه أَنَّـه الرَّعْـدُ وَراءَه الصَّاعِقَةُ! ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ في نَفْسِه، وَاقْشَعَرَّ، ثُمَّ تَمَطَّى كَالْمَنْجَنيقِ يَقْذِفُ الصَّخْرَةَ».

وكما كادت صفات الأسد والطبيب تتطابق في الفقـرتين الأوليـين، كـادت حركـات هجمتيهما تتطابق هنا؛ فقد جعلها شاكر ثلاث حركات:

١ «نَشَرَ...».
٢ «وَأَخْرَجَ...».
٣ «وَوَضَعَ...».

وجعلها الرافعي أربعا بمنزلة ثلاث:

١ «انْطَلَقَ...».
٢ «ثُمَّ اجْتَمَعَ...».
٣ «وَاقْشَعَرَّ...».
٤ «ثُمَّ تَمَطَّى...».

ولكن إذا أضفنا الاقشعرار إلى الاجتماع لأنه من لوازمه ـ وإلا لم يكـن الاجـتماع مـن باب الهجوم ـ كانت حركتا الأسد الثانية والثالثة حركة واحدة، وكانت الحركـات كلهـا عند الرافعي ثلاثا مثلها هي عنـد شـاكر، ولا سـيما أن الجمـل الرافعيـة كلهـا، متعاطفـة بـ«ثم»، إلا الثالثة والثانية المتعاطفتين بالواو لتكونا بتلك المنزلة الواحدة السابق ذكرها.

جمل الكاتبين فعلية ماضوية، وعلى حين تعاطفت بـ«ثـم» عنـد الرافعـي، تعاطفـت بالواو عند شاكر؛ إذ لا ترتيب في الشاكرية مثل الذي في الرافعيـة؛ فـربما عمـل الطبيـب بعضها مع بعض أو قبل بعض، فأما الأسد فيجري على ترتيـب حركاتـه فطـرة الله التـي فطره عليها، من دون أن يخرم منها حرفا، أو تكون له فيها يد!

وقد مكنت الرافعي فطرة الأسود الثابتة على حركـات واحـدة وترتيـب واحـد مهـما كانت الأسود ومهما كان التكرار، من أن يستوعبها ويتـأنق في وصـفها، إلى ذلـك الحـد الذي لم يتيسر لشاكر!

عَمَلُ الْقَطْعِ كَذُهولِ الْأَسَدِ

[٢٢] ثم أخرج شاكر فقرته الرابعة (عمل القطع)، مخرج فقرة الرافعي الثالثة (ذهول الأسد)، في ذروة معمعـة الحـدثان، حيـث يتصـاول كِفاحًـا الخصـيمُ البـاطش والبطـلُ المبطوش به. ولكن على حين قدم الرافعي الجملة الأولى في البطل:

«وَرَأَيْناهُ عَلى ذلِكَ (...) الرَّجُلِ».

ثم أخر الجملة الثانية في الخصيم:

«وَلَمْ يَرُعْنا إِلّا ذُهولُ الأَسَدِ عَنْ وَحْشيَّتِه».
جاعلًا الست الباقيات (٣ ـ ٨) تفصيلًا لإجمال تلك الجملة الثانية:
«أَفْعى (...) وَإِرادَةِ اللهِ»!
قدم شاكر الجملة الأولى في الخصيم:
«وَضَعَ أَبو الحَكَمِ (...) يَوْمَه ذاكَ».
ثم الجمل الأربع التاليات (٢ ـ ٥) في البطل:
«ما تَضَوَّرَ وَجْهُه (...) مِنْ تَهْليلِه وَتَكْبيرِه».
ثم الجمل الثلاث التاليات (٦ ـ ٨) في الخصيم:
«دَخَلَ رِجالٌ (...) حَتّى حَسَمَ الدَّمَ».
ثم أخر الجملتين الباقيتين (٩ ـ ١٠)، في البطل:
«إِذا عُرْوَةُ (...) تَحْتَ النَّدى».

إنه لما أخر الرافعي فقرة (يقين البطل) عن فقرة (ذهول الأسد)، اضطر إلى تقديم جملة أولى من جمل (ذهول الأسد) في بطله، ولولا هذا ما ذكر بطله؛ فقد ألغى المصاولة المنتظرة بين الأسد وبينه، وجعلها بين إرادة ابن طولون وإرادة الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ على رغم امتناع الكفاءة، دلالة على جهل ابن طولون؛ فمن ثم لم نجد في فقرته ما وجدناه في فقرة شاكر بين جمل الخصيم الباطش (أبي الحكم ومنشاره ورجاله) وجمل البطل (عروة)، من تداخل.

لقد كانت ذروة المعمعة عند الرافعي، من عمل الأسد وحده، دلالة على انقطاع ما بينه وبين البطل، فأما عند شاكر فلقد كانت ذروة المعمعة في توالي أعمال القطع من الطبيب ومساعديه، وتوالي أعمال الصبر من عروة.

دَهْشَةُ الطَّبيبِ كَدَهْشَةِ الشُّهودِ

[٢٣] ثم أخرج شاكر فقرته الخامسة (دهشة الطبيب)، مخرج فقرة الرافعي الخامسة (دهشة الشهود)، بحيث تكون بمنزلة الهالة تحيط بالبطل من كل جهة، وتبهر من حوله، وتزيد من الأثر الذي يريده.

ولكن أطرف ما اختلف فيه الكاتبان، أن يخرج الرافعي الدهشة من الشهود، ولا يتجاوزهم إلى الخصيم الذي صار الآن ابن طولون نفسه، إلا بعد ما يدل على أنهم أكثروا من دهشتهم حتى اضطر الخصيم إلى إظهار اندهاشه ـ على حين يخرج شاكر الدهشة من الخصيم صريحة واضحة:

«ما رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ! إِنَّه رَجُلٌ، وَإِنَّها الْحَقيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَإِنَّ إيمانَه لَيَحوطُه، وَيُثَبِّتُه، وَيُسَكِّنُه، وَيَنْفُضُ عَنْهُ الْجَزَعَ».

ينبغي ألا نغفل عن أن شاكرا نثر ابتلاءات بطله على أرجاء القصة، فصحبتها دهشات متعددة مختلفة لم يحتج إلى الزيادة عليها، ولكنه لما وصل إلى آخر فقر فصل الحدثان، تحرى أن يجعل فضل البطل من شهادة خصيمه الذي لا يدين بدينه. ثم إن لكون فصل الحدثان آخر فصول قصة الرافعي، أثرا في تكثيفه دهشة الشهود، بعبارة من كلام البطل:

«لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَإِنَّما كُنْتُ أُفَكِّرُ في لُعابِ الْأَسَدِ: أَهُوَ طاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ».

إنها عبارة شديدة السخرية من الخصيم، تظل عالقة بأسماع المتلقين، لتملأ الدنيا فيما بعد.

عبارة الرافعي جملتان اسميتان منسوختان بأداتين فعليتين (مضارعية محولة إلى الماضوية وماضوية صريحة)، ثانية الجملتين الاسميتين فيها أسلوب الإجمال والتفصيل الواضح عند الرافعي كما سبق -وعبارة شاكر خمس جمل: فعلية ماضوية، وفعلية مضارعية موجزة، وثلاث اسميات، خبر ثالثتها جملة فعلية مضارعية، معطوف عليها ثلاث مثلها، لا يخفى ما بين الأربع كلها من تفصيل وترتيب وتأنق.

لقد تحرى الرافعي في عبارة بطله التي كَثَّفَ فيها فكرة الفقرة، أن تدل بقصرها على سخرية البطل الشديدة من خصيمه، التي لا تخلو من كمد عليه، فأما شاكر فقد كان في بحبوحة من المشاعر التي يريد أن ينقلها للمتلقي ولا سيما غير المسلم؛ فهو يزيد ويرتب ويتأنق!

تَرتيبُ الْفِقَرِ

[٢٤] كما اتفقت بين الكاتبين فقر هذا الفصل، اتفقت مواضعها، حتى لَنَسْتَطيعُ أن نميز منها قسمين واضحين:

١ فقر التمهيد لمعمعة الحدثان: كانت عند الرافعي اثنتين (صفة الأسد، وهجمة الأسد)، وكانت عند شاكر ثلاثًا (صفة الطبيب، ويقين البطل، ومجلس القطع).

٢ فقر معمعة الحدثان: كانت عند الرافعي ثلاثًا (ذهول الأسد، ويقين البطل، ودهشة الشهود)، وكانت عند شاكر اثنتين (عمل القطع، ودهشة الشهود).

لا يخفى أنه لولا موضع فقرة (يقين البطل)، لتطابقت الفقر في مواضعها كما تطابقت في أنفسها.

ولا ريب في أن شرح ذلك اليقين بعد سطوع أثره على ما فعل الرافعي، أقوى وضوحا وأنجع أثرًا، مثلما يعمل الرجل العمل الصالح، ثم يدل الناس فيما بعد على إيمانه الذي

حفزه إليه؛ عسى أن يأتسوا به، على مثل ما قص الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ من خبر سيدنا يوسف ـ عليه السلام! ـ وصاحبي السجن؛ إذ لم يدعهما إلى دينه إلا بعدما وُفِّقَ إلى تأويل رُؤْيَيَيْهما.

ولكن أين خصيم البطل عند شاكر (الطبيب النصراني)، من خصيمه عند الرافعي (الحيوان الأعجم)!

لقد هجم الحيوان الأعجم على البطل لا يلوي على شيء، ولا يماري ولا يباري، فأما الطبيب النصراني فدعا البطل إلى الخَمْر مرة وإلى المُرْقِد ثانية وإلى المُمْسِكين ثالثة؛ فاحتاج الكاتب إلى أن يبادر إلى تبيان يقين البطل؛ ففي أعمال اليقين المتوالية، علاج أعمال الخصومة متوالية.

خاتِمَةٌ

[٢٥] إن حياة ثقافتنا العربية الإسلامية، مستديرة مثل حَيَواتِ غيرها من الثقافات الكبيرة، تتوالى فيها من قديم إلى حديث، أحوالُ الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف.

وإن مصطفى صادق الرافعي وتلميذه محمود محمد شاكر، مدرسة واحدة من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، ثم التأتي إلى تعليمها والإغراء بمراجعتها ـ استحدثت أساليب أدبية متعددة مختلفة، أثرت في المتلقين تأثيرًا شديدًا.

وإن في جلال الغاية التي أمَّها الكاتبان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أحد أساليبها ـ ما يستغرق تأمل النحوي، حتى يوازن بينهما موازنة نصية نحوية؛ فيشرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

ولقد تأملت نصوص الرافعي وشاكر من ذلك الأسلوب الناجح، طويلا، حتى عثرت لأحد نصوص شاكر القليلة على نص يلائمه مقدارًا ورسالة، من نصوص الرافعي الكثيرة. ثم تأملت هذين النصين طويلًا، حتى ظهرت لي بينهما الأربع عشرة مسألة، التالية:

جَوامِعُ النَّصَّيْنِ، وحُضورُ الْأَعْلامِ، وصَوْتا الْكاتِبَيْنِ، وتَفْصيلُ الْفُصولِ، وتَرْتيبُها، ونَسْجُ النَّصَّيْنِ، وتَوْصيلُ الْفُصولِ، ورَبْطُ الْأَقْوالِ، وعَطْفُ الْمُتَشابِهاتِ، وتَرْكيبُ الْمُفاجَأَةِ، والْإِجْمالُ ثُمَّ التَّفْصيلُ، وجَوامِعُ الذِّرْوَتَيْنِ، وتَفْقيرُ الْفِقَرِ، وتَرْتيبُها.

خَصَصْتُ النَّظَرَ في كُلِّ مَسْأَلَةٍ منها بمبحث، حتى أكَّدَ لي ما ذكرته بين الرافعي وشاكر، من معنى المدرسة الثقافية الواحدة (المذهب الثقافي الواحد)، ولكنه دلني كذلك على منهجين تنازعاهما بدقائق لوازمهما:

١ الاِسْتِنْطانُ الْمِثاليُّ الصّوفيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلاها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى أعلاها، دَوالَيْك.

٢ الاِسْتِنْطانُ الْواقِعيُّ الْفَنّيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من ورائها إلى أمامها، ومن أمامها إلى ورائها، دَوالَيْك.

انتهج هذا الأخيرَ شاكرٌ، بعد ما انتهج ذلك الأولَ أستاذُه، من دون أن يأتي اختلاف المنهجين الاثنين بينهما، على معنى المدرسة الثقافية الواحدة.

حَواشي البَحْثِ

١ الشكمة: ٥٠.

٢ السابق: ٥٠، ٥١. والعجب للدكتور الشكمة الذي عاصر الرافعي وشاكرا كليهما، وعرف علاقة ما بينهما، يضع كتابه هذا في سنة ١٩٧٠م، التي ملأت الدنيا فيها مقالات شاكر الشهيرة ((أباطيل وأسمار))، ويقول فيه: ((هل يوجد بيننا الآن رافعي آخر ـ وقد بدأت الفرعونية والشعوبية والتطاول على القيم تطل بوجهها الكريه من جديد ـ لا يتهاون في عقيدته ولا يترخص في دينه ولا يتكاسل في الدفاع عن حمى لغته ولا يغضي أو يتغاضى إذا ما هوجمت علنا وعلى رؤوس الأشهاد ـ والشأن هذه الأيام أن يعتدى عليها ـ فيعلنها معركة فكرية مقدسة لإظهار سطحية وضحالة هؤلاء الذين يغمزون العربية وآدابها وهم منها في جهل مطبق وفراغ في كل شيء إلا من نفوس ملأها الحقد وأكلتها الكراهية))!

٣ السابق: ٩٦. احتفى شاكر في مقدمته لكتاب ((حياة الرافعي)) للأستاذ محمد سعيد العريان، بأن يَتَيَسَّرَ للأستاذ الكبير من تلامذته من يبره في تراثه، كما بر محمد سعيد العريان أستاذه الرافعي؛ فَيَسَّرَ له المِقْدارُ تلميذه الدكتور عادل سليمان جمال الذي بره في تراثه، كفاء ما أثنى على السنة الحسنة، وشارك فيها!

٤ شاكر: ١/ ٤٠.

٥ السابق: ١/ ١١١.

٦ السابق: ١/ ٢٣٤.

٧ السابق: ١/ ٢٥١.

٨ السابق: ١/ ٢٦٥.

٩ السابق: ١/ ٢٧٢.

١٠ السابق: ١/ ٣٤٧.

١١ الرافعي: ١/ ١٠٣.

١٢ السابق: ١/ ١١٣.

١٣ السابق: ١/ ١٢٤.

١٤ السابق: ١/ ١٣٣.

١٥ السابق: ١/ ١٤٣.

١٦ السابق: ١/ ١٥١.

١٧ السابق: ١/ ٢٢١.

١٨ السابق: ١/ ٢٢٩.

١٩ السابق: ١/ ٢٣٧.

٢٠ السابق: ٢/ ٧٤.

٢١ السابق: ٢/ ٨٢.

٢٢ السابق: ٢/ ٨٩.

٢٣ السابق: ٢/ ٩٦.

٢٤ السابق: ٢/ ١٠٢.

٢٥ السابق: ٢/ ١١٠.

٢٦ السابق: ٢/ ١٣٥.

٢٧ السابق: ٢/ ١٤٣.

٢٨ السابق: ٢/ ١٤٩.

٢٩ السابق: ٢/ ١٥٤.

٣٠ السابق: ٢/ ١٦٦.

٣١ السابق: ٣/ ٤٥.

٣٢ السابق: ٣/ ٥٢.

٣٣ السابق: ٣/ ٤٥ ـ ٥١.

٣٤ هي في النص ((إذْ))، ولا ريب ـ إن شاء الله ـ في صواب ما أثبت؛ فلا أصالة لاستعمال

((إذْ)) في المستقبل.

٣٥ شاكر: ١/ ١١١ - ١١٧.

٣٦ في النص زيادات توضيحية كثيرة من عمل الدكتور عادل سليمان جمال، بين أقواس، كزيادته (((هو الوليد بن عبد الملك)))، بعد ((أمير المؤمنين)) هنا، لم أر لها مكانا في مادة هذه الموازنة.

٣٧ بين التَّرْجيعَتَيْنِ في النص واوٌ، ولا موضع لها بين طرفي التوكيد.

٣٨ الكلمة الكتابية كل عنصر كتابي من عناصر تركيب الفقرة الكتابي، محوط من جانبيه بمسافتي بياض، يعده الحاسوب كلمة واحدة، مفردا لغويا كان في نفسه أو مركبا، ولا بأس بهذا المنطلق هنا ما دام مُحَمَّيًا، بل فائدة واضحة.

٣٩ لا يفوتني أن أنبه على أن الكاتبين شاعران تركا الشعر للنثر. ومن علم شاكر أنه كان يعرف مكانته من الشعر، مثلما كان يعرف مكانة الشعر منه؛ فقد كشفت لنا ((جمهرة مقالاته))، أنه كان يرى بمصر ثلاثة شعراء كبارا يستحقون التقدير، ذكر اسمي اثنين منهما ((علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل))، وكتم ذكر الثالث؛ فعرفت أنه يريد نفسه. وربما كان شاكر أشعر الثلاثة عند بعض الأدباء! ولقد عاش شاكر حياته - ولا سيما في زمان شبابه الصعب - شاعرًا عربيًا مسلمًا متمسكًا بثقافته، مَكْروبًا بما انتهجه بعض الشعراء من منهج الكفر والفسوق والعصيان، وكأنه منهج الشعر!

٤٠ استقريت أعلام نص الرافعي في نصه وفيها أفهم من الثقافة العربية الإسلامية جميعًا معًا؛ فكان تصنيفها على النحو المجدول التالي:

	أعلام الرافعي	معانيها	حالاتها الإعرابية			المجموع	
			الرفع	النصب	الجر		
١	الله	العقيدة	٧	٢	٧	١٦ (٢٥٪)	
٢	أحمد بن طولون	السلطان	٤	١	٦	١١	١٦ (٢٥٪)
	خارويه بن أحمد		٢		١	٣	
	المأمون				١	١	
	نوح بن أسد		١			١	
٣	أحمد بن محمد	الزهد	٥			٥	١٥ (٢٤٪)
	بنان		١	١	٣	٥	
	بكار بن قتيبة				٢	٢	
	الجنيد				٢	٢	
	يوسف بن الحسن				١	١	
٤	مصر	العز			٥	٥	١٤ (٢٢٪)
	بغداد				٣	٣	
	الري والجبال				٢	٢	
	طرسوس				٢	٢	
	أنطاكية			١		١	
	بخاري				١	١	
٥	أحمد بن عبد الله	العلم		١		١ (٢٪)	
٦	طولون	الذل	١			١ (٢٪)	
	المجموع		٢١	٦	٣٦	٦٣	

٤١ كذلك فعلت بأعلام نص شاكر؛ فكان تصنيفها على النحو المجدول التالي:

أعلام شاكر	معانيها	حالاتها الإعرابية			المجموع
		الرفع	النصب	الجر	

١	الله	العقيدة	٣٠	٤	٣٦	٧٠	٨١ (٪٤٢)
	رسول الله		٢	٥		٧	
	أبو بكر			٢		٢	
	أسماء بنت أبي بكر		١			١	
	الزبير بن العوام		١			١	
٢	عروة بن الزبير	الزهد	١٠	١٥	١٠	٣٥	٣٧ (٪١٩)
	أبو صعصعة			٢		٢	
٣	أمير المؤمنين	السلطان	١١	١١	٣	٢٥	٢٦ (٪١٣)
	سليمان بن عبد الملك		١			١	
٤	أبو الحكم	الحرية	١٢	٤			١٦ (٪٨)
٥	عمر بن أبي ربيعة	الغزل	٤	١٠			١٤ (٪٧)
٦	محمد بن عروة	الفتوة	٧	٢	١	١٠	١٤ (٪٧)
	هشام بن عروة		٢	١		٣	
	عبد الله بن عبد الله		١			١	
٧	عمر بن عبد العزيز	العدل	٣				٣ (٪٢)
٨	القاسم بن محمد	الهمة	١				١ (٪١)
٩	المدينة	العز			١		١ (٪١)
	المجموع		٨٦	٥٦	٥١		١٩٣

٤٢ الرضي: ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢. ٤٣ ابن منظور: علم.

٤٤ يستفاد ذلك من مقدمة الأستاذ محمد سعيد العريان، لـ((وحي القلم)).

٤٥ يستفاد ذلك من تأريخ الدكتور عادل سليمان جمال، للمقالات التي جمعها.

٤٦ ابن مالك: ١١٧.

٤٧ الجرجاني: ٢٤٣؛ فقد شرح القانون المتصرف في وجوه عطف الجمل واستئنافها.

٤٨ العلوي: ٣/ ٣٨، وإن لم يستوعب أنواع الموازنة التي أجملتها كلها، ونبه على ذلك.

٤٩ قد أحصيت من الموازنة للرافعي تسعا وعشرين عبارة، ولشاكر عشرين، من مثل ما نبهت عليه، وهي لا تنحصر بين المعطوف والمعطوف عليه، بل تكون بين المنعوت والنعت، والمشبه والمشبه به على وجوه مختلفة من التركيب، وبين الجمل المتجاورة غير المتعاطفة.

٥٠ ابن مالك: ٣/ ٣٥١، ٣٥٧.

٥١ ابن جني: ٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١، وهو عنده من شجاعة العربية.

٥٢ العلوي: ٢/ ٤٠٧؛ فقد ذكر ((الإجمال والتفصيل)) و((اللف والنشر))، ذكرا واحدا، من بعد أن جعل ((اللف والنشر))، هو الصنف السادس من صنوف ((الفصاحة اللفظية))، التي جعلها النمط الأول من البديع -ثم جعل ((الإجمال والتفصيل = اللف والنشر))، ((يُطْلَقُ اتّكالًا عَلى قَرِيحَةِ السّامِعِ في رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ إلى ما يَليقُ بِهِ)). وإنما ((اللف والنشر)) على ما شرح العلوي ومَثَّلَ، وَجْهٌ من ((الإجمال والتفصيل)).

٥٣ ابن مالك: ٣/ ٣٥١؛ فقد نبه على اختصاص الفاء بعطف المفصل على المجمل.

كُتُبُ الْبَحْثِ

- ابن جني (أبو الفتح عثمان): ((الخصائص))، تحقيق محمد علي النجار، وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة في ١٩٨٧م.
- ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الأندلسي): ((شرح التسهيل))، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد بدوي المختون، وطبعة دار هجر بالقاهرة، الأولى في ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي): ((دلائل الإعجاز))، قراءة أبي فهر محمود محمد شاكر، وطبعة المدني، ونشرة الخانجي بالقاهرة.
- الرضي (محمد بن الحسن الإستراباذي): ((شرح الكافية في النحو))، نشرة المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، دون بيان آخر.
- الرافعي (مصطفى صادق): ((وحي القلم))، طبعة دار المعارف بمصر، الثانية.
- شاكر (محمود محمد): ((جمهرة مقالاته))، طبعة الخانجي بالقاهرة، الأولى في ٢٠٠٣م.
- الشكعة (الدكتور مصطفى): ((مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا))، طبعة ١٩٧٨م الثانية، ونشرة عالم الكتب ببيروت ومكتبة المتنبي بالقاهرة.
- العلوي (يحيى بن حمزة بن علي): ((كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز))، طبعة ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م، ونشرة دار الكتب العلمية ببيروت.

فهرس الموضوعات

لِشاكِرٍ، جَوامِعُ النَّصَّيْنِ، فُصولُ الأَحْداثِ، حُضورُ الأَعْلامِ، صَوْتا الكاتِبَيْنِ، تَفْصيلُ الفُصولِ، تَرْتيبُ الفُصولِ، نَسْجُ النَّصَّيْنِ، تَوْصيلُ الفُصولِ، رَبْطُ الأَقْوالِ، عَطْفُ المُتَشابِهاتِ، تَرْكيبُ المُفاجَأَةِ، الإِجْمالُ ثُمَّ التَّفْصيلُ، فَصْلُ الحَدَثانِ، جَوامِعُ الذُّرْوَتَيْنِ، تَفْقيرُ الفِقَرِ، صِفَةُ الطَّبيبِ كَصِفَةِ الأَسَدِ، اليَقينُ اليَقينُ، مَجْلِسُ القَطْعِ كَهَجْمَةِ الأَسَدِ، عَمَلُ القَطْعِ كَذُهولِ الأَسَدِ، دَهْشَةُ الطَّبيبِ كَدَهْشَةِ الشُّهودِ، تَرْتيبُ الفِقَرِ، خاتِمَةٌ، حَواشي الفَصْلِ الرّابِعِ، كُتُبُ الفَصْلِ الرّابِعِ.